الأمين والمأمون

جرجي زيدان

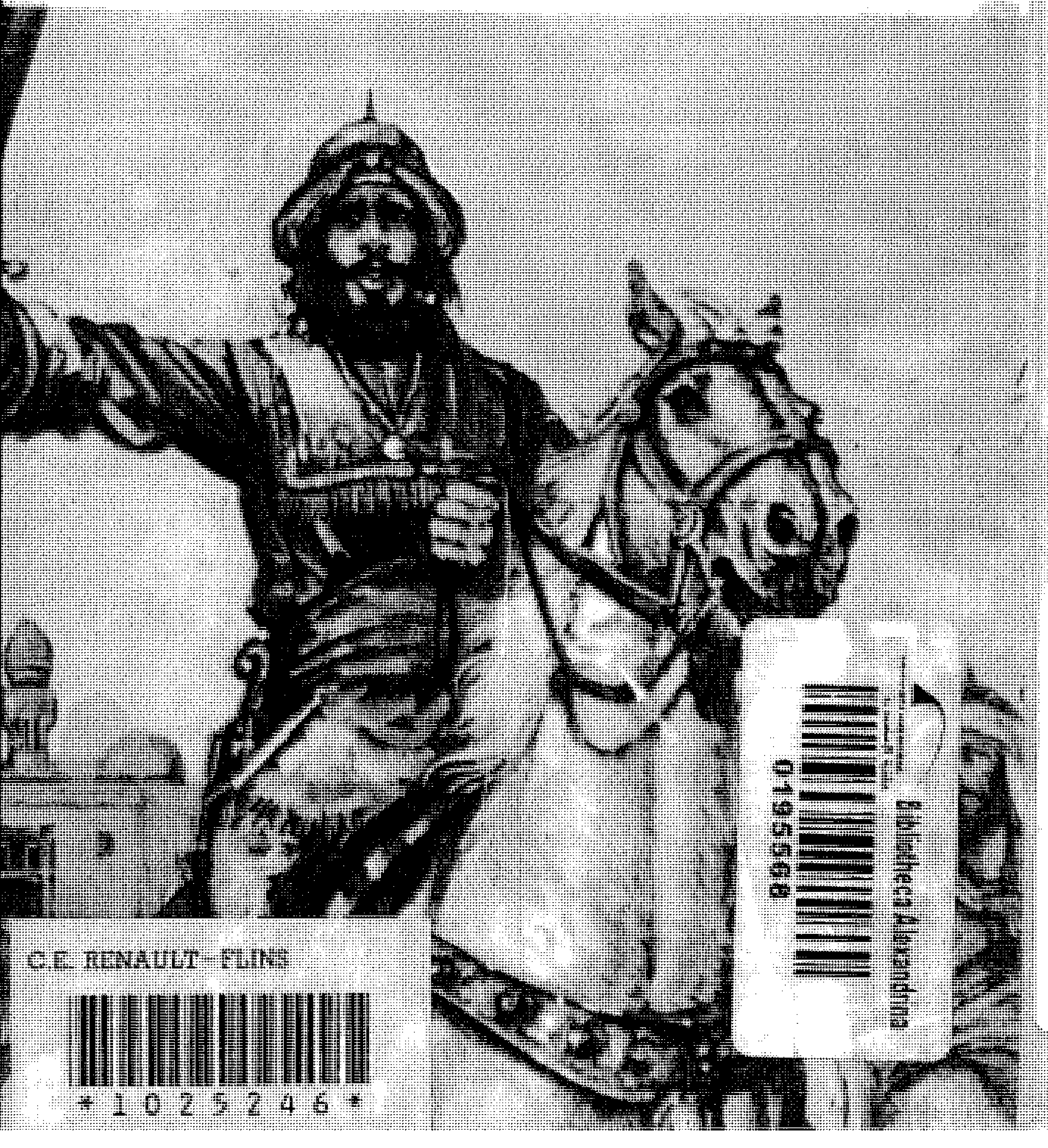

C.E. RENAULT - FLINS
1025246
Bibliotheca Alexandrina
0195568

GIFTS OF 1996
BIBLITHEQUE
INTERUNIVERSITAIRE DI
LANGES ORIENTALS
PARIS

الأمين والمأمون

تشتمل على ما وقع بين الأمين والمأمون من الخلاف بعد وفاة والدهما الرشيد ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد وقتلوا الأمين

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina
الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : 892.73081
رقم التسجيل : 7058

جرجي زيدان

COMITÉ D'ÉTABLISSEMENT
R.N.U.R. FLINS
Bibliothèque
78410 AUBERGENVILLE
N° Inventaire .Z.8.6.6.1.....
Cote ZAY...E.......3.2.84

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

* **الامين**	: ابن هرون الرشيد
* **المامون**	: ابن هرون الرشيد
* **الفضل بن الربيع**	: وزير الامين
* **الفضل بن سهل**	: وزير المامون
* **زبيدة**	: زوجة الرشيد
* **زينب**	: بنت المامون
* **دنانير**	: مربية زينب
* **عبادة بنت محمد**	: ام جعفر البرمكى
* **ميمونة**	: بنت جعفر البرمكى
* **بهزاد**	: حفيد ابى مسلم الخراسانى
* **طاهر بن الحسين**	: قائد المامون

مراجع هذه الرواية

هذه هى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

* تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان
* العقد الفريد
* تاريخ ابن الاثير
* أبو الفداء
* سير الملوك
* معجم ياقوت
* كتاب البلدان لليعقوبى
* الأغانى لأبى الفرج
* تاريخ المسعودى

فى خان سمعان

كان المنصور قد بنى مدينة بغداد باسمه سنة ١٤٥ هـ وجعلها معقلا له ولجنده ورجال دولته ، وشيد فى وسطها قصرا له سماه قصر الذهب وأقام بجانبه مسجدا عرف باسمه ، كما أنشأ الأبنية فيما بقي من المدينة لأعمال حكومته ، ولرجال خاصته • وأحاط المدينة بسور مثلث الجدران ، فتح فيه أربعة أبواب سماها بأسماء الجهات التى تؤدى اليها • فسمى الشرقى الشمالى باب خراسان ، والشمالى الغربى باب الشام ، والشرقى الجنوبى باب البصرة ، والغربى الجنوبى باب الكوفة • وأقطع رجاله ما يحيط بالمدينة من الأرباض فابتنوا فيها القصور وعرفت تلك الارباض بأسمائهم • ولم يمض زمن حتى تكونت حول المدينة أحياء عرفت بأسماء خاصة بها، أشهرها الحربية في الشمال ، والكرخ في الجنوب • وقامت الأبنيـة شرق دجلة ونشأت هناك أحياء الشماسية والرصافة والمحرم وغيرها • وبنى خارج باب خراسان قصرا كبيرا عرف بقصر الخلد ، وجعل بينه وبين ذلك الباب ميدانا كبيرا يمتد منه طريق يتجه نحو الشمال الشرقى الى الجسر الأوسط القائم على دجلة ثم يعرج شمالا ثم شرقا حتى يمر بين الرصافة والمحرم ، ويعرف بطريق خراسان • ويتخلل تلك الأحياء كثير من القصور والحدائق والأنهار ، (أو الترع) المتفرعة من دجلة الى • كل الجهات

وكان من بينها نهر يجرى من دجلة شرقا حتى يخترق الرصافة والشماسية ، عرف بنهر جعفر • وعلى جانبى هذا النهر أو الترعة وراء الرصافة بساتين فيها الأغراس والأشجار وبعض الأبنية ، وهناك بستان واقع على طريق خراسان من جهة وعلى ذلك النهر من جهة أخرى • اتخذه بعض الحمارين من أنباط السواد خانا ينزل به القادمون الى بغداد من الغرباء • وجعل فيه مما يلى الطريق بيتا يبيع فيه الخمور والأنبذة ويصنع فيه الأطعمة لمن شاء من الغرباء أو البغداديين

وكان لبعده عن العمارة ووقوعه على قارعة الطريق يقصده الراغبون فى ترويح النفس أو تناول الخمر من طبقات العامة لرخص الأثمان وقرب التناول ، ومن بعض الخاصة الراغبين فى شرب الخمر خفية خشية الرقيب أو فرارا من العار •

أما صاحب هذه الحانة فكان فى حدود الستين ، عركه الدهر ، ولانت

نفسه حتى كادت تسيل رقة . وقد عاصر ثلاثة من خلفاء بني العباس هم : المهدي ، والهادي ، والرشيد. وشهد كثيرا من الأهوال آخرها نكبة البرامكة منذ ستة أعوام ، ظل ثلاثة منها يشاهد جثة جعفر منصوبة على جسر بغداد

والخمارون يعتادون دماثة الخلق بما يعرض لهم من مخالطة الناس في أحوال سكرهم ولهوهم ، ولاضطرارهم الى مجاراتهم في طباعهم . فيهون عليهم احتمال الضيم والصبر على الأذى مرضاة « لزبائنهم » . فلا عجب ان كان ذلك الخمار من ألين الناس عريكة وأطولهم بالا وأكثرهم اطلاعا على نقائص البشر وأكتمهم لأسرارهم . وكانت حرفته هذه تكاد تكون خاصة بأهل الذمة من اليهود أو الانباط سكان البلاد الأصليين ، وذلك لتحريم شرب الخمر وبيعها على المسلمين

وكانت حانة ذلك النبطي غرفة من ذلك البيت ، في أرضها حصير عليه وسائد من الخيش محشوة بالقش ، وفي جدرانها كوى فيها دنان الأنبذة والخمور مما صنع من العنب أو التمر أو التفاح أو غيرها من الثمار ، وفوق الكوى رفوف عليها زجاجات أو أباريق وأقداح من الزجاج أو الخشب يكيل بها الخمر أو النبيذ ، ومن بينها ما يسع رطلا ، أو نصفه ، أو ربعه . وعلق على صدر الغرفة بربط ، وعود ، ودف . ترغيبا للمترددين عليه في أسباب السرور . ويغلب أن يكون الخمار رخيم الصوت يحسن الضرب على بعض هذه الآلات أو كلها . وكان بعض الخمارين في بغداد يجعلون في حانتهم قينة رخيمة الصوت حسنة الصنعة جميلة الطلعة يشرب الطلاب على صوتها

ففي يوم من أيام سنة ١٩٣ هـ . مضى النهار على ذلك الخمار دون أن يقصد حانته أحد ، لبعدها عن مركز المدينة . وكان أكثر ارتزاقه من المارة الغرباء، وهو يؤثرهم على أهل المدينة لأنهم يجهلون الاسعار، ولا يميلون الى المساومة كأهل البلد . فلا يبالي أحدهم أن يؤدي ثمن الرطل من النبيذ خمسة دراهم على حين أن ثمنه لا يزيد على درهمين . فلما انقضى النهار ولم يأته أحد أوقد في بعض جوانب البستان نارا ليشوي سمكة أعدها لعشائه . وفيما هو ينفخ في الوقود والدخان يتصاعد على وجهه حتى يتخلل لحيته ويغشى عمامته، وقد استوفز وشمر قفطانه وشكه من أطرافه بزنارة . سمع صوتا من قبل باب الحانة يناديه : « يا معلم سمعان » . فخفق قلبه سرورا وأسرع ليرى مناديه . فوجده من العيارين وهم كثيرون يومئذ في بغداد ، ومعظمهم من أهل البطالة الذين يعيشون من الدعارة والنهب . وكان معه رفيق له . فلما رآهما استعاذ بالله ، ولكنه كان قد تعود الكظم في مثل هذا الموقف ، وعلم ألا مفر من استقبالهما حتى لا يصيبه أذى فتجلد وتقدم باسما مرحبا

وكان العيار لابسا خوذة من الخوص ، وعلى صدره دراعة من الجلد المدبوغ عليها نقوش ملونة . وهو عاري الذراعين ، قد علق بكتفه اليمين مخلاة فيها حصى ، وعلى حقويه سراويل من الخيش الثخين تكسوه الى الركبتين، والمقلاع

معلق بكوعه ، وهو سلاح العيارين · وكان مكشوف الساقين حافي القدمين. يمسك باحدى يديه عصا غليظة ، وبالأخرى رغيفا أكل بعضه وفي فمه لقمة يمضغها وهو يقول : « اسقنا يا معلم »

فرحب به الخمار وعمد الى رطل صب فيه نبيذا وأعطاه اياه ، ثم نظر الى رفيقه فاذا هو بملابس الجند وهي الدراعة على ظهرها طراز الدولة «فسيكفيهم الله وهو السميع العليم » · وعلى رأسه قلنسوة مستطيلة مدعمة بالعيدان· وقد علق السيف بمنطقته فوق قباء أسود · فتوسم الخمار منه خيرا لعلمه أن الجنود يؤدون ثمن ما يأخذونه اذا أخذوا رواتبهم · وطلب منه الجندي أن يعطيه رطلا · فبادر الى اجابة طلبه ورحب به ، فشرب الجندي واقفا ، ثم تجشأ ومشى متبخترا · أما العيار فأخذ القدح وأدناه من فيه وهو يقول : « بورك فيك يا معلم سمعان والله لأجعلنك عيارا عندي متى صرت عريفا أو مقدما »

فقهقه الجندي وتقدم الى سمعان فوضع يده على كتفه وقال وفي لهجته عجمة لأنه فرغاني الأصل من أبناء الجنود الذين استقدمهم المنصور في أيامه : « وأنا أعاهدك اذا حدث الانقلاب القريب وأخذنا مخصصاتنا على أن أعطيك ثمن هذه الأرطال مضاعفا · وأظنني مدينا لك بشيء من قبل ·ولكن ما العمل ؟· لابد من الصبر ! »

فقطع العيار كلامه وقال : « وأنتم أيضا تشكون القلة والفقر ؟· ألستم من أصحاب الرواتب ؟ »

قال : « صدقت يا صاحبي ، اننا نأخذ رواتبنا ولكنها لا تفي بنفقاتنا ومن نعول · وهل يقوم بالجندي غير الغنائم في الحرب أو ··؟ » · وتوقف وأخذ يهمس حذر سامع · فسبقه العيار وقال : « أو عند وقوع تغيير أو انقلاب في قصر الخلافة ، اذ تنالون أجوركم أضعافا مضاعفة ، ناهيك بحق البيعة ·· طب نفسا فان ذلك قريب »

فوضع الجندي يده على فم صاحبه يريد اسكاته حذرا من الفضيحة · وكان سمعان يسمع كلامهما ولا يهمه مما يسمعه الا ما يتوسم من ورائه استيفاء دينه · فلما رآهما يحاذران الكلام وهما بالباب تقدم اليهما وقال : « تفضلا وادخلا » · وأشار الى الحصير كأنه يدعوهما الى الجلوس ، فدخلا ومد العيار يده الى البربط المعلق على الحائط فتناوله ودفعه الى الخمار ، ثم جلس وقال : « علمت أنك تحسن الغناء والضرب على البربط لقرابة بينك وبين برصوما الزمار · فاسمعنا »

فتناول سمعان البربط وهم باصلاحه وهو يقول : « يا ليتني كنت من أقارب برصوما فانه من المقربين الى مولانا أمير المؤمنين يستمتع برفده وجوائزه »

فقال الجندي : « لو كنت تحسن النفخ في المزمار لكنت أصبت مثل حظه،

أو حظ ابراهيم الموصلي المغني ، أو ٠٠ ولكن أشكر الله على حالك فان التقرب من القصر لا يخلو من الخطر ٠ فمهما تصادف من نعيم فلن يكون خيرا من نعيم البرامكة ، وأنت تعلم مصيرهم ! »

فقطع العيار كلامه قائلا : « أراك يا صاحبي من الفلاسفة ورجال الزهد ٠ أما أنا فادخلني قصر الخلد واجعلني مغني الخليفة أو زامره أو شاعره ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون ٠ أو اجعلني جنديا مثلك على الأقل ٠ تأخذ أجرك وأنت قاعد واذا ذهبت في حرب عدت بالغنائم والأسلاب والسبايا من النساء الجميلات ! »

فابتدره قائلا وهو يهز رأسه : « اذا عدت حيا ٠ ! »

فقال له العيار : « ولماذا لم تذهب في الحملة التي سار فيها أمير المؤمنين الى سمرقند منذ بضعة أشهر لمحاربة رافع بن الليث ٠ ألا تتوقع منها فوزا ؟ »

قال : « علم المستقبل عند الله ٠٠ وليس لنا رأي في تجنيدنا ، وانما الأمر لقوادنا ٠ ولقد خرج الرشيد في هذه الحملة يشكو مرضا وأناب عنه ابنه الأمين في بغداد ٠ والأمين كريم الخلق جواد لا يخشى بأسه مثل أبيه ٠ وهذا من حسن حظكم أيضا لأني أرى كبيركم الحسن الهرش مقربا من البلاط كأنه صار من رجال الدولة »

فقال العيار : « يظهر ذلك ٠٠ ولكن حظنا لا يتم الا ٠٠٠ وتلفت يمينا وشمالا ، ثم واصل كلامه وقد خفض صوته فقال : « الا متى صار الأمين خليفة ، فقد تحسدني عندئذ على العيارة ، كما أحسدك الآن على الجندية » ٠ ثم حول وجهه فجأة نحو البستان وقال : « اني أشم سمكا يشوى »

وكان الخمار أثناء هذا الحديث قد انهمك في اصلاح البربط ، والليل قد أسدل نقابه فظهرت النار الموقدة والدخان يتصاعد عنها ، فلما سمع العيار يذكر رائحة السمك المشوي توقف ووضع البربط من يده وصاح : « نسيت السمكة على النار » ٠ ثم تقدم نحو سراج من الخزف موضوع على مسرجة مسمرة بالحائط ، فأصلح فتيلتها بسبابته ، وأخذ في انارتها فأتى بالقداحة والصوانة والعطبة أو الصوفانة ، فوضع الصوفانة على طرف الصوانة ، وضرب عليها بالقداحة فخرجت شرارة أشعلت الصوفانة ، فأتى بعود رأسه مغموس في الكبريت وأدناه من رأس الصوفانة فاشتعل الكبريت وأشعل العود ، فقربه من الفتيلة فأوقدها فأضاء السراج ٠ واغتنم العيار فرصة اشتغال الخمار بعمله وأسرع الى السمكة فتناولها من النار بيده لا يبالي حرارتها وهرول الى الجندي فوضعها على رغيف بين يديه وصاح بالخمار : « الي بقدحين من النبيذ القطربلي »

فقال : « ليس عندي شيء من نبيذ قطربل ، ولكنني أسقيكما نبيذا

مصنوعا من الذوشاب البستاني مع العسل » • وجاءهما بخمر قوية مظهرا الترحيب بهما ، بينما هو يستعيذ منهما وهمايضحكان لا يباليان فلا يسعه الا أن يشاركهما الضحك

وفيما هم كذلك سمعوا رجلا ينادى فى الطريق : « السمك الطرى أربعة أرطال عند بيطار حيان » • وهي مناداتهم على السمك فى ذلك العهد• فوثب العيار يقول : « لقد سنحت لنا الفرصة لنكافئك يا معلم سمعان » ثم تناول حصاة من المخلاة وضعها فى المقلاع ، وخرج من باب الخمارة وقال : « أسرع والتقط السمك من الأرض » • فعلم سمعان أن العيار سيرمي ذلك البائع المسكين بالمقلاع،فأخذته الشفقة به ، وأمسك العيار بيده فأوقفه عن الرمي• ثم تفرس في البائع وهو لا يكاد يراه في العتمة فوجده فقيرا عارى الساقين والذراعين لا يستره غير ثوب خلق وعلى رأسه فوق العمامة طبق من القش ظهر فوقا السمك • فجذب العيار يده من يد الخمار وقال : « دعني أعوضك عن سمكتك سمكتين »

فقال : « أخاف أن تقتل الرجل • لا حاجة لى بالسمك »

فضحك العيار وقال : « لا تخف انى أرمي• السمك فقط ولا أمس الرجل ولا طبقه ، وسترى ! » • قال ذلك وأطلق الحجر من المقلاع فاصاب أعلى السمك فقط ، فسقط بعضه والرجل ماش لم يشعر • وللعيارين مهارة عظيمة فى رمي الحجارة • وكان بيد السماك رغيف فقال العيار للخمار : « وأرمي لك الرغيف اذا شئت » • فوقعت كلمته فى أذنى البائع فالتفت اليه وما كاد يراه حتى ذعر ورمى الرغيف الى الأرض وقال : « هـذا هو الرغيف خذه ودعنى » • ثم ولى هاربا • فأشار العيار للخمار أن يأخذ السمكتين والرغيف ، ففعل وهو يعجب من مهارة رميه ودخل ليشوى السمكتين وهو يدعو الله من قلبه عسى أن ينقذه من هذه الورطة

وكأن الله استجاب دعاءه ، فما عتم أن سمع وقع حوافر دابة عند باب بستانه ، فالتفت نحو الباب وعيناه تدمعان ويكاد الدخان يحجب بصره ، فرأى رجلا طويل القامة مع انحناء قليل تدل هيئته على السكينة والوقار وعلى رأسه عمامة سوداء كبيرة الحجم ، وقد ارتدى جبة طويلة تحتها ثوب عسلي اللون حوله زناد مشدود ، وهو لباس أهل الذمة فى ذلك العصر ، وقد شك فى الزنار دواة من الفضة • وكان وجهه صبوحا مع رقة ونحافة حتى كاد جلده يلصق بالعظم مع بروز الوجنتين ، وعيناه سوداوان براقتان تدلان على الذكاء ، وأنفه كبير منحن قليلا ، وله لحية كثيفة مسترسلة قد دب فيها الشيب تتصل من الجانبين بسالفين كثين

ودخل الرجل يتوكأ على عكاز بيمينه وقد تأبط بالأخرى شيئا تحت الجبة• فلما رآه الخمار أدرك أنه من وجهاء الصابئة أو أحد علمائهم،فاستغرب مجيئه اذ ليس للحانات نصيب من زيارة أمثال هذه الطبقة من الناس• وتنحى

العيار والجندى للرجل بينما تقدم الخمار وانحنى كأنه يسأله ما يريد ، فقال الرجل بصوت خشن هادىء : « أليس هذا خان المعلم سمعان ؟ »

فسر الخمار لاشتهار اسمه عند كرام القوم وقال : « نعم يا سيدى »

قال : « وهل فى بستانك مكان للاستراحة ؟ »

قال : « نعم يا مولاى ‥ تفضل »

ودخل الخمار مهرولا فتبعه الرجل وقال : « اذا سألك مقدم العيارين الليلة عن (الملفان) سعدون فقل له انى فى انتظاره هنا » ٠ والملفان رتبة علمية عند السريان تقابل رتبة دكتور أو علامة اليوم

وكان العيار والجندى واقفين ينظران الى الرجل ، فتذكر العيار أنه رآه من قبل ، ولما سمعه يذكر مقدم العيارين أجفل وتذكر أنه شاهده معه غير مرة ٠ فرأى من الحكمة أن يخرج من ذلك المكان قبل مجيء مقدمه ، فتحول وخرج ٠ وأما الجندى فأحب البقاء ليطلع على ما عساه أن يكون من أمر هذا الاجتماع الذى يندر فى مثل هذا المكان خارج المدينة ٠ فجلس على وسادة فوق الحصير بقرب الحائط وجعل سيفه فى حجره والحائط بينه وبين البستان

أما الخمار فسره قدوم الملفان سعدون وما يتوقعه من قدوم الهرش مقدم العيارين ، فقد يتعشيان أو يشربان فينال منهما ما يعوض به خسارته ذلك المساء ٠ فمشى بين يدى الرجل ، وكان هذا لطول قامته يخاف أن تعلق عمامته ببعض الأغصان فمشى مطأطىء الرأس حتى وصل الى مصطبة مطلة على نهر جعفر تظللها شجرة كبيرة وفوق المصطبة حصير عليه وسادتان ، فأجلسه الخمار هناك ٠ ثم تركه ريثما عاد بالسراج الذى كان فى الحانة فوضعه على أرومة شجرة بجانب المصطبة ، وسأله هل يحتاج الى شيء من طعام أو شراب فقال : « لا ‥ » ٠ ثم اتكأ على احدى الوسادتين ووضع العصا بجانبه وأخرج من كمه جرابا صغيرا وضعه بين يديه ، وتشاغل بتمشيط لحيته بأنامله ، منصتا الى صوت ساقيه تدور فى بستان قريب ٠ فتركه الخمار الى الحانة فأتى بسراج آخر أضاءه ، والتفت الى الجندى فوجده وحده هناك ، فسأله عن رفيقه فقال : « فر خوفا من قدوم (الهرش) أميره» ٠ ثم سعل وقال : « عسى هذا الصابىء ان يعوضك ما خسرته علينا ! » ٠ فقال : « ان شاء الله ! »

وساد الصمت لحظة ، ثم عاد الجندى الى الكلام فقال : « لأمر ما تواعد هذا الصابىء على اللقاء هنا مع الهرش مقدم العيارين ؟! »

فقال سمعان : « هؤلاء الصابئة أهل سحر ونجامة لا تخفى عليهم خافية ولعل الهرش يستعين به على كشف المخبآت »

فهز الجندى رأسه موافقا ، وأوجس خيفة من أن يطلع سعدون بسحره على دخيلة أمره ، فسكت واشتغل الخمار عنه بالتقاط ما وقع على أرض الحانة

من آثار الأكل والشرب استعدادا لمجيء الهرش

ثم سمعا جواد الصابىء يصهل صهيلا قويا،وكان مربوطا بجانب الطريق يحرسه غلام ، فأجابه صهيل مثله عن بعد ، فاستبشر الحمار بأن أناسا من أهل الوجاهة قادمين اليه. ثم اقتربت الأصوات واشتد وقع الحوافر،وظهر على الباب فارس وبين يديه غلام بلباس العيارين ما لبث أن صاح مناديا : « يا معلم سمعان »

فخف الحمار الى استقباله مرحبا،وأخذ يتأمل في لباسه الفاخر وقلنسوته القصيرة كسراويله ، والى سيفه المدلى على ساقيه اللتين يحيط بهما لفائف من الجلد حتى الكعب فوق النعال ، ثم سأله الغلام : « هل جاءك الملفان سعدون ؟ »

فقال : « نعم هو في البستان » . وأيقن أن الفارس هو الهرش مقدم العيارين ، فتقدم وأمسك بلجام الجواد والركاب حتى ترجل الهرش . وكان هذا قصير القامة ممتلىء الجسم قويه لا يزال سريع الحركة رغم كهولته ، اذا مشى تبختر تيها وخيلاء ، غليظ الشفتين خفيف اللحية والشاربين أشيبهما، وعلى جبهته ندبة غائرة من أثر جرح أصابه في قتال كاد يقضي عليه في صباه وهو يفاخر أقرانه بهذا الأثر . وكان كبير العينين لا يبرح الاحمرار ظاهرا فيهما كأنه صحا من رقاد عميق . فاذا علمت أن الرجل أمير العيارين سهل عليك الحكم على أخلاقه . والعيارون يرتزقون بالسرقة والاعتداء ونحوهما ، ولا رقيب عليهم ولا حسيب . وكثيرا ما كانت الحكومة تستعين بهم فاذا أخلصوا لها نفعوها لأنهم أقدر الناس على كشف أخبار الدعارة وتتبع اللصوص . وكانت الحكومة يومئذ تستعين حتى باللصوص أنفسهم، وعندها طائفة منهم تابوا عن اللصوصية فسمتهم التوابين، وأجرت عليهم الأرزاق لتستخدمهم في كشف السرقات على أنهم ندر ان أخلصوا لها الخدمة ولم يكونوا مع اللصوص عليها . وانما تكثر أمثال هذه المفاسد في عهود الحكومات الاستبدادية اذا ضعف صاحبها وطمع رجاله في الأموال وفسدت النيات وأصبح الناس عيونا بعضهم على بعض

دخل الهرش مقدم العيارين بستان سمعان ، في حين وقف غلامه بالجواد في منعطف الطريق. وأسرع الحمار في أثر الهرش حتى أوصله الى المصطبة، فوقف له الملفان ورحب به ، فجلس الى جانبه وأشار الى الحمار ألا حاجة بهما الى شيء . ففهم أنهما يريدان الخلوة ، فرجع الى الجندي وأشار عليه بأن ينصرف لئلا يكون وجوده باعثا على شك ، فانصرف أسفا

أما الهرش فنظر الى رفيقه وتبسم قائلا : « أظنني أبطأت عليك »

قال : « لم أنتظر الا قليلا »

قال : اني في شوق الى رؤيتك ولولا ذلك ما استطعت المجيء اليك

ولاسيما اليوم لغياب أمير المؤمنين الرشيد عن بغداد »

فقال : « أليس ابنه الأمين مكانه ؟ »

قال : « بلى · ولكن هذا الغلام ـ وأنت أعلم به مني ـ لا خبرة له بسياسة الدولة · ولعله أدرى بسياسة الجوارى والغلمان والكأس والطاس · فتراني لا أخرج من منزلى الا قليلا ، وترى رسول صاحب الشرطة ذاهبا جائيا الى يحمل الى الأسئلة عما غمض عليهم كأني الملفان سعدون الصابىء الحراني أضرب المندل وأستطلع الغيب بالنجوم ! » · قال ذلك وضحك · فأدرك سعدون غرضه وتجاهل وقال : « العفو أيها الأمير ، ان ما يستطيعه مقدم العيارين يعجز عنه مثلي · وأنا اذا عرفت شيئا فانما يدلنى عليه الكتاب والحساب ، أما أنت فتعرفه بفراستك وشجاعتك »

فسر بهذا الاطراء وقال : « قد أكون أعرف كل شىء ، ولكننى أقر بعجزى عن معرفة مقرك لأنى ما بحثت عنك مرة واستطعت لقياك ـ اللهم الا اذا ضربت لى موعدا »

قال : « ليس هذا دليلا على عجزك بل هو من سوء حظى لأن اشتغالى بالكيمياء فضلا عن المندل والنجامة يقضى على بالانزواء معظم الأيام ، ولذا تراني تركت أهلي وهجرت حران لئلا يشغلوني عن عملي · وقد طال بعدى عنهم حتىأصبحوا لا يعرفونني ولا يدرونمقرى ولو سألتهم لأنكروا أمرى»

ففرح الهرش بتطرق الرجل الى ذكر الكيمياء ليسأله عما فعله بقطعة من النحاس دفعها اليه منذ أيام ليحولها الى ذهب فقال له : « أظنك طبعا نسيت صديقك الهرش ولم ··· »

فقطع سعدون كلامه قائلا : « كلا أني لا أنسى مولاى المقدم ، وأبشره بأن حظه في أسمى الطوالع ، لأنى وفقت فى طبخ نحاسه توفيقا غريبا ينـدر مثله ! »

فطرب الهرش اذ توقع الغنى القريب ، وسأله : «هل صحت الطبخة ؟»

فتبسم سعدون ومد يده الى جرابه ، فحل عقدته وأخرج منه سبيكة من الذهب الابريز وقال : « نعم يا سيدى وهذه هي القطعة التى جربتها ومتى نضج الباقي دفعته اليك» · ثم قال له همسا وهو يناوله السبيكة : «وأظنني لا أحتاج الى أن أوصيك بتكتم الأمر عن سائر الناس فاني لا أحب أن ·· وأنت تعلم السبب »

فأخذ الهرش السبيكة وأدناها من لهيب السراج وتفرس فيهـا فاذا هي ذهب لا ريب فيـه · على أنه خاف أن يكون فى الأمر خداع وهو قد اعتاد بحكم منصبه أن يسىء الظن بالناس وأن يرى الغش حيث تطلع وأين مشى ، فجعل يزن السبيكة بيده ليمتحن وزنها · فلما رأى سعدون شكه قال بهدوء ورزانة وفى صوته لهجة العتاب : «لا تشك يا سيدى · وتستطيع أن تبيعها

في سوق الصياغ غدا فتعلم صدق قولي . ولا ألومك على الشك لأن الناس لم يتعودوا الصدق ولا علموا نجاح الكيمياء الا قليلا ، ويغلب فيمن يصح طبخه أن يستأثر بالذهب لنفسه »

فخجل الهرش من هذا التوبيخ اللطيف وازداد احتراما للملفان سعدون وثقة به ، فبادر يعتـــذر وقال : « حاشا لي أن أرتاب في صدقك ، ولست حديث العهد بمعرفتك فكم كشفت لي من المخبآت ، وأعلمتني من الأسرار حتى صرت أعدك أخي بل أعز من أخي »

فقال : «أتكون مسلما ويكون أخوك صابئا ؟ هل ترضى ذلك لنفسك ؟». وضحك وهو يلف درجا كان يقلبه في أثناء الحديث وجعله في الجراب الذي اخرج السبيكة منه

أما الهرش فادرك أنه يمازحه فقال : « اذا كان الصابئة كلهم مثل الملفان سعدون فانهم اخوتي جميعا ، وأكرم بها من طائفة عنـدها علم النجوم .. و .. » . وسكت مصغيا كأنه يسمع صوتا ثم قال : « كأنني أسمع قرقعة لجم البريد »

وكان الصابئ قد ربط الجراب وتأبطه وتحفز للنهـوض فقال : « هـذا بريد خراسان يحمل خبرا مهما . ألا تراني أتهيأ للنهوض من قبل ؟ »

فازداد الهرش اعجابا بمقدرة سـعدون في فنه حتى علم أن البريد قادم من خراسان بخبر مهم.فنهض يصلح قلنسوته وينقل سيفه وقال : «صدق من قال ان لقرقعة لجم البريد رهبة . دعني أذهب لملاقاة صاحب البريد لعلي أستطلع منه خبرا .. اني أسمع الصوت يقترب منا »

ومشى مسرعا وسعدون يتبعه على مهل ، وقبل أن يصل الهرش الى باب الخان رأى بغل البريد وقف بالباب ، وراكبه بجانبه ملثما وقد شد وسطه بهميان عريض ، والبغل يلهث من التعب وقد تصبب العرق عن صـــدره وأرغى بعضه تحت اللجام ، ثم سمعه يقول للخمار : « اسقني يا سمعان ». فأسرع الرجل الى كوب ملأها ماء ودفعها اليه

وكان الهرش قد وصل الى الباب ، فلما وقعت عينا حامل البريد عليـه ترجل قبل أن يشرب وهم بتقبيل يده ، فأومأ اليـه أن يشرب ففعل ودفع الكوب الى الخمار ، ثم اقترب من الهرش فأسر اليه كلمة وجعلا يتهامسان ، وسعدون واقف على عتبة الحانة مما يلي البستان لا يسمع شيئا ، ولكنه لحظ مما بدا على الهرش عند اصغائه للرجل ان الخبر الذي يحمله من خراسـان عظيم الأهمية . ولم يطل تهامسهما فاعتذر صـاحب البريد وركب البغل وأطلق له العنان . فتحقق سعدون عند ذاك ان صاحب البريد يحمل خبرا ذا بال منعه من اطالة الحديث مع مقدم العيارين.فدخل سعدون الحانة فرأى الهرش مقبلا عليه والدهشـــة ظاهرة في وجهه يمازجها ارتياح . وآنس

ابتسامة حول فمه تنفي انقباض أسرته ، فأدرك بفراسته أن الخبر ذو صلة بالرشيد لأنه في خراسان ، وقد ذهب اليها مريضا . وشـــاع ان المرض اشتد عليه ولا يرجى شفاؤه . فلما سمع قرقعة لجم البريد ترجح عنده خبر موت الرشيد فلما رأى الهرش مقبلا عليه تبسم وهز رأســه وقال : « لكل أجل كتاب ! »

فبغت الهرش لقوله وعده نبوءة وأمسك بيــده وانتحى به مكانا منفردا وهمس يقول : « هل عرفت بموته . وكيف ذلك ؟ »

قال : « رحم الله الرشيد انه مات غريبا وقد كنت أتوقع موته يوم خرج في هذه الحملة . عرفت ذلك من طالعه . وأراك سررت بموته . ويحق لك السرور كما يحق لسائر الأمراء والأجناد ، لأنكم ستأخذون رواتب جديدة خصوصا أنت فانك أوفر حظا من سائر الأمراء لأن الأمين اذا تولى الخلافة زاد في تقريبك » . وتنحنح وتظاهر بأن السعال شغله عن اتمام كلامه

فتناول الهرش الحــديث عنــه وقال : « ولكن حامل البريد مع ثقته بي ورغبته في ارضائي كتم عني خبرا آخر قال انه على جانب عظيم من الخطورة . واكتفى بأن ذكر أنني سأعرفه قريبا »

فقطع سعدون كلامه وقال : « لا شك أنك ستعرفه لأنه سينشر على رؤوس الملأ ، ولو كان كتاب المندل معي لاستطلعته في هذه الدقيقة ولكن . » وتحفز للخروج كأنه يهم بالذهاب لعمل المندل ونادى غلامه أن يأتيه بالفرس فاستوقفه الهرش قائلا : « أراك مسرعا وأنا في حاجة اليك »

قال : « اني رهين أمرك ولكنني أحب الاطلاع على بقية الخبر »

فقال : « ولكننا تواعدنا على الاجتماع هنا لنتكلم فلم يطل مقامنا ، ثم أن أخانا علي بن عيسى بن ماهان صــاحب الشرطة يجب أن يراك لأنني كثيرا ما ذكرتك بين يديه وحكيت له عن معجزاتك »

فقطع كلامه قائلا : « أخاف أن تكون ذكرت الكيمياء »

فضحك الهرش وهو يتشــاغل برفع حمائل سيفه وقال : « الكيمياء ؟ . كلا ولكنني قصصت ما أنت عليه من المهارة في النجامة والمندل فرأيت منه ميلا لرؤيتك ، وأوصاني بأن آتيه بك . وأظنه ينفعك لأنه صاحب شرطة بغداد وله شأن كبير ولاسيما بعد هذا الخبر فان مولانا الأمين يعول عليــه ويحبه . وهذه فرصة لي أيضا لأكافئك على حسن صنيعك »

فأطرق سعدون هنيهة وهو ينتف عثنونه وينكت الأرض بعكازه ثم قال: « دعني أذهب الآن على أن أعود اليك بالخبر الليلة »

قال : « اذا كنت تعود الى الليلة فلا بأس من ذهابك الآن . وأتني في أي

هزيع من الليـــل تجدنى فى قاعة العيارين بالحربية وأنت تعرفها · ومتى جئت نذهب معا الى دار صاحب الشرطة فسيكون ساهرا·ولا أظنهم ينامون الليلة اذا بلغهم ما بلغنا من أمر الرشيد ، لأن موته سيحدث تغييـرا خطيرا أرجو أن يكون منه نفع لى ولك » · قال ذلك ومد يده الى يد سـعدون كأنه يحييه ، ثم نادى غلامه فجاء يحمل صندوقا صـغيرا وعصا وملاءة مما قد يحتاج اليه فى أثنـاء الطريق ، فأشار اليـه أن يعطى للخمار بعض المال ، فدفع اليه صرة صغيرة بها دراهم فأخذها الخمار شاكرا وأكب على يد الهرش يهم بتقبيلها فمنعه ، فالتفت سعدون اليه وقال : « هل جاء الأمير الهرش اليك الليلة ؟ »

فأدرك الخمار انه يعرض برغبته فى كتمان ذلك فأجابه : « كلا يا مولاى ولا الملفان سعدون · كن مطمئنا »

فالتفت الهرش الى سعدون ضاحكا ، فقال هذا : « اركب أنت قبلى ، ثم أركب أنا حتى لا نترك أثرا لاجتماعنا »

فقال الهرش : « أراك تبـالغ في الكتمان يا صديقى وليس فيما أتيناه ما يوجب هـذا التستر ·· لم يكن ثمة باعث على خروجنـا الى هنا لهـــذا الاجتماع »

فقال وهو يخفض صـوته : « يهمنى كتم أمر الكيمياء فقط · وانى أرى للجدران آذانا وللطرق ألسنة فاعذرنى ! »

وركب الهرش ومشى الغلام فى ركابه فى طريق خراسان غربا نحو الجسر ، ثم غربا جنوبيا نحو الحربية

فلما تحقق سعدون ذهابه ركب وأدار شكيمة جواده جنوبا ثم شرقا نحو المحرم يلتمس قصر المأمون

القصر المأمونى

كان قصر المأمون على عهد قصتنا هذه فى جنوبى القسم الشرقى من بغداد بعد قصر الأمين. وكان يسمى قبلا القصر الجعفرى نسبة الى جعفر البرمكى وزير الرشيد . والسبب فى بنائه أن جعفرا كان شديد الشغف بالشرب والغناء . وكان أبوه يحيى رجلا جليلا ذا رأى وعقل يخاف على ابنه عاقبة هذا التهتك ، فنهاه فلم ينته ، وأوصاه بأن يستتر عملا بالحديث المأثور فأبى . فلما أعيته الحيلة فيه قال له : « ان كنت تأبى التستر فاتخذ لنفسك قصرا بالجانب الشرقى من بغداد لأنه قليل العمارة ، واجمع فيه ندماءك وقيانك ، لتكون بعيدا من عيون من يكره ذلك منك »

فقبل جعفر النصيحة وأمر ببناء قصره بالجانب الشرقى وبذل فى بنائه مالا كثيرا . فلما تم بناؤه سار اليه فى جماعة من أصحابه فيهم صديق حكيم مخلص له اسمه مؤنس بن عمران ، فطافوا القصر واستحسنوه ، ولم يبق منهم أحد لم يقرظه بما يبلغ اليه امكانه الا ابن عمران فانه ظل ساكتا ، فقال له جعفر : « مالك ساكتا لا تتكلم وتدخل معنا فى حديثنا ؟ »

فقال : « حسبى ما قالوا »

فأدرك جعفر أن هناك شيئا يكتمه فقال : « أقسمت لتقولن »

فقال : « أما اذا أبيت الا أن أقول فلك على ذلك »

قال : « نعم واختصر »

فقال : «أسألك بالله ان مررت بدار بعض أصحابك ورأيتها خيرا من دارك فما كنت صانعا ؟ » . يشير الى ما كان فى نفس الرشيد من جعفر من اكبار ما بلغ اليه من الثروة والنفوذ »

ففهم جعفر مراده فقال : « حسبك قد فهمت ، فما الرأى ؟ »

قال : « أرى اذا صرت الى أمير المؤمنين وسألك عن تأخرك ، فقل انك كنت فى القصر الذى بنيته لمولانا المأمون واجعل انك بنيته له »

فأعجبه رأيه وأقام بالقصر بقية ذلك اليوم ثم ذهب الى قصر الخلد ودخل على الرشيد . وكان الجواسيس قد نقلوا اليه خبر بناء هذا القصر ولم يكن فى قصور الخلفاء مثله فقال له : « من أين أتيت وما الذى أخرك الى الآن ؟ »

قال : « كنت فى القصر الذى بنيته لمولاى المأمون شرقى دجلة »

فقال الرشيد : « أللمأمون بنيته ؟ »

قال : « نعم يا أمير المؤمنين لأنه ليـــلة ولادته جعل في حجري قبل أن يجعل في حجرك،واستخدمني أبي له فدعاني ذلك الى أن اتخذت له بالجانب الشرقي قصرا لما بلغني من طيب هوائه ليصح مزاجه ويقوى ذهنه ويصفو »

فلما سمع الرشيد قوله سرى عنه وأسفر وجهه ووقع عنده موقع القبول وقال : « والله لا يسكنه أحد ســـواك ، ولا أتمم ما يعوزه من الفرش الا من خزائننا » ٠ وزال من نفس الرشيد ما كان يخامره

فلما أوقع الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ واستباح قصورهم وأموالهم ، انتقل القصر الى المأمون بن الرشيد ، وهو ولي عهد المسلمين بعد الأمين ، فأحبـــه المأمون وهو يومئذ في ريعـان الشباب ، وصـــار أحب الأمكنة وأشهاها لديه ، وأخذ في توسيعه من جهة البرية فأضـــاف اليه قطعة من الأرض جعلها ميدانا لركض الخيل والحلبة في أيام السباق واللعب بالكرة والصولجان ، وبنى في جوانب القصر حظائر حبس فيهـا أصناف الوحوش من السباع وغيرها ، وفتح له بابا شرقيا يشرف على البرية ، وأجرى فيـــه نهرا ساقه من نهر المعلى ، وابتنى قريبا منه منازل لخاصته وأصحابه وسمي القصر من ذلك الحين « القصر المأموني » ٠ وعرفت تلك الجهة بجهة المأمونية وصار فيها بعد ذلك طريق اشتهر بهذا الاسم في بغداد

وكان المأمون وهو ببغداد أثناء ولاية العهد حتى سنة ١٩٢ هـ قد أسكن فيه الفضل بن سهل وأخاه الحسن ، ولهذين الرجلين شأن في تاريخه٠فلما طلب الرشيد خراسان لمحاربة رافع بن الليث فيما وراء النهر ، وكان قد ثار على الدولة وعجز العمال والقواد عن اذلاله حمل الرشـيد عليــه بنفسه واستخلف على بغـداد ابنه الأمين واليا عليها ، وأمر المأمون أن يبقى فيهــا وكان قد أوصى له بخراسان يتولاها بعد موته

وكان الفضل بن سهل فارسيا من سرخس ، ذا مطامع في السلطان ، وفي نفسه نقمة على الرشيد لغدره بجعفر البرمكي ٠ كما نقم عليه سائر رجال الفرس وأجمعوا أمرهم فيما بينهم على الأخـــذ بالثأر ، فتوجهت آمالهم الى المأمون لأن أمه فارســـية وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميـــل الى الشيعة العلوية وهي جامعة الفرس ٠ وكان يحيى أبو جعفر قد اختارالفضل ابن سهل لخدمة المأمون ، وكان مجوسيا فأسلم على يده طمعا في نصرة الفرس، وكان المأمون يجله ويقدمه

فلما أزمع الرشيد الخروج الى خراسان في تلك السنة وطلب الى المأمون البقاء في بغداد ، خاف الفضل أن يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه سدى فجاء الى المأمون وقال : « لست تدري ما يحدث للرشيد ، وخراسان ولايتك ، ومحمد الأمين مقدم عليك في ولاية العهد ٠ وأخشى أن يخلعك وهو

ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها كما تعلم ، فاطلب الى أمير المؤمنين أن تسير معه » • فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولا ثم قبل ، وذهب الفضـــل وأخوه الحسن معهما ، وخلف المأمون بعض أهله في ذلك القصر ومعهم الخدم والعبيد وعليهم قيم يتـــولى شؤون بيت المأمون وأمواله وضياعه

وكان القصر المأموني نفسه على شاطىء دجلة الشرقي ، تشرف واجهتـه على النهر ولها شرفات ورواشن ، وفي قاعات القصر أنواع الفرش المذهبة والنمارق المقصبة المحمولة من الأنحاء البعيدة، وقد زخرفت أبوابه بالستائر وملئت خزائنه بأنواع الطرف مع ما تحتاج اليه القصور من الجواري والخدم والخصيان ، وهم يعدون يومئذ من أدوات المنزل التي لابد منها

وكان للقصر مما يلي دجلة مسناة من رخام ترسو عندها السفن يعدون اليها من الماء بدرجات من الرخام عريضة يحدها من الجانبين جدران من أساطين غليظة (درابزون) يظهر مما عليها من النقوش الفارسية أنها كانت لبعض الأبنية الكسروية وحملت الى هناك • والمسناة عريضة تمتد من حافة الشاطىء الى سور القصر عند بابه الغربي • وعند الباب ردهة فسيحة ربما فرشوها بالطنافس ونصبوا في جوانبها المقاعد للجلوس اذا أرادوا مشـاهدة مجرى دجلة وفيه السفن تمر صاعدة أو نازلة

وكان المأمون قد خلف في القصر ابنته زينب لما ســـافر مع أبيه في ذلك العام ، وتكنى أم حبيبه ، وهي يومئذ في الثانية عشرة من العمر ، وكانت مثل أبيها ذكاء ونباهة واستقلالا في الفكر ، ومثـل جدها الرشـــيد أنفة وتعصبا لبني هاشم • وكانت مع صغر سنها قوية الارادة مستبدة برأيها ، وقد عرف أبوها ذلك فيها ، وهو لا يريد تلك العصبية لرغبته في اصطناع الفرس • فعهد في تربيتها الى الجارية التي ربته هو ، وأصـلها من جواري البرامكة في ابان مجدها واسمها دنانير • وذلك ان المأمون لما جعل في حجر جعفر عهد هذا في تربيته الى تلك الجارية وأوحى اليها أن تنشئه عـلى حب الفرس ، فنشأ المأمون على ذراعيها وشب يحترمها ويراعي جانبهـا • ولما ترعرع أخذها اليه وجعلها في جملة جواريه • فلما رزق بابنته عهد اليها في تربيتها وأوصاها بأن تعودها حرية الفكر وحب الفرس ، فبذلت جهدها في ذلك • وكان الرشــيد مولعا بحفيدته هــذه وهو الذي ســماها زينب وكناها أم حبيبة وكثيرا ما كان يستقدمها اليه في ساعات الفراغ ويداعبها ويهديها العقود والأساور ، فكانت تشهد مجالسه الخاصة مع امرأته زبيدة ، وهي كثيرة المفاخرة بنسبها الهاشمي ، فكانت زينب تسمع ما يدور بينهما من اعظام بني هاشم فيغرس ذلك في ذهنها عفوا ، فنشأت شديدة التعصب لهم رغم ما كانت دنانير تحاوله على خلاف ذلك • على أن زينب كانت تحب مربيتها وتحترمها وترتاح الى حديثها ولم تكن تكتمها أمرا يخالج ضميرها

زينب ودنانير

كانت زينب سريعة النمو جسما وعقلا ، يحسبها النـــاظر اليها تناهز السادسة عشرة وهي لم تدرك الثانية عشرة · وكانت صبيحة الوجه سوداء العينين براقتهما ، صغيرة الأنف غائرة الشفتين بارزة الذقن، يدل مبسمها على الثبات ورباطة الجأش وقوة العزيمة ، وعيناها تدلان على الذكاء وسرعة الخاطر · وكانت دنانير قد ربتها على سذاجة المعيشة ، ونزهتها عما كانت الرغبة منصرفة اليه يومئذ من التبرج والبذخ فكانت تقضي النهـار وليس عليها من الثياب الا رداء ساذج وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة ترسلها على ظهرها

أما دنانير فنشأت في منزل يحيي بن خالد البرمكي وكانت صفراء صادقة الملاحة أصلها لرجـــل من أهل البصرة خرجها وأدبها ورواها الشعر ، ثم اتصلت بيحيي البرمكي وهي فتاة فربيت في منزله · وهي غير دنانير المغنية التي اشتهرت بالغناء وحفظ الشعر · أما هذه فكانت ميالة الى المســائل العقلية ، وكان مجلس يحيي لا يخلو من بحث أو منـاظرة في علم أو أدب · وكذلك كان سائر البرامكة فانهم أول من نشط العلم في العصر العباسي · ولما هم يحيي بترجمة المجسطي الى العربية اســـتقدم المترجمين اليه وكانت دنانير تسترق الاجتماع بهم وكثـيرا ما كانوا يرونهـا مصغية لتســتمع ما يتذاكرون فيه من المسائل الفلـكية وأحكام النجوم في أثنـــاء الترجمة ورفيقاتها الجواري يضحكن منها ويعيرنها برغبتها في علوم هي من قبيـــل الرموز الغامضة التي لا يقدم على حلها الا قهارمة العلم من أهل الذمة · وكانت المسائل الفلسفية حديثة العهد يومئذ في العربية اذ لم يكن قد ترجم منها غير علم النجوم وبعض كتب الطب في زمن المنصور والمهدي والرشيد · على أنها كانت تلم بتلك المسائل قبل نقلها الى العربية مما يدور بين جلســـاء يحيى واشتهرت بين جواري البرامكة بحب العلم والتعقل · ولذلك لما صار المأمون في حجر جـبر وعهد في تربيته اليها كانت وهي تلاعبه في الحديقة تحمل معها قرطاسا أو ورقا عليه رسوم فلكية أو مســائل طيبة تراجعها ، وأول ما فتح عينيه وصار في سن الاستغراب والاستفهام لم يكن يسألها عن شيء الا فسرته له بتعقل · ثم أخذت في تلقينه المسائل على قدر ما يتحمله سنه · لم تكن تفعل ذلك رغبــة في تعليمه بل تلذذا بالعلم فان محب العلم يلتذ بالقاء الحقائق كما يلتذ بتلقيها

ولما ترعرع المأمون وآن تسليمه الى المعلمين ، كان قد تولد فيه الميل الى البحث عن الأسباب والتماس البرهان على كل شيء. فجره ذلك الى الاعتزال والتشيع والرغبة فى العلم والفلسفة حتى كان ما كان من نقله كتب الأقدمين على ما هو مشهور

ونشأ المأمون على احترام دنانير احترام الولد لأمه . وكثيرا ما كان يجالسها في ساعات الفراغ ويباحثها في بعض المسائل ويسر من تعقلها . فلما رزق بابنته زينب سلمها اليها وهو على ثقة من أنها تربيها كما يحب . وكانت زينب كثيرة الشبه بأبيها من حيث الرغبة فى البحث واستطلاع الأسباب ، فلم تكن دنانير تدخر وسعا فى ترقية مداركها ، فشبت وهى تدعوها أمها ، نظرا الى أن أمها كانت متوفاة . وربما أحبتها أكثر من حبها لأبيها لاشتغال المأمون عنها بأموره. على أن الآباء قلما كانوا يعاشرن أبناءهم وانما يعهدون في تربيتهم الى الجوارى ، فربيت زينب تربية فلسفية ونشأت لا تبالى الا بحقائق الأمور ، وطرحت ما كان يتسابق اليه أترابها من اللعب والقصف . وبلاط الخلفاء مسرح واسع لأسباب اللهو يومئذ حتى في القصر المأمونى نفسه . فقد كان فيه كثير من وسائل اللعب يتمتع بها الجوارى والخدم ، وزينب لا تميل الى ذلك ولا تخالط من الخدم غير مربيتها ، فكانت الزم لها من ظلها تصاحبها حيثما توجهت ، فتخرج معها الى الحديقة لقطف الأزهار ، وتعرج الى بيوت السباع لتشاهدها فى أقفاصها والسباعون يقدمون لها الطعام من قطع اللحم الكبيرة . فاذا أعوزها اللهو تشاغلت بالشطرنج ، وكانت هذه اللعبة حديثة العهد فى بلاط الخلفاء لأن الرشيد أول من لعبها منهم ، وكانت دنانير تجيد اللعب بها وربما شغلت بها زينب أحيانا ، أو خرجت بها الى الباب الغربى عند المسناة لتجلسا فى روشن أو شرفة تتفرجان من بين الستور على السفن المارة فى دجلة . وكثيرا ما يكون الجلوس هناك مطربا لكثرة من يمر من أهل القصف والطرب ومعهم المغنون والعوادون

فاتفق فى اليوم الذى بدأنا فيه روايتنا أن كانت زينب جالسة مع مربيتها في شرفة فوق المسناة تطل على دجلة ، وعليها رداء وردى اللون ، وفى عنقها عقد من اللؤلؤ أهداه اليها جدها الرشيد قبل سفره . ودار بينهما الحديث فى مسألة تتعلق بالطوالع والابراج وأشكل فهمها حتى على دنانير فقالت : «ان هذه المسألة من المسائل العويصة فمتى جاء طبيبنا سألناه عنها»

فقالت زينب : « وهل يفهم الأطباء النجوم ؟ »

قالت : « يغلب فى الطبيب أن يعرف كل علم ولاسيما أطباء الفرس ، وطبيبنا على الأخص ، فانه من نوابغ الفلاسفة وقهارمة الأطباء .. وو .. »

فضحكت زينب ملء فيها ضحكة فتاة لا تعرف من الدنيا غير أسباب

المسرات ، وقالت والاستغراب باد في عينيها : « اذن هو أعلم منك ؟ » .
قالت ذلك لاعتقادها أن مربيتها أعلم أهل الأرض. وذلك شأن الناس فيمن يشبون في حجره أو يتلقون العلم عنه ، فالأولاد يعتقدون الكمال في آبائهم أو مربيتهم ، ويتوهمون أن معلميهم من كبار الفلاسفة ولو كانوا أجهل من قاضي جبل . فيروون عنهم ويستشهدون بأقوالهم ويعظمون من أمرهم فاذا كان المعلم صغير العقل صدق تلميذه وظن في نفسه التفوق على العلماء والحكماء ، وقد يكون علمه محصورا في مبادىء الصرف والنحو فيتوهم انه لا يشق له غبار فيزداد غرورا

وكانت دنانير تعلم حقيقة منزلتها ، فلما سمعت زينب تطرى علمها ابتسمت وقالت : « اني يا سيدتي لا أعرف شيئا ، وانما التقطت بعض المسائل من أفواه العلماء . وأما هذا الطبيب فقد تفقه في الطب والفلسفة في مدرسة (جندى سابور) المشهورة التي تخرج فيها ابن بختيشوع طبيب أمير المؤمنين . ولكنه أعلم منه بأمور كثيرة ولاسيما بالكيمياء والنجامة ، ولولا ذلك لم يهتم الفضل بن سهل بأمره حتى وصى مولاى المأمون به »

فقطعت زينب كلامها وقالت : « الفضل بن سهل أوصى به ؟ ومتى كان ذلك ؟ أليس الفضل مع أبى الآن في خراسان »

قالت : « نعم هما معا هناك ، ولكن هذا الطبيب جاءنا منذ بضع سنين بتوصية من الفضل بن سهل ذكر فيها أنه نابغة خراسان في الطب والعلم حتى انك لترين ذلك ظاهرا في وجهه »

فقالت : « فلماذا لا يقيم عندنا دائما ؟ هل منعه أبى من ذلك ؟ »

قالت : « كلا ولكنه اعتذر لمولاى المأمون يوم مجيئه من إنه لا يستطيع الاقامة عندنا لأسباب ذكرها له »

فقالت : « وأين يقيم اذن ؟ »

قالت : « بلغني أنه يقيم بالمدائن كأنه استأنس بجوار ايوان كسرى أعظم ملوك الفرس وأعدلهم . وطبيبنا فارسي ... »

قالت : « عرفت أنه فارسي من كلامه فانه لا يحسن النطق بالعربية حتى الآن ولو أقام هنا لاعتاد النطق بمخالطة البغداديين »

قالت : « والمدائن قريبة منا فهي على بضع ساعات من هنا جنوبا »

قالت : « وقد كان ينبغي له أن يسكن هنا بعد ذهاب أبى وانتقالنا الى هذا القصر البعيد عن المدينة لنتقوى به لأنه من الجبابرة كما يظهر من كبر هامته . ومع كثرة تردداه علينا لا أزال الى اليوم أتهيبه لما يقبض على يدى ليجس نبضى »

قالت : « صدقت انه طويل القامة ولباسه المستطيل يزيده طولا ، على أنه لطيف اللسان حسن الأسلوب قريب من القلب. ولكنه يغيب عنا أحيانا

بضعة أيام متوالية ربما احتجنا اليه فى أثنائها فلا نجده ، والاطباء كثيرون ولكننى شديدة الثقة بعلمه »

فقطعت زينب كلامها ووضعت يدها على كتفيها تدل بمحبتها وقالت : « قولى له أن يسكن فى أحد القصور هنا ٠٠ »

قالت : « سأطلب منه ذلك وعسى أن يجيب طلبى ٠ انى أرى سفينة صاعدة من الجنوب لعله قادم فيها »

وكانت زينب فى أثناء الحديث تنظر الى مجرى دجلة وعيناها تتأملان ما على الشاطئ الآخر من النخيل القائم كالأصنام الهائلة ، يتراءى من خلالها فى عرض الأفق بر فسيح تغشاه الأشجار والأعشاب ، تتخللها أبنية متفرقة كأنها أحجار كريمة نثرت على ديباجة خضراء ٠ وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل فوقعت ظلال النخيل على الماء واستطالت وتراءت فى قاع النهر معكوسة كأنها نبتت جذورها عند الشاطئ وسعفها غائصة فى الماء ، وجذوعها بين ذلك تتموج بتموج سطح الماء وتظهر متعرجة كأنها مؤلفة من قطع مرصوصة بعضها فوق بعض على غير انتظام ، فيتوهم من يرى تموجها ان الحياة قد دبت فيها فتلوت كالأفاعى تحاول الافلات ممن قبض على أذنابها ، أو انها على وشك أن تتملص جذورها من الشاطئ لتنساب فى الماء

كانت زينب لاهية بهذا المنظر أثناء الحديث ، فلما لفتت دنانير انتباهها الى السفينة التفتت وقالت : « وهل يأتينا الطبيب فى الماء أم فى البر ؟ انى أعهده يجيئنا على فرس »

قالت : « من هنا الى المدائن طريقان أحدهما فى البر والآخر على الماء »

وكانتا تتكلمان وهما تنظران الى السفينة من خلال الستر فلم تعرفا من فيها ٠ ثم توارت أثناء مجراها ببعض تعرجات النهر فاشتغلتا عنها قليلا ٠ ثم ملت زينب الجلوس وهمت بالنهوض فاذا بها تسمع صوت ارتطام الماء على مقربة من القصر يتخلله نقر الهواء على الشراع فالتفتت فرأت قاربا صاعدا بجانب المسناة وفيه نوتيان قد أخذا فى حل الشراع ، وفى صدر القارب امرأتان التفت احداهما برداء قديم قد غير الزمان لونه ، وسترت رأسها بخمار ، وظهر محياها وعليه ملامح الشيخوخة ٠ والثانية عليها ثوب أسود فوقه خمار فى لونه قد تلثمت به حتى لا يظهر من وجهها الا العينان ٠ وبعد هنيهة شد النوتيان القارب بحلقة من حلقات المسناة وألقيا خشبة بينها وبين القارب ، ونهضت المرأتان ومشتا وهما تتساندان حتى عبرتا الى المسناة ووقفتا فى أسفل السلم والعجوز تنظر الى القصر وتجيل بصرها فيه كأنها تبحث عمن تريد أن تكلمه ، فقال لها أحد النوتيين : « هذا هو القصر المأمونى يا خالة »

فنهضت دنانير لساعتها وتقدمت حتى وقفت بالباب وأطلت على القارب

وتفرست في المرأتين وظلت زينب جالسة تنتظر ما يبدو منها ، فما لبثت أن رأتها انحدرت على السلم مسرعة حتى دنت من العجوز واستقبلتها بين ذراعيها وأكبت على يدها وقبلتها بلهفة ، ثم أعانتها على الصعود والفتاة في أثرهما • وكانت زينب تتوقع كلمة تسمعها من دنانير فتعرف القادمتين فلم تسمع شيئا ، فظلت صامتة حتى أقبلت والعجوز تمشي معها تتوكأ على عكازها ، ولما دنت منها تطاولت دنانير بعنقها وقالت بصوت ضعيف : «هلم بنا يا مولاتي »

فنهضت زينب ودخلن جميعا في دهليز بين الباب الغربي والقصر حتى وصلن الى قاعة أمرت الجواري بالخروج منها ، وأشارت الى العجوز ورفيقتها بالدخول فدخلتا ، وأجلستهما على طنفسة هناك • بينما جلست زينب على وسادة وأخذت تنظر اليهما وتتفرس فيهما وقد أزاحتا الخمار فظهر شعر العجوز وقد اشتعل شيبا • أما الفتاة فبان محياها فاذا هي في ابان الشباب كأنها ملاك في صورة انسان • وكانت رشيقة القوام جميلة الطلعة قمحية اللون متناسبة الملامح تدل خلقتها على كرم المحتد والوجاهة ، ويشف لباسها عن سذاجة وفقر زادا جمالها وضوحا ، رغم ما يتجلى في وجهها من الكآبة والحزن ورغم ثوبها الأسود وما يتلألأ في عينيها من الدمع•وكانت في دخولها تمشي مطرقة كأنها تحاول كتمان ما في نفسها ، فلما جلست رفعت عينيها وفيهما دعجوسحر فوقع بصرها على زينب وكانت هذهتتفرس فيها متلهفة فلما التقى بصراهما أحست زينب بجاذب اليها لم تعهد مثله في أحد تعرفه مع أنها فتاة مثلها ، وشعرت بميل اليها وانعطاف ، وظنت أنها قد تكون رأتها من قبل

أما العجوز فكانت مع ما يبدو عليها من مظاهر الذل والحزن ، ينم محياها عن الأنفة والعز • فلما استقر بهما الجلوس التفتت دنانير الى زينب وقالت وهي تشير الى العجوز : « ألم تعرفيها يا مولاتي ؟ »

فأجابت الفتاة بعينيها وشفتيها ان لا

فقالت دنانير وهي تهز رأسها متحسرة : « انها مولاتي أم جعفر »

فتبادر الى ذهن الفتاة لأول وهلة أنها تعني زبيدة زوجالرشيد فدهشت لما تعهده في زبيدة من شباب باق وهي ترى بين يديها عجوزا طاعنة في السن فضلا عن فارق الملامح • فأدركت دنانير سبب دهشتها فقالت : « انما أعني مولاتي أم جعفر الوزير ، وهي عبادة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة »

وكانت زينب قد علمت أن جدها الرشيد اغتال وزيره جعفر هذا وأباح منازله ولم تسمع بأمه فكانت تحسبها ماتت • وغلبت العصبية الهاشمية على زينب فانقبضت نفسها وتراجعت ، فابتدرتها دنانير قائلة : « ان لأم جعفر دالة على سيدي المأمون لأنه ربي في حجرها ، وكانت تخدمه وتحبه ، وهو يحترمها،وكثيرا ماكان يذكرها بعد نكبة ابنها ويود أن يراها ليكرمها•

ولو علم بوجودها على قيد الحياة لاستقدمها اليه وأكرم وفادتها وعزاها على ثكلها »

وكانت أم جعفر فى أثناء ذلك تمسح دموعها وتتجلد حتى تخفى بكاءها. أما زينب فلما سمعت قول مربيتها وشاهدت بكاء تلك العجوز رق قلبها وكادت تشاركها فى البكاء لولا رباطة جأشها وما سبق الى فؤادها من كره البرامكة . وكانت دنانير تعلم ما فى نفس زينب فأحبت أن تبالغ فى استعطافها فقالت : « حتى أمير المؤمنين الرشيد ، مع ما تعلمينه من أمره مع ابنها ، يحترمها ويعلى قدرها لأنها أرضعته وربته بعد أن ماتت أمه وهو فى المهد . وكان يشاورها ويكرمها ويتبرك برأيها وطالما سمعته يناديها يا أم الرشيد ! »

فلما سمعت الفتاة ذلك قالت : « هى اذن جدتى ؟ »

فقطعت عبادة كلامها قائلة : « بل أنا أمتك يا سيدتى ، وانما أكرمنى أمير المؤمنين بذلك تفضلا منه . ولم يصبنا ما أصابنا بعدئذ الا بتقدير العزيز الحكيم » . قالت ذلك وشرقت بدموعها

فرق قلب زينب لحالها وقالت : « مسكينة يا أم جعفر ! . لماذا لم يرع جدى زمامك ويعف عن ابنك ؟ »

فقالت : « ان مولانا الرشيد فعل ما فعله بوشاية الأعداء لأن بعض الحساد وشي بولدى وحسن له قتله ، والرشيد حفظه الله اذا عزم على أمر بادر الى انفاذه لا يسمع فيه رجاء ولا استرحاما . ولكن كل ما يفعله أمير المؤمنين مقبول مطاع » . ثم التفتت الى دنانير وقالت : « وقد تمكن الأعداء من اغراء الرشيد بزوجى يحيى وبابنى الفضل فأخذهما وحبسهما فشفعت اليه بحرمة اللبن أن يعفو عنهما ويأمر باطلاقهما أو تسريح أحدهما فلم يفعل»

فقالت دنانير : « وماذا فعلت ؟ »

مدت أم جعفر يدها الى جيبها وأخرجت حقا من زمردة واحدة خضراء ونظرت الى دنانير وقالت وهى تفتح الحق بمفتاح من الذهب : « قد تشفعت اليه بما فى هذا الحق من آثاره » . وأخرجت من الحق خصلة شعر وبضع أسنان ففاحت رائحة المسك حتى تضوعت القاعة وقالت : « تشفعت اليه بهذا الشعر لأنه شعره ، وبهذه الاسنان فانها ثناياه . وقد حفظتهما منذ طفولته ، ولكنه لم يقبل شفاعتى »

فقالت دنانير : « وكيف ذلك يا مولاتى ؟ »

فبدا الاهتمام فى وجه أم جعفر وعادت اليها أنفتها واعتدلت فى مقعدها

والتفتت دليلة إلى زينب وقالت وهي تشير إلى العجوز : « ألا تعرفيها يا مولاتي ؟ »

وقالت : « لما علمت بما أصاب ولدي جعفر واحسرتاه عليه ، وأن الرشيد قبض على يحيى ، قلت في نفسى لأذهبن الى الرشيد أستعطفه ليعفو عن زوجي ، لعلمي بما كان من اكرامه اياى وانه كان لا يرد لى شفاعة في أحد. فكم أسير فككت وكم مستغلق فتحت وكم.. ».قالت ذلك وغصت بريقها ، ولكنها تجلدت وأتمت الحديث فقالت : « ذهبت الى الرشيد وكنت أدخل عليه بلا اذن ، فاستأذنت فلم يأذن لى . وفشلت محاولاتي العديدة للمثول بين يديه ، فلما يئست ذهبت الى بابه ماشية حافية كاشفة عن وجهي فلما رآني الحاجب على تلك الحال دخل عليه وقال له : (ان مرضع أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقة) . ووصف له حالتى ، فسمعته يقول له : (ويحك أجاءت ماشية ؟) . قال : (نعم يا أمير المؤمنين وحافية) . فصاح فيه : (ادخلها فرب كبد غذتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها)

« فلما سمعت قوله استبشرت بنيل مرادى ، فعاد الحاجب وأشار الى فدخلت،فقام الرشيد وتلقاني محتفيا بى ، وأكب على تقبيل رأسى ثم أجلسني معه فقلت : (أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفا منك الأعوان ، ويحرضك علينا أبناء البهتان ، وقد ربيتك فى حجرى ، وأخذت برضاعتك الأمان من عدوى ودهرى ؟)

« فقال لى (وما ذلك يا أم الرشيد ؟)

« قلت : (جئتك فى أمر يحيى ولا أصفه بأكثر مما علم أمير المؤمنين من نصيحته واشفاقه وتعرضه للتلف في شأن موسى الهادى)

« فقطب الرشيد حاجبيه وقال : (يا أم الرشيد ، ذلك أمر سبق،وقضاء حم ، وغضب من الله نفذ)

« فقلت : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)

« قال : (صدقت ولكن هذا مما لم يمحه الله)

« فقلت : (الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟) فاطرق مليا ثم قال :

واذا المنية أنشبت أظفارها   الفيت كل تميمة لا تنفع

« فقلت على الفور : (ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قيل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد   ذخرا يكون كصالح الأعمال

« هذا بعد قول الله عز وجل : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)

« فتشاغل هنيهة بقضيب كان بيده ثم قال : (يا أم الرشيد

اذا صرفت نفسى عن الشيء لم تكد   اليه بوجه آخر الدهر تقبل

« فلما رأيته مصرا على عزمه قلت :

ستقطع فى الدنيا اذا ما قطعتنى يمينك ، فانظر : أى كف تبدل ؟

« فقال لى : (رضيت)

« فقلت : (هبه لى يا أمير المؤمنين ، فقد قيل من ترك شيئا لله لم يفقده)

« فاطرق مليا ثم رفع رأسه وهو يقول : (لله الأمر من قبل ومن بعد)

« قلت : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ... واذكر يا مولاى أليتك ما استشفعت الا شفعتنى)

« فقال : (اذكرى يا أم الرشيد أليتك ألا شفعت لمقترف ذنبا)

« فلما رأيته صرح بمنعى ، ولاذ عن مطلبى ، أخرجت هذا الحق من جيبى وفتحت قفله وأخرجت هذه الذوائب وهذه الثنايا وقلت : (يا أمير المؤمنين أستشفع اليك وأستعين بالله عليك وبما صار معى من كريم جسدك وطيب جوارحك ليحيى عبدك)

« فأخذ الحق منى ولثمه ، واستعبر وبكى بكاء شديدا ، وبكى أهل المجلس . فما شككت أنه مجيبى . ولكنه لما أفاق ألقى الحق وما فيه الى وقال : (لحسن ما حفظت الوديعة)

« فقلت : (وأهل للمكافاة أنت يا أمير المؤمنين)

« فسكت وأقفل الحق ودفعه الى وقال : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها)

« قلت : (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل . ويقول : (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم)

« فنظر الى فعلمت من عينيه أنه يستفهمني عن مرادى، وكنت قد تعودت فهم مراده من النظر فى عينيه فقلت : (أما أقسمت لى ألا تحجبنى ولا تمتهننى ؟)

« فلما تذكر عهده قال : (أحب يا أم الرشيد أن تشتريه محكمة فيه)

« فقلت : (انصف يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت غير مستقيلة ولا راجعة عنك)

« قال : (بكم تشترينه ؟)

« قلت : (برضاك عمن لم يسخطك)

« فظهر الملل فى وجهه وقال : (يا أم الرشيد ، أمالى من الحق مثل الذى لهم ؟)

« قلت : (بلى يا أمير المؤمنين أنت أعز على وهم أحب الى)

« قال وهو يتزحزح من مقعده : (فتحكمي فى غير هذا) .

« فلما تحققت أنه غير مجيبي نهضت ، وأنا أقول له : (قد وهبته وجعلتك في حل منـــه) • وخرجت ونسيت مصيبتي وجففت دمعتي ، وأنت ترين دمعي الآن وكيف أني أكاد أختنق به أما في ذلك اليوم فلم تسقط لي دمعة»

ولما فرغت أم جعفر من حديثها أقفلت الحق على ما فيه وجعلته في جيبها وقالت : « لم يبـق لي مأرب الآن في الرجـاء فان الذى كنت ألتمس رضى الرشيد عنه ارتاح من شقاء هذه الحياة فمات في حبسه ، ومات بعده ابنى الفضل بالأمس في سجنه بالرقة » • وصمتت هنيهة وهي تمسح عينيهـا واطرقت ثم قالت : « ولكن موته لابد أن يعقبه أمر عظيم لأني كثيرا ما كنت أسمعه يقول : ان أمرى قريب من أمر الرشيد • ولكنني أطلب من الله أن يطيل عمر أمير المؤمنين »

فخفق قلب زينب خوفا على جدها ، ولكنها استحسنت استدراك أم جعفر بالدعاء له بطول البقاء ، وعادت الى التفكير في غرابة حديثها

▭

كانت عبادة أم جعفر تقص حكايتها بلهفة وفصاحة ، وأم حبيبة مقبـلة عليها بكل جوارحها وعيناها شاخصتان تراعى حركات شفتيها، وغلب عليها التأثر غير مرة وأحست كأنها تجهش بالبكاء • ولما أتت أم جعفر على آخر الحديث انقلب اشفاقها الى اعجاب واكبار، لما عاينته من أنفتها وعزة نفسها• وأحست بانعطاف اليها وشاركتها تألمها بما أصابها من الثكل والفشـــل ، وان كان مثلها لا يدرك كنه المصائب ، ولـكنها كانت كبيرة العقل والقلب تفهم وتحس أكثر مما تقتضيه سنها

وكانت قد نسيت لهفتها لمعرفة رفيقة أم جعفر لاشتغالها بسماع الحديث• فلما انتهى أجالت نظرها في الفتاة وجعلت تتفرس فيها والحشمة تمنعها من الاستفهام ، فأدركت دنانير ذلك وهي أشـد لهفة منها لاستطلاع أمرها • وكانت أثناء الحديث تسترق اللحظ الى الفتاة لعلها تستطلع شيئا من أمرها فلم تستطع فصبرت نفسها الى آخر الحديث • وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فأمرت الخدم أن يضيئوا الشـموع القائمة على المنـــائر في جوانب القاعة، وهى شموع ضخمة كانوا يتأنقون في اصطناعها ويمزجونها بالعود، فاذا أضيئت فاحت رائحة العود وتضوع المكان بها• وعادت دنانير الى التفكير في الغرض الذى جاءت أم جعفر لأجله ذلك اليوم بعد طول احتجابها فارادت أن تســـوقها الى التصريح بذلك عفوا فقالت لها : « ان حكايتك يا مولاتى غريبة ، وأغرب منها احتجابك عنا كل هذه السنين والناس لا يعرفون مقرك• فأين كنت تقيمين ؟ »

فتنهدت وقالت : « كنت محتجبة ، لأن مثلي خليقة أن تدفن نفسها حية ، ويا ليتني مت منذ عشر سنوات ولم أكابد ما كابدته من مرارة القهر والذل. أنت تعلمين يا دنانير حالي في بيت جعفر » . وغصت بريقها وأطرقت ، فتناولت دنانير الحديث نيابة عنها وقالت لزينب : « نعم يا سيدتي اني أعلم الناس بما كانت عليه في أيام عزها ، وأذكر في عيد النحر من بعض السنين أن مولاتي عبادة هذه كانت في بيت ابنها الوزير وعلى رأسها ٤٠٠ جارية! »

فقطعت عبادة كلامها قائلة : « وكنت مع ذلك أعد ولدي عاقا . وقد مرت علي في محنتي هذه أيام لا أجد جلدي شاتين أفترش واحدا وألتحف الآخر. على أني لم أكترث لهذا كله اكتراثي للأمر الذي جئتكم لأجله الليلة، وأظنني ثقلت على مولاتي أم حبيبة »

وكانت زينب قد أحبت عبادة واحترمتها ، ونسيت ما يكسوها من الأثواب البالية ـ على عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة فانهم يقدرونهم أولا بما يظهر من لباسهم وحلاهم فاذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقواهم ـ فخاطبتها باحترام وقالت لها : « معاذ الله يا سيدتي فانك تنزلين عندنا على الرحب والسعة ولك كل ما تحتاجين اليه » . ثم التفتت الى دنانير وقالت : « اعطيها كل ما تحتاج اليه ! »

فوقفت عبادة وقبلت رأس زينب وقالت : « شكرا لك على احسانك يا سيدتي ولكن الأمر الذي جئت به اليك أهم عندي مما تفضلت به وان كنت لا أستحق هذا ولا ذاك » . فبادرت اليها دنانير قائلة : « قولي فان لك كل ما تريدين ، هذا ما أمرت به مولاتنا حفظها الله »

قالت : « سألتني يا دنانير عن احتجابي كل هذه السنين عن بغداد .. ؟ كيف أقيم في مدينة أرى فيها جثة ولدي معلقة على جسورها وقد شطروا الجثة شطرين صلبوا شطرا على أحد الجسور والشطر الآخر على الجسر الثاني وعلقوا الرأس على الجسر الثالث ليراها المارة صباح مساء .. ألم تبق جثة جعفر معلقة على هذه الجسور سنتين وبعض السنة حتى عاد الرشيد من الري سنة ١٨٩ هـ فأمر باحراقها ..؟ وكأنه شعر بفظاعة الأمر فهجر بغداد من يومه وسكن الرقة وما زال فيها حتى خرج هذا العام الى خراسان ، وهبي اني رضيت المقام فعيون الرقباء ساهرة وأمر الخليفة مشدد بالنقمة على كل من يذكر البرامكة بخير فكيف لو عرفوا بوجودي ألا يسرعون الى تقطيعي اربا اربا . وما أنا بخائفة من الموت فانه أيسر ما أقاسيه ولكنني رغبت في الحياة من أجل هذه الفتاة » . وأشارت الى رفيقتها فتحولت الأنظار اليها

فخجلت الفتاة وتوردت وجنتاها وتلألأت عيناها الدعجاوان وظهر فيهما الدمع ، وأطرقت . فاغتنمت دنانير هذه الفرصة وقالت : « كنت منذ دخولك علينا أفكر في هذه الفتاة الجميلة وأتفرس فيها فلم أعرفها »

قالت : « انها بنت الشقاء ونتاج المصائب ، وليس فى بغداد من يعرف حقيقتها غيرى ، وقد كتمت أمرها عن كل انسان خوفا على حياتها • وانما أردت البقاء على قيد الحياة لأجلها • وهذه أول مرة أبوح باسمها فهل أقول ذلك وعلى الأمان ؟ »

فقالت دنانير : « لم يبق داع للحذر بعد ما شاهدته من انعطاف سيدتى الحبيبة اليك ، ومن ذا يسمع حديثك ولا يشعر بشعورك ؟ • قولى لا تخافى واطلبى ما تحتاجين اليه فانك نائلة ما تريدين »

فتنهدت وهى تصلح نقابها على رأسها وقالت : « ان هذه الفتـــاة ربيبة التعاسة ، انها بنت الوزير المقتول •• ابنى جعفر »

فبغتت دنانير وأعادت نظرها الى الفتـــاة لعلهـــا تتذكرها ، ثم قالت : « لا أذكر أنى أعرفها »

فقالت : «نعم انك لا تعرفينها لأنها ولدت بعد خروجك من بيتنا الى بيت مولانا المأمون • وكان هذا من حسن حظك ، لأن البيت الذى كان مقصـد السائلين ومقر الوافدين وملاذ الخائفين أصـــبح بلاء على أهله فغدا ذكرهم تعسا على الأقرباء والمريدين» • وغلب عليها البكاء فسكتت ريثما تسترجع رشدها ثم قالت : « ان حفيدتى هــذه ولدت بعد خروجك ولما نكب أبوها كانت لا تزال صغيرة واتفق أنها كانت قد خرجت ذلك اليـوم مع احـــدى الجوارى الى بعض ضياعنا فى ضواحى بغداد ، فلما صادر الرشيد ضياعنا فرت بها جاريتها الى قرية بعيدة عن أعين الرقباء وظلت هناك حتى علمت بأمرها فاحتضنتها وخرجت بها هائمة على وجهى بعيدا عن بغداد ، وأقمنا بالمدائن عند جماعة لا يعرفوننا وانما آوونا اكراما لوجه الله فقضيت هنـــاك عدة أعوام فى مأمن من وشاية الواشين • وسخر لنا الله رجلا لا نعرفه فكان أحن علينا من الوالد وأشفق من الأخ ، وكان يقيم ببيت مجاور لمنزلنا فى المدائن • وهو غريب لا نعرف أصله ولا فصله ولكن العناية ساقته الينا من حيث لا ندرى فكان يتردد علينا بنظر حوائجنا ويأتينا بما نحتاج اليه عفوا لا يلتمس على ذلك أجرا ولا شكورا • وقضى هذه الأعوام فى اعالتنا ونحن لا نعرف من هو فخيل الينا انه رسول من السماء بعثه الله رحمة منه بنا »

وكانت دنانير فى أثناء الحديث ترمى ببصرها الى الفتاة اعجابا بجمالها ، فلما بلغت جدتها الى ذكر ذلك الرجل تشاغلت الفتاة باصلاح خمارها لتخفى ما كاد يبدو فى محياها من الاحمرار • ولو انتبهت دنانير الى تورد وجنتيهـــا لأدركت ما تكنه جوارحها وتحاول اخفاءه ، ولـــكنها كانت فى شاغل عنها بغرابة الحديث

فلما بلغت فى حديثها الى ذكر ذلك الغريب غلب الاعجـــاب به على دنانير فقالت : «ان الدنيا لا تخلو من المحسنين ، وقد سمعنا عن مثل هذه الشمائل

في البرامكة ولم نعهد مثلها في سواهم · ألم تعرفي من هو ذلك المحسن ؟»
قالت : « لم نعرف من هو، ولكن يظهر أنه فارسي الأصل وقد جاء المدائن منذ بضعة أعوام · وهو يتكتم أمره فاذا دخل أغلق بابه وقضى يوما أو بضعة أيام لا يراه أحد ، حتى كثرت أحاديث الناس بشأنه · فمن قائل انه يشتغل بالكيمياء ، وقائل انه ساحر ، وزعم آخرون انه من كبار أهل الثروة وقد جمع ثروته من كنز عثر عليه في منزله لأنه يقيم ببيت مبنى على أنقاض ايوان سابور الذى كان الخليفة المنصور يقيم به قبل بناء بغداد »

فقالت دنانير : « وما اسمه ؟ »

قالت : « يسمونه بهزاد الجند يسابورى »

فتذكرت زينب طبيبهم الخراساني لانها تظنه يقيم بالمدائن فقالت : «لعل طبيبنا يعرفه لأنه يتردد على المدائن فاذا أتى الليلة سألناه عنه »

فقالت : « ما أظن أحدا يعرفه ، ومهما يكن من أمره فانه جدير بكل ثناء، فعسى الله أن يقدرنا على مكافأته · ولكن الأقدار لا تصفو لأحد ، أو لعلها عملت على مطاردتنا منذ أفل نجمنا ، فهى لا تدعنا نتنسم الراحة حتى تخلق لنا بلاء جديدا »

فقالت دنانير : « وكيف ذلك ؟ »

قالت : « ما كدنا نظن الناس نسونا وأغفلوا أمرنا حتى رأيناهم عادوا الى النكاية بنا »

قالت دنانير : « ومن هؤلاء الذين أرادوا النكاية بكم ؟ »

▭

فالتفتت عبادة الى حفيدتها ثم حولت وجهها عنها ، فاحمر وجه الفتاة · وأدركت دنانير أن الحديث يتعلق بها ، وظنت أن أم جعفر تتحاشى التصريح بذلك أمامها ، فاحبت أن تشغل الفتاة بشيء يصرف انتباهها عن الحديث فقالت لها : « أظننا أبطأنا عليكما بالعشاء فهل تأمر مولاتى بأن تتناول الطعام ؟ »

ففهمت عبادة غرضها من هذه الدعوة فقالت : « انى لا أشعر بالجوع الآن ولكن أظن أن ميمونة فى حاجة الى الطعام الآن »

فلم يفت الفتاة الغرض من ذلك وسكتت · فنهضت دنانير وهى تقول لمولاتها أم حبيبة : « هلمى يا مولاتى الى المائدة مع هذه الضيفة الكريمة » · فاطاعتها كعادتها وخرجت الفتاتان للطعام وقد استأنست ميمونة ببنت المأمون وأحبتها لجمالها وذكائها · وكفى بالاحسان باعثا على المحبة فقد قيل: « أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم »

أما دنانير فرافقت الفتاتين الى حيث أمرت الخدم باعداد الطعام وعادت الى عبادة وقد اشتد شوقها لسماع الحديث

وكانت عبادة جالسة مطرقة ، فدخلت دنانير وأغلقت باب القاعة وراءها وجلست الى أم جعفر تهش لها وترحب بها وقد سرها أن تواسيها وتخدمها قياما بما تشعر به من فضلها عليها. فضلا عما تبعث عليه حالها من الشفقة لما أصابها من الذل بعد ذلك العز . والاقرار بالاحسان فرض يسر أهل الفضل أن يأتوه وأن يكرموا صاحبه الا طائفة من الناس ساءت سريرتهم وسفلت طباعهم وصغرت نفوسهم ، فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء وقد تحملهم الكبرياء على ايقاع الأذى بالمحسنين اليهم ، ولاسيما الذين ولدوا في الفاقة وخفض العيش ثم ساعدتهم الأقدار على الارتقاء فان أنفسهم الامارة بالسوء ربما سولت لهم قتل من يحسن اليهم . أما دنانير فكانت كبيرة النفس صافية السريرة ، فسرها أن تخدم مولاتها اعترافا بفضلها . فلما خلت اليها تنهدت عبادة تنهدا عميقا ، ونظرت الى دنانير والدمع يتلألأ في عينيها وقالت : « آه يا دنانير ! ان النظر اليك يذكرني أيام عزي ، واني لأشكرك على ما لقيته من مواساتك وتلطفك في حين أن أقرب الناس الينا نسونا أو تناسونا . ولكن مالنا وذلك . ان الأمر الذي جاء بي اليكم الليلة لجد خطير .. »

فقطعت دنانير كلامها ووضعت يدها على كتفيها وهي تنظر اليها مبتسمة وتقول : « قولي ما عندك يا سيدتي ، انك صاحبة الأمر وعلينا الطاعة »

فتنهدت وقالت : « أنت طبعا تعرفين الفضل بن الربيع »

فلما سمعت دنانير الاسم أدركت عظم الأمر لعلمها أن هذا الوزير هو الذي عظم ذنب جعفر لدى الرشيد حتى قتله وتولى هو الوزارة مكانه فقالت: « نعم يا سيدتي أعرفه فما خطبه بعد الذي أتاه ؟ »

قالت : « ليس الخطب خطبه الآن وانما نشكو من ابنه ! »

قالت : « وماذا صنع ابنه ؟ »

قالت : « لا أدري كيف بلغه خبر ميمونة ولا أعلم أين رآها حتى فتن بجمالها أو لعله لم يفتن بها وانما أراد النكاية بنا ، فبعث الي منذ بضعة أسابيع قهرمانة دار أبيه يوسطها في خطبة ميمونة لنفسه ، وقد تلطفت القهرمانة في الطلب ووعدتنا خيرا . فماطلته لأني أخاف اذا رفضت طلبه بتاتا أن يؤذينا ، فلم يرجع عن طلبه وبالغ في المحاسنة وكرر الوعد بما ينويه لنا من الخير اكراما لميمونة لأنه مفتون بها . وقد أكدت لنا القهرمانة انه يحب الفتاة حبا مبرحا، وأنه لا يريد لنا الا السعادة اذا أجبته الى بغيته. فاعتذرت من الاجابة أعذارا مختلفة ، وتقدمت اليها أن تساعدني في دفعه فوعدتني وظلت أياما لم ترجع الينا . فظننتها أفلحت واطمأن قلبي ، فلما

كان مساء الأمس جاءتني بنبأ ذهب بصوابي وقطع حبل رجائي ! » ٠ قالت ذلك وشرقت بدموعها فسكتت واشتغلت بمسح عينيها

وكانت دنانير تسمع حديثها وهي تتطاول نحوها بعنقها فلما رأتها تبكي قالت : « خففي عنك يا سيدتي ٠ وماذا جرى بعد ذلك ؟ »

قالت : « جاءت القهرمانة هذه المرة تهددني بالسوء اذا لم أجب طلب ابن الفضل ، وذكرت لي أنه أوصل أمري الى علي بن ماهان صاحب الشرطة ووسطه في الخطبة ، وان عليا هذا يلح علي في اجابة الطلب على أن يضمن لي ما أريده من الخير ، فاذا لم أفعل كانت العاقبة وخيمة علي وعلى ميمونة ٠ فوعدت القهرمانة بأن أنظر في طلبها وأجيبها ٠ وأنت تعلمين موقفنا من هؤلاء ولاسيما الفضل بن الربيع الذي كان سبب قتل ابني فكيف أزوج ابنة ابني من ابنه وأنا لا أطيق سماع اسمه ؟ » ٠ قالت ذلك وأطلقت لدموعها العنان ، فتفطر لها قلب دنانير وأدركت عظم ما يتهدد أم جعفر وحفيدتها ، لعلمها ان هؤلاء القوم اذا قالوا فعلوا ٠ فأطرقت وأعملت فكرتها حينا ثم قالت : « لا أنكر على مولاتي ما قالته من كرهها لذلك الرجل وابنه ولكن » ٠ ورفعت كتفيها وقلبت شفتيها وسكتت

فقالت عبادة : « لا أستطيع قبول زواج ابن الفضل بابنة جعفر ٠ وهبي اني قبلت فهل تظنين ميمونة تقبل وهي تعرف أن الفضل بن الربيع أصل بلائنا ومصدر مصائبنا ؟ ٠ كلا هذا لا يكون »

فقالت دنانير : « اذا كنت مصرة على الرفض فأنا طوع ارادتك ، وهذا القصر وأهله في خدمتك ، فاذا شئت الاقامة به أقمت على الرحب والسعة ٠ ولا أظن أحدا يجسر على اخراجك منه ٠ وقد أفرحني ما آنسته من ارتياح مولاتي زينب اليك ، وأنت تعلمين نفوذها عند أمير المؤمنين الرشيد فمتى عاد وسطناها لديه وهو لا يرد لها طلبا ، فانعمي بالا »

فتنهدت عبادة وسكتت هنيهة ثم قالت : « أخشى يا دنانير أن يكون في اقامتنا هنا بأس على أهل هذا القصر ، لأن النحس ملازم لنا ، فلا أحب أن يلحقكم شيء منه »

فتأثرت دنانير من قولها وأخذت تخفف عنها

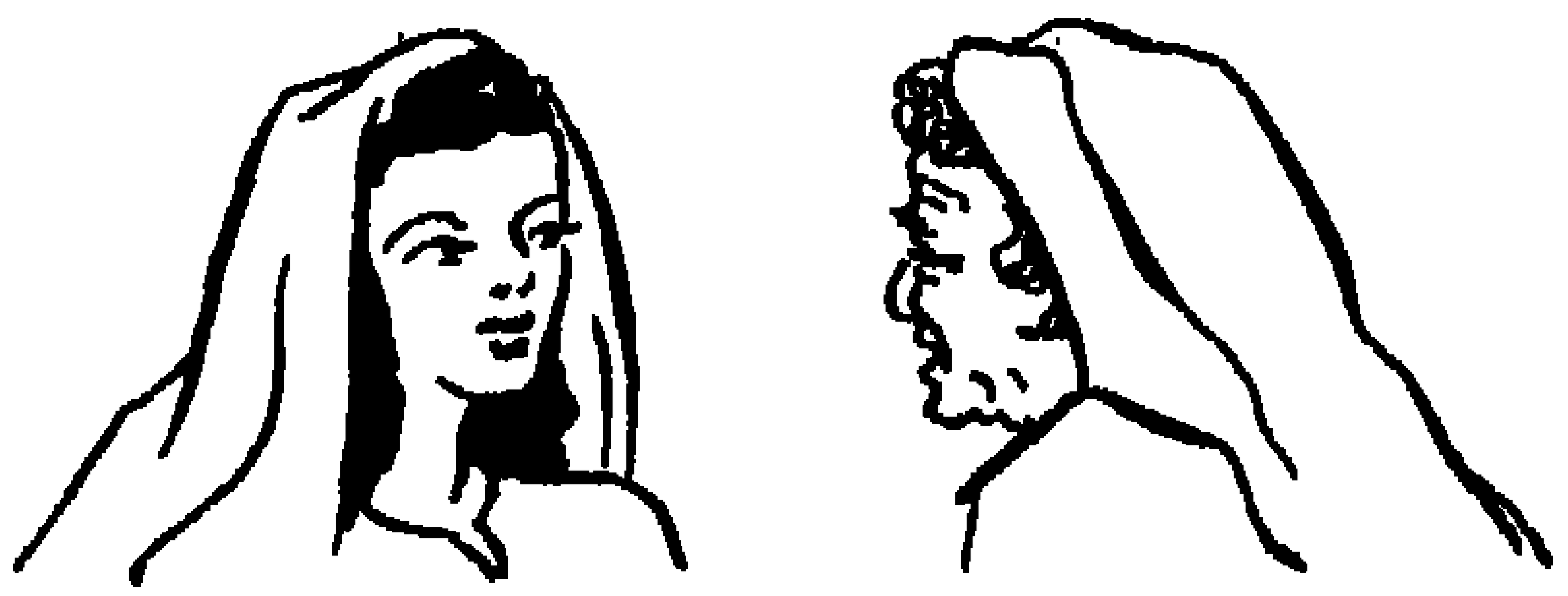

دنانير وام جعفر

سمعت دنانير وقع خطوات مسرعة فيالدهليز فنهضت الى الباب وفتحته فرأت أحد الغلمان واقفا بالباب يقول : « جاء الطبيب يا سيدتى »

فأبرقت أسرتها ولم تتمالك أن قالت : « الطبيب جاء ؟ لقد أبطأ ، دعه يدخل » . قالت ذلك ورجعت الى عبادة وهى تبتسم وتقول : « جاء طبيبنا الخراسانى الذى ذكرت لك أنه يتردد على المدائن ، فعسى أن ينفعنا فيمعرفة صاحبكم الذى ذكرت أنه واساكم هناك »

ففرحت عبادة بالبشرى ، ولبثت تنتظر مجىء القادم بفارغ الصبر ولم تمض دقائق قليلة حتى سمعتا حركة ووقع أقدام ، فرجعت دنانير الى الباب لتستقبل القادم . فلما رأته مقبلا قالت : « لقد أبطأت علينا أيها الطبيب هذه المرة ، جعل الله المانع خيرا »

وكانت عينا عبادة على الباب وقد أصلحت خمارها ، فسمعت الطبيب يقول : « لقد أبطأت عليكم لعذر قاهر فهل أنتم فى حاجة الى ؟ » . قال ذلك وفى كلامه عجمة ، فلما سمعت عبادة صوته خفق قلبها لأنها عرفت فيه صوت جارهم بهزاد . ثم دخل الطبيب ، فلما وقعت عيناها عليه تحققت أنه هو بعينه صاحبهم فقالت : « هذا بهزاد ! » . أما هو فحالما رآها خلع نعاله وأسرع نحوها فصافحها وتلطف فيالسلام عليها وقال : «أنت هنا يا خالة؟»

فقالت : « نعم يا سيدى ، وقد جئت لزيارة دنانير » . فبغتت دنانير لذلك الاتفاق وقالت : « اذن بهزاد صاحبكم هو طبيبنا ؟ . ما أجمل هذا الاتفاق . تفضل يا سيدى » . وأشارت الى كرسى فمشى بهزاد بقدم ثابتة وخطى واسعة حتى جلس عليه وكان طويل القامة عريض ما بين المنكبين كبير الجمجمة واسع الجبهة أبيض الوجه أسود العينين غائرهما ، مع حدة وذكاء ، خفيف اللحية صغير الشاربين . وكان فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وقد تزمل بعباءة سوداء ، وعلى رأسه قلنسوة قصيرة ليس حولها عمامة . وكان لطوله وعرض منكبيه اذا مشى تقلع كأنه ينحط من صبب ، واذا أقبل عليك حسبته من الجبابرة الذين يتحدثون بعظم هاماتهم ، ورأيت فى عينيه رقة ونفوذا يدلان على قوة الارادة وصدق الطوية . وكان لا يرى الا مقطبا والاهتمام باد فى محياه ، فى غير جفاء أو خشونة . ويندر أن يضحك ، كما

أنه قليل الكلام كثير التفكير ، يستأنس به جليسه ولكنه يهابه ويشعر بقوة سلطانه عليه

فلما جلس ابتدرته دنانير قائلة : « لقد كنا نتحدث عنك ساعة الغروب ثم ذكرناك في عرض حديث جرى لى مع سيدتى أم جعفر . وأنا أحسبك غير بهزاد الذى ذكرته لى ، لأنى لا أعرفك بهذا الاسم . فأحمد الله على أنك أنت صاحب الجميل عليها ! »

ولاحت من دنانير التفاتة الى أم جعفر فرأتها تشير اليها برفع حاجبيها والعض على شفتها ألا تفعل كأنها تنهاها عن التصريح باسمها .

فأدركت دنانير غرضها . أما بهزاد فانه تجاهل مرادها وقال : « ان أهل المدائن لا يعرفونني الا بهذا الاسم ، لأنهم رأوني فارسى السحنة، فسمونى بهزاد . وأما اسمى فهو عبد الله » . ثم حول نظره الى أم جعفر بانعطاف واحترام وقال : « لا جميل لى يا خالة فى شىء فعلته ، ولا أعرف أنى أتيت شيئا يستحق الثناء » . ثم التفت الى دنانير وقال : «كيف مولاتنا أم حبيبة عسى أن تكون فى خير وعافية ؟ »

قالت : « هى بخير ، وتتناول العشاء مع ضيفة لها فى غرفة المائدة . وقد كنت عازمة على الذهاب بها الى الفراش كالعادة »

فأظهر انه لم ينتبه لعزمها وقال وهو يخفى ما يخالج ضميره من الاهتمام ويتشاغل باصلاح شد سيفه فى منطقته : « هل أتى غلامى سلمان ؟ »

قالت : « كلا يا سيدى لم أعلم أنه جاء . وهل أنت على موعد معه هنا ؟»

قال : «نعم ،كنت أتوقع أن يأتى نحو الغروب ، وشغلت عن المجىء اليكم حتى الآن وأنا أحسبه فى انتظارى هنا » . قال ذلك وهم بالنهوض وهو ينظر الى الباب كأنه يريد الخروج ، فقالت دنانير : « هل تحتاج الى شىء يا مولاى ؟ . . »

قال : « كلا ولكننى أحب أن أتحقق مجىء سلمان الى القصر ، فقد يكون أتى ودخل بعض غرف الغلمان »

فمشت دنانير وهى تقول : « أنا أذهب للبحث عنه تفضل واجلس » وهمت بالخروج

لكنها لم تدرك الباب حتى سمعت جلبة وقهقهة فى الدهليز فعرفت أن زينب قادمة وهى تقهقه لأمر أضحكها . فضحكت دنانير سرورا بها وأطلت على الدهليز وهى تقول : « مولاتى ! . أنت هنا ؟ ألم تذهبى الى فراشك بعد ؟ »

ولم تتم كلامها حتى كانت زينب قد لحقت بميمونة فأمسكت بثوبها وراحت تشدها نحو الباب تداعبها وميمونة تطاوعها ارضاء لها واستئناسا بها . فابتدرتها دنانير قائلة : « ما الذى أضحكك يا حبيبتى ؟ »

فصاحت الفتاة وهي تلتفت وراءها التفات مذعورمطمئن قائلة : «أضحكني غلام الطبيب تعالى انظريه » • وأشارت بأصبعها الى الدهليز • فخرجت دنانير فرأت رجلا في لباس وقيافة لا عهد لسلمان بهما ، ثم عرفت أنه هو بعينه ، ولكنه قد اتخذ لنفسه عمامة كبيرة ، ولحية طويلة قد دب فيها الشيب ، وعليه جبة مثل جبة أحبار اليهود • فلم تتمالك عن الضحك وقالت له : « ويلك ماذا أصابك ؟ »

فانزوى سلمان في بعض منعطفات الدهليز ، حيث اختفى لحظة ثم ظهر وقد عاد الى هيئته العادية ، بقبائه وسراويله وطاقيته• وعادت لحيته صغيرة لا شيب فيها ، فزادها تغيره استغرابا وذهبت الى القاعة لتروى للطبيب ما شاهدته وتبشره بقدوم غلامه ، فرأته قد خرج ليراه لأنه سمع ما دار بشأنه • ولكنه لم يكد يدرك الباب حتى رأى زينب داخلة تجر ميمونة وراءها وتضحك ولا تعلم ان الطبيب هناك • فلما وقع نظرها عليه تهيبت واستحيت وأطرقت وأسرعت للاستتار وراء ميمونة

فلما رأى الطبيب استحياءها تبسم واقترب منها وقال : « كيف حالك يا أم حبيبة ؟» •ومد يده ليتناول يدها فازدادت حياء وتراجعت حتى اختفت وراء ميمونة • أما هذه فلما وقع نظرها على الطبيب بغتت وصبغ الحياء وجهها لسبب غير السبب الذى أخجل زينب ، وتلعثم لسانها واصطكت ركبتاها وتحيرت بين الاطراق خجلا وبين أن تحيي ولى نعمتها والمحسن اليها• أما هو فلما رأى دهشتها وارتباكها تجاهل وحياها وتحول الى زينب يتلطف في تشجيعها لترد عليه السلام

ولحظت أم جعفر ارتباك حفيدتها فحسبته من لقائها بهزاد على غير انتظار، فانها لم تكن تعلم ما يضمر قلبها ولم يتفق أن لحظت منها شيئا يدل على أن شعور قلبها نحو بهزاد يجاوز الشعور بفضله عليهما • فنهضت واقتربت من ميمونة وقالت : «هذا مولانا وصاحب الفضل علينا ، ما بالك لا تسلمين عليه يالمياء »

فلما سمعتها دنانير تسمي حفيدتها لمياء ، أدركت أنها تريد اخفاء حقيقة حالهما على الطبيب • أما ميمونة فلما سمعت جدتها تدعوها الى السلام على الطبيب تجلدت ومدت يدها ، فتناولها وشعر بارتعاشها وبرودتها ، ولم تخف عليه حالها ولكنه ظل على تجاهله وابتسم لها كعادته ابتسام تلطف واكرام وقال : « وأنت هنا يا لمياء أيضا ؟ » • وعاد الى مداعبة زينب

فأطرقت ميمونة وقد توردت وجنتاها • ولو رفعت بصرها لرأى بريق عينيها وشعر بما ترميه من حاجبيها من السهام • ولكنه تغافل وحول نظره الى دنانير ، فرآها تراقب حركات الفتاة ولم يفتها ما كان يتجلى في وجهها من دلائل الحياء وأدركت بفراستها وتمرسها بالحياة أن هناك شيئا وراء

ذلك . واستغربت ما أبداه الطبيب من الفتور كأنه خالى الذهن مما يجـول فى خاطرها . فتحيرت وتمنت لو تمكنها الفرصة من تحقيق ظنها. فما لبثت أن سمعت الطبيب يقول : « أين سلمان ؟ سمعتكم تتحدثون عنه »

فأشارت دنانير الى الدهليز وقالت : « انه هنا . هل أدعوه اليك ؟ »

قال : « بل أنا ذاهب اليه » . وصاح : « سلمان ! » . وخرج من القاعة وترك أهلها على ما ذكرناه من الاضطراب والارتباك . فأجابه الغلام : «لبيك يا مولاى ، أنت هنا ؟ »

فقال وهو يحتذى نعاله ويهم بالمسير نحوه : « قد استبطأتك وقلقت لغيابك » . ومشى نحوه وقال لدنانير : « سأعود اليكم بعد قليل » . فعلمت أنه ذاهب الى المنزل الذى اعتاد الاقامة به أو المبيت فيه اذا جاء القصر المأمونى ، وهو من جملة أبنية ذلك القصر الكبير . فظل ماشيا وسلمان يتقدم نحوه حتى التقيا وخرجا من الدهليز الى البستان ومنه الى ذلك المنزل

كان الطبيب يمشى مطرقا وسلمان يسير فى أثره مهرولا ولكنه رغم هرولته وطوله لا يستطيع اللحاق به وهو يمشى الهوينى لسعة خطواته . فلما وصلا الى المنزل تقدم سلمان وفتحه ، ثم خلعا حذاءيهما ودخلا ، وهم سلمان بسراج على مسرجة فأشعله وأغلق الباب وراءه ، ووقف حتى جلس الطبيب على وسادة فى صدر الغرفة فوق البساط وأمره بالجلوس بين يديه فجلس منتظرا أمره ، فلما استتب بهما الجلوس قال الطبيب : « ما وراءك يا ملفان سعدون ؟ »

فقال : « وأنت أيضا تدعونى ملفانا ؟ » . وضحك

فقال : « انك تبقى ملفانا حتى تنتهى مهمتنا من هذه الديار ونبلغ غايتنا. قل ما وراءك ؟ »

قال : « جئتك بخبر مهم لم يطلع عليه أحد فى هذه المدينة ، ولو عرفه أهلها لقاموا وقعدوا وتغيرت أحوالهم ، فضحك قوم وبكى آخرون »

فتنحنح الطبيب ونظر الى سلمان بعينين حادتين كأنه يخترق أحشاءه ويستطلع خفايا قلبه وقال : « هل عندك غير خبر موت الرشيد ؟ »

فأجفل وقال : « وهل عرفت ذلك ؟ يالله ! كيف عرفته وقد جاء الساعة ولم يعلم به أحد الا صاحب البريد . ولو لم أشاهد اللوح النحاسى الذى يحمله سعاة البريد معلقا بالشرابة على صدره لما صدقته . فكيف عرفته ؟»

قال : «عرفته ولم أر اللوح النحاسى ولا تحققت صدق الساعى . ان الرشيد مات يا سلمان فهل عرفت خبرا غير هذا ؟ »

قال : « وهل هناك ما هو أهم من هذا الخبر ؟ • لقد أذهبت سعيى عبثا وكنت أحسبنى جئتك بخبر تغبطني عليه وأنا انما عرفته اتفاقا وقد كلفني سبيكة من الذهب !• انى لا أزال قليل النفع لك »

قال الطبيب : « بل أنت كثير النفع لا يستغنى عن ذكائك ونشـــاطك ويكفينا أنك تكشف لنا عن أغراض العامة وأقوالهم والعيارين ومقارفتهم »

فقال : « ليس هذا مما يؤبه له • وأظنك عالما بالغيب فقل ما عندك مما يفوق موت الرشيد خطرا »

قال : « أخطر منه ما أتاه أصحابه ، فقد خلعوا المأمون ونكثوا البيعة له بعد أخيه • وسترى عاقبة ذلك عليهم »

فدهش سلمان وقال : « نكثوا بيعة المأمون ؟ يا لهم من قوم خائنين ! • لكن من فعل هذا ؟ أو أشار به »

قال : « الفضل بن الربيع »

فقال سلمان وقد ذعر : « الفضل وزير الرشيد الذى سافر معه فى حملته الأخيرة ؟ »

قال : « نعم هو بعينه • ان هذا الرجل أقدم على أمر سيودى بهذه الدولة كما فعل بقتـــل الوزير المظلوم ، وكل من الفعلين يسقط دولة فكيف اذا اجتمعا ؟ » • قال ذلك وقد بدا الغضب فى عينيه

فتهيب سلمان من غضبه وقال : « وكيف كان ذلك يا سيدى ؟ »

قال الطبيب : « لما ســافر الرشيد فى هذه الحملة اصطحب ابنه المأمون وأخذ له البيعة من جميع من فى معســكره من القواد والأمراء ومن اليهم ، وأقر له بجميع ما معه من الأموال وغيرها • وكان ذلك بسعي الفضـــل بن سهل صاحب الهمة الشماء »

قال : «نعم يا مولاى ان الفضل بن سهل لجدير بهذا الوصف• ثم ماذا ؟»

فقال : « وسار المأمون مع أبيه ليقيم بخراســـان • ولا يخفى عليك ان الرشيد بايع بالخلافة بعده لولده الأمين المقيم في بغداد الآن ، ثم للمأمون الذى رافقه فيهذا السفر • على أن يتولى خراسان أثناء خلافة الأمين• وكان الرشيد مريضا يوم سفره ولكنه أخفى مرضه• وقد روى لى الصباح الطبرى ومكانته منالرشيد ما تعلم ــ انه ذهب لوداعه يوم خروجه منبغداد، فقال الرشيد له : (ما أظنك ترانى يا صباح أبدا) • فلما أعظم قوله وأنكر عليه ما يخافه ، قال : (ما أظنك تدرى ما أجد فى صحتي) • قال الصـــباح : (لا والله) • فعند ذلك مال الرشيد الى ظل شجرة فيالطريق وأمر خواصه بالابتعاد • فلما خلا الى الصباح كشف عن بطنه فاذا عليه عصـــابة حرير وقال : (هذه علة أكتمها عن الناس كلهم ، ولكل واحد منولدى على رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم

أحـــد الا وهو يحصى أنفاسى ويستطيل دهرى . وان أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدعو بدابة فيأتونى بدابة عجفاء قطوف لتزيد علتى ، فاكتم عـلى ذلك) . فدعا له الصباح . ثم طلب الرشـيد دابة فجاءوا بها كما وصف فنظر الى الصباح وركبها وعاد الصباح من وداعه ولم يكتم ذلك عنى »

فاستغرب سلمان اطلاع مولاه على كل هذا وكيف كتمه عنـــه الى تلك السـاعة ، وأحب أن يعرف خبر الفضـــل بن الربيع فقال : « وماذا فعل ابن الربيع ؟ »

قال : « سافر الرشيد ومعه الفضـــل ، فأخذ هذا يراسل الأمين مخبرا اياه بكل ما يحدث . فلما كتب اليه بأن الرشيد اشتد مرضه ، أعد الأمين كتبا وأمر أن يجعلوها فى قوائم صناديق المطبخ المنقورة بعد تغطيتها بجلود البقر ، ثم عهد الى رجل من خاصته اسمه بكر بن معمر فى ايصـــالها الى أصحابها ، وقال له : (احذر أن تطلع أمير المؤمنين أو غيره عليها ، بل انتظر حتى تعلم بنبأ موته ، ثم ادفع الى كل انسان كتابه)

« فلما وصل بكر هذا الى مدينة طوس حيث كان الرشـــيد مريضا ، بلغ الرشيد قدومه فدعا به اليه وسأله : (ما جاء بك ؟) . فقال : (بعثنى مولاى الأمين) . فسأله : (هل معك كتـــاب ؟) . فقال : (لا) . فلم يصدقه لعلمه بتكتمهم وأنهم شـــديدو الرغبة فى موته ، فأمر أن يفتشوا ما معه فلم يصيبوا شيئا فلم يقتنع فأمر بضربه لعله يعترف ، فضربوه ضربا مبرحا حتى خاف الموت ، فقال للفضل : (عندى أنباء مهمة فاتركونى لأفضى بها اليكم) . ولكن الرشيد أمر بقتله ، ثم اتفق لحسن حظ بكر أن أغمى على الرشيد فاشتغل الناس به ، وما لبث أن مات فبعث الفضـــل الى بكر بمن أخبره بموت الرشيد وسأله عن الكتب التى معه من الأمين فدفعها اليه ، وهى كتاب الى أخيه المأمون يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة على الناس لهما ، وكان المأمون يومئذ بمرو . وكتاب الى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر . وأن يعمل هو ومن معه برأى الفضل . وكتاب الى الفضل يأمره بالمحافظة على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك . وأقر كل من كان هناك على عمله. فلما قرأوا الكتب تشاوروا مع القواد فيما يفعلون بالعهود التى عليهم للمأمون فى بغداد . فكان من رأى الفضل أن يلحقوا بالأمين وقال : (لا أترك ملكا حاضرا لآخر ما أدرى ما يكون من أمره) . وأمر الناس بالرحيل الى بغداد. ولن يلبثوا غير أيام حتى يصلوا الينا وقد خلعوا المأمون. وما خلعوه الا لأن أمه فارسية وهم عصـــبة يزعمون أنهم ينصرون العرب ، وما ينصرون الا مطامعهم ، وسيعلمون ما ينالهم من أخواله » . قال ذلك وقد تعاظم غضبه فازداد سلمان تهيبا من منظره رغم طول صحبته وما ألفه من أحواله ، وظل مطرقا لا يجرؤ على النظر اليه مخافة غضبه . ثم أحب أن يكلمه فرآه يتحفز

للنهوض ويقول : « لا بأس على ابن أختنا ، فهو فى خراسان بين أخواله ، وفيهم الفضل بن سهل »

ونهض بهزاد فنهض سلمان معه وقال : « ما الذى نفعله الآن يا مولاى؟»

فأطرق وهو يحك جبينه بسبابته وابهامه ثم قال : «لابد من ذهابى لأمر خطر لى لا يحسن تأجيله »

فقال سلمان : « وهل أذهب معك ؟ »

قال : « كلا ، بل أرى الذهاب وحدى لسبب ستعلمه ! »

فقال وهو يهز رأسه اعجابا واستغرابا : « لقد أدهشتنى بما تكتمه وما تظهره كأنك تستخدم الجان ! »

قال : « لم أفعل شيئا غريبا » . وأخذ يصلح قلنسوته ويعدل بند سيفه استعدادا للمسير ، فابتدره سلمان قائلا : « اذا كنت لا ترى حاجة الى، فانى أذهب لاتمام مهمتى التى بدأتها فى غروب اليوم ، ولولا تعجلى لاطلاعك على خبر الرشيد لأتممتها قبل مجيئى ولو علمت أنك تعلم الغيب . و . . »

فقطع بهزاد كلامه قائلا : «لا دخل للغيب فيما تراه ، وستعلم انه طبيعى . ولكننى تعودت الا أقول شيئا قبل التثبت منه . وانما يقدم على كثرة الكلام أهل الطيش فيجعجعون ويطنطنون ثم لا يأتون غير الكلام ، وعندى ان اذاعة ما ينويه المرء من الأعمال يذهب بالعزم على اتمامه . وما أجمل ما قيل : (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) . . »

وكان سلمان يصغى الى كلامه فلما فرغ قال : « انها عظة بالغة ، ولذلك فانى ذاهب الآن لقضاء المهمة التى بدأتها ، ومتى انتهت أطلعتك عليها . وأرجو أن تحسن فى عينيك وألا تكون قد سبقتنى اليها ! »

فقال الطبيب : « اذهب فى حراسة الله ، وسنلتقى هنا غدا . واذا لم آت فلا تستبطئنى » . قال ذلك وترك سلمان ومشى نحو القاعة التى ترك القوم فيها

□

كانت دنانير بعد ذهاب الطبيب قد أدخلت زينب الى الفراش وسألت ميمونة اذا كانت تريد الرقاد أيضا فأجابت بأنها تؤثر البقاء للاستئناس بها وبجدتها ، فأمرت الخدم بأن يعدوا لها ولعبادة طعاما فأكلتا ولا حديث لهما غير بهزاد وكل منهما تقص على رفيقتها ما تعرفه من غريب أطواره وأحواله ، ولاسيما عبادة فانها أخذت تطرى شهامته وأنفته وكرم أخلاقه ، وكيف أن أهل المدائن يعدونه من الأولياء ويستغربون تكتمه . على أن التكتم زاده رفعة فى أعينهم وزادهم تهيبا منه . لأنك لا تزال تخاف المجهول

حتى تعلمه · وعلى هذا القياس ترى الصمت يرفع منزلة صاحبه وكثرة الكلام تقلل من هيبته ، فاذا جهلت ما في خاطر المرء حسبت ما يكتمه شيئا عظيما فاذا تكلم انكشف لك عن شيء تافه · والعقلاء يزين أقوالهم احتفاظهم بالكلام الى حين الحاجة ، مع تدبير ما يقولون فلا يلقون الكلام على عواهنه

وكانت ميمونة تسمع حديثهما عن بهزاد وقلبها يرقص طربا تشعر به ولا تستطيع التعبير عنه · فقد عرفت هذا الشاب منذ عام وبعض العام ، ورأت منه انعطاف المحسنين وغيرة الأقربين فاحترمته وأعجبت به · ثم الفت رؤيته حينا بعد آخر فأصبح اذا غاب استبطأته وشعرت بحاجة الى رؤيته ، ولا يطمئن قلبها الا اذا رأته ولو مارا في الطريق · وقد زاد في ارتياحها اليه ما كانت تسمعه من اطراء جدتها له وامتداحها خصاله ، فأصبحت اذا شاهدته أو سمعت صوته يخفق قلبها ، واذا كلمها صعد الدم الى محياها واستولى الخجل عليها · ثم أصبح قلبها يخفق لسماع اسمه ، وصارت تلتذ الحديث عنه ، واذا سمعت أحدا ينتقده أو يقبح أعماله شق عليها قوله وأخذت تدفع عنه بحماسة وغيرة

كانت تفعل ذلك وهي لا تعلم أنها تحبه ، ولو سئلت في ذلك لاستغربت السؤال وأنكرته · لا تفعل ذلك نفاقا أو رياء لكنها لم تكن تعلم انها تحبه ، خصوصا أنها لم تكن تسمع منه كلمة تدل على حبه لها · وكان اذا جاء المنزل كلم جدتها ، فاذا عرضت له حياها وهو ينظر الى شيء آخر ، وربما سألها عن حالها سؤالا لا مبالاة فيه أو اكتراث ، فلم يمنعها ذلك من الاسترسال في حبه لأنها لم تفكر في هل تحبه أم لا · ولو فعلت ذلك لاحترست من التورط لأنها لم تكن ترى منه ميلا ولكنها أحبته عفوا ، وهي لا تعرف دلائل الحب

وما زالت على ذلك حتى التقت به تلك الليلة فجأة ثم رأته يلاطف زينب ويداعبها فتحركت الغيرة في قلبها مع علمها أنه فعل ذلك تلطفا ومجاملة ، وأحست كأن سهما أصابها في قلبها · على أنها تراجعت وحاولت أن تقنع نفسها بأن ليس ثمة داع للغيرة فاقتنع عقلها ، وأما قلبها فما زال في اضطراب،وأخذت من تلك الساعة تتساءل عن سبب هذا الشعور فاغتنمت اشتغال جدتها ودنانير بالطعام والحديث ، وطفقت تفكر في سبب هذا الشعور وكلما همت بأن تسأل نفسها هل تحبه غلب عليها الحياء وأنكرت ذلك لأنها لا ترى من أعماله ما يجرئها عليه · فتعللت بأنها انما تحبه اقرارا بفضله واحسانه

ثم رأت ذلك لا يغني فتيلا لأنها تحس بانعطاف اليه غير انعطافها الى جدتها مثلا وهي أكثر الناس احسانا اليها،فتحققت أنها تحبه لغير الاحسان· ولما تصورت ذلك ولم تر مندوحة عنه انقبضت نفسها لأنها لم تلحظ منه شيئا من غير هذا القبيل نحوها · وعادت الى ذكرى الماضي فراجعت تاريخ

معرفتها به وما كان يبدو من حركاته وأقواله فلم تر دليلا على ان عنده مثل ما عندها • على انها حملت ذلك منه على رغبته فى التكتم

وهكذا كانت عبادة ودنانير تتناولان الطعام وتتحادثان ، وميمونة غارقة في هذه الأفكار • وبعد الفراغ من الطعام قالت دنانير : « هل تريدان الذهاب الى الفراش فاننا في أواسط الليل ؟ »

فقالت عبادة : « أما أنا فلا أشعر بالنعاس ، ولكن ميمونة تنام »

فلما سمعت ميمونة قولها تذكرت أن بهزاد وعد بألا يبطىء في العودة ، وشعرت بميل الى أن تراه قبل الرقاد ، ولاسيما بعد ما ناجت به نفسها من حبه لعلها تؤانس منه اشارة أو تسمع كلمة تستدل منها على ميله اليها • فلما سمعت قول جدتها حدثتها نفسها أن تعصاها ولكنها لم تجرؤ اذ لم تألف مخالفتها فوقعت في حيرة وارتبكت في أمرها • ولحظت دنانير ارتباكها وأدركت سببه دون عبادة اذ كانت لا تعلم شيئا عن عواطف حفيدتها فلم تكن تتوقع منها غير النهوض ، ثم سمعت دنانير تقول : «مالنا وللرقادالآن؟ دعي ميمونة معنا فان هذه الليلة عندي من ليالي العمر لشدة فرحي بكما »• ثم مدت ذراعيها الى ميمونة وضمتها الى صدرها وقالت : « ولاسيما حبيبتي ميمونة فانها كنز لقيته • فدعيني أتمتع برؤيتها »

فأشرق وجه ميمونة ، ولما ضمتها دنانير وقبلتها أجابتها بقبلات حارة وضحكت من شدة الفرح

فأثنت عبادة على عطف دنانير ومجاملتها • ولم يستتب بهن المقام حتى سمعن وقع أقدام الطبيب ، فخفق قلب ميمونة ولكنها تجلدت • ونهضت دنانير لاستقباله فاذا به لا يزال بلباسه وزاد عليه كوفية اعتم بها وأرخى أطرافها حول رأسه كأنه على سفر ، فابتدرته دنانير قائلة : « مالى أرى الطبيب يهم بالسفر ؟ »

قال : « لابد من ذهابي الآن لأمر ذي بال ، وكنت أود البقاء عندكم لولا الضرورة ولكنني سأعود في الغد ان شاء الله »

وكانت عبادة قد وقفت لاستقباله وميمونة بجانبها ، فلما سمعتا قوله تقدمت عبادة حتى التقت به وهو داخل من الباب فقالت : « سر في حراسة الله يا ولدى ، وأرجو أن تعود سريعا ولا تنسانا »

فتقدم نحو عبادة ومد يده فصافحها باحترام وقال : « حاش لله أن أنساك » • والتفت الى دنانير وقال : « انى أوصيك بهذه الحالة يا دنانير ، وان كنت لا أرى حاجة الى ذلك لما آنسته من حبك لها »

وكانت ميمونة أثناء ذلك واقفة وركبتاها ترتعدان وقد تولاها الخجل ، وقد أعدت عبارة تقولها في وداعه فلما رأته نسيتها وتلعثم لسانها

أما هو فلما فرغ من وداع عبادة تحول نحو ميمونة ومد يده فقبض على

يدها وأحس برعشتها وبرودتها فضغط عليها ووجه كلامه الى دنانير وقال : « وهل أوصيك بلمياء ؟ » كان يجب أن أوصى أم حبيبة بها ، على أننى لا أرى حاجة الى ذلك وقد رأيت من تحابهما مالا حاجة معه الى توصية ، بل يجدر بى الآن أن أوسط لمياء لدى مولاتنا من أجلى » . ثم وجه خطابه الى ميمونة وهو يضغط على يدها ضغطا ترافقه رعدة متبادلة وقال : « هل تتوسطين لى عندها ؟ . ما أسرع تسلطك على قلب مولاتنا حتى استأنست بك كأنها تعرفك منذ أعوام » . قال ذلك وابتسم وأبرقت عيناه وكادتا تبوحان بما فى قلبه

وأما هى فلا تسل عن حالها وماكان يتجاذبها من الخجل والامتنان والفرح، لما آنسته من تلطفه وما توسمته فى خلال حديثه من الدلائل على حبه ، فسكتت وأطرقت ، وهذا أبلغ جواب من فتاة فى مثل هذه الحال ، لكنها لم تتمالك عن الابتسام وبان السرور فى وجهها

أما هو فكأنه انتبه الى نفسه وندم على ما فرط منه فأفلت يدها وعاد الى كتم عواطفه ، فتحول عن ميمونة الى دنانير فحياها وقال : « أستودعكم الله الى الغد » . وخرج مسرعا

وكانت دنانير قد لحظت ما بدا من اهتمام الطبيب بميمونة، وسرها ذلك بعد أن استاءت من فتوره ، للمرة الأولى ، فودعته وعادت الى ضيفتها فقالت : « ما أكثر ما يهتم له هذا الطبيب ، وما أكثر شواغله فانه لا يلبث أن يكون جالسا حتى ينهض . انى لم أفهم سره »

فقطعت عبادة حديثها قائلة : « هذا هو حاله معنا منذ عرفناه ، فمع توالى احسانه لا أذكر انه جالسنا ساعة أو بعض ساعة ، فلا أراه الا مهتما مقطبا، وهذه أول مرة رأيته يبتسم ولم يطل ابتسامه فعاد الى حاله »

أما ميمونة فبعد أن اطمأن قلبها وفرحت بما لمحته من بهزاد عادت الى هواجسها عندما أفلت يدها بسرعة وتغير وجهه فجأة ، ثم اشتغلن بالحديث حتى حان موعد الرقاد فذهبت كل واحدة الى فراشها

◻

كان سلمان هو الذى تنكر باسم الملفان سعدون واختلط بالعامة وصاحب رئيس العيارين خدمة لمولاه بهزاد . وقد ترك الهرش على أن يعود اليه فى تلك الليلة مهما يطل غيابه ليلقاه فى قاعة العيارين . وكان قد أسرع الى القصر ليخبر الطبيب بموت الرشيد فلما رآه يعلم ما لم يعلمه هو من أمر البيعة وما تبعها رأى أن يعود بهذه الأخبار الى الهرش لعله يدهشه فيزداد اعتقادا بصدق مندله

فلما ودع مولاه الحكيم أبدل ثيابه وعاد الى العمامة والجبة والسالفين

واللحية ، وأسرع الى بغلته فركبها وسار قاصـــدا قاعة العيارين . وكان الليل قد انتصف وأغلقت المنازل وطاف الحراس يتنادون فاذا رأوا غريبـا أوقفوه. أما سعدون فكان له من لباسه وقيافته شافع حتى بلغ جسر بغداد ولم يكن له بد من المرور عليه الى البر الغربي والحراس قائمون عـلى طرفيه وقاعة العيارين بالحربية وراءه ، فمر على الجسر ولم يعترضه أحد حتى دخل البر الغربي وهو بغداد الأصلية مدينة المنصور وحولها الأرباض القديمة وفيها الطرق الضيقة علقت المصـابيح في مداخلها ، ووقف الحراس فيهـا بأسلحتهم ، فأوجس خيفة منهم ، ونادى أحدهم فأسرع اليه فقال له : « سر أمامي الى قاعة العيارين »

فلما سمعه الحارس يتكلم كمن له سلطان ، ورأى لباسه ظنه أحد رجال أهل الذمة المقربين من الخليفة للطبابة أو النجـامة أو نحوهما . فمشى بين يديه حتى أقبل على بناء فخم من ناحية الحربيـة ببابه عياران عليهما المئزر وعمامة من الخوص ، فلما رأيا الملفان على بغلته عرفاه فتقدما اليه وأعاناه على النزول وقالا له : «ان مولانا الهرش ذهب الى مكان قريب ولا يلبث أن يعود، وقد أوصانا بأن نرحب بك وندخلك القاعة تنتظره فيها »

فترجل ومشى العياران بين يديه وسـلمان يخطو وراءهما بعكازه ، حتى استطرق من الدهليز الى ميدان تطرق منه الى قاعة كبيرة فيها عدة مصابيح مدلاة من سقفها كالثريا ، وفي أرضها بساط عليه نقوش ووسائد ومقاعد. فدعاه العياران الى الجلوس على مقعد الى اليمين فجلس . وكانت هـذه أول مرة دخل فيها قاعة العيارين ، لكنه لم يدهش لما هناك من الأثاث الثمين بل دهش لما رآه معلقا في جدرانها من ضروب الأسلحة وأدوات الحرب من مختلف أنواع السيوف والأقواس والرماح ، ومن المقاليع بين مصنوع من الجلد أو مجدول من الشعر أو من الحرير ، والى جانب كل مقلاع مخلاته والمخالى عـلى أنواع . ورأى في بعض جوانب القاعة عصيا طويلة من خشب الشوم وغيره يثب عليها العيارون لقطع الأنهر ، وبجانبها سـلالم مصنوعة من الحبال تنتهي من أطرافها بكلاليب يرمونها على السطوح اذا أرادوا الوثوب عليها . ويقال لها سلالم التسليك . غير ما رآه من أدوات النفط التي يشعلون بها الخرق المبتلة بالنفط ويرمونها بالمجانيق . ولم ير هناك الا منجنيقا واحـدا صغير الحجم لرمي النبـال أو النفط وليس مما ترمى به الحجارة الضخمة . هذا الى ما رآه معلقا في صدر القاعة من الدبابيس وهي العصي وفيها المسامير من الحديد، وبعضها مساميره من الفضة أو الذهب . وهذا الدبوس لا يحمله الا الرؤساء ، وبينها دبابيس مصنوعة من الحديد . ورأى على رف هنـاك أرغفة من الرصاص يرميها العيارون على أعدائهم فتذهب بقوة عظيمة وقد تقتل عدة أشخاص في رمية واحدة . ورأى كثيرا من أدوات القتل والكسر والنقب وضروبا من الحبال وغيرها مما يحتاج اليه العيارون

ابن ماهان صاحب الشرطة

قضى سلمان نصف ساعة ظنها عدة ساعات لفرط قلقه وهو يراجع ما مر به تلك الليلة من الغرائب . ثم سمع ضوضاء بباب القاعة فعلم أن الهرش قدم فتحفز للقائه . واذا بالهرش قد دخل مسرعا وفى اثره شاب جميل الصورة عليه قباء وسراويل وقلنسوة ، وقد نبت عارضاه وبان عذاره ، يلوح انه من الرقيق الأبيض ، فوقف الغلام بالباب واسرع الهرش الى سلمان وكان قد وقف له فحياه وابتدره قائلا : « ابطأت عليك مرغما فان حامد (وأشار الى الغلام) له حاجة عند صاحب الشرطة وأبى الا أن اصطحبه الليلة اليه ، فهل تأتى معنا ؟ »

قال : « انما جئت عملا باشارتك فقد الححت على بالرجوع . فاذا كنت لا ترى أن اذهب معك رجعت »

فقطع الهرش كلامه قائلا : « بل أنا شديد الرغبة فى الذهاب برغم أننا فى آخر الليل . هيا بنا فان الركائب معدة » . ثم التفت الى الغلام وقال : «نحن ذاهبون مع الملفان سعدون الى صاحب الشرطة ، وسأوصيه بأن يخرطك فى سلك الشاكرية فذلك خير لك من أن تكون عيارا »

ففهم سلمان أن الهرش وعد الغلام بادخاله فى ذلك السلك ، وتبينه عن قرب فرأى فيه ذكاء وأنفة ، فضلا عن الجمال ولم يستغرب ذلك فقد كان بين الرقيق المجلوب الى بغداد أو المولودين فيها جماعة من أجمل خلق الله وأذكاهم ينخرطون فى الجندية أو الحراسة أو ينتظمون مع الشاكرية الذين يتولون نقل المراسلات فى قصر الخليفة . فخرج الهرش وقد امسك بيد سلمان احتفاء به ، وفى خاطره أن يسأله عما لديه من الأخبار ولكنه استنكف من التعجيل

فلما خرجا من القاعة ركب سلمان بغلته وامتطى الهرش فرسه ومشى فى ركابهما عياران . وركب الغلام حمارا وسار فى اثرهما وهو يستغرب ما يراه من احتفاء الهرش بذلك الملفان . وكان كل همه أن يوفق الى الالتحاق بالشاكرية عملا باشارة مولاه فقد ربى فى كنفه ولم يكن يعرف وليا سواه . وكان يخلص فى طاعته لما كان يلقاه من عطفه عليه وكان الهرش يعامله معاملة الأب لابنه وقد عنى بتعليمه وتثقيفه على غير ما تعود العيارون

ولم يكن منزل صاحب الشرطة بعيدا عن قاعة العيارين ، فما عتموا ان وصلوا اليه ، فترجلوا بجانب باب كبير غلب النعاس على حارسيه فلما سمعا قرقعة اللجم نهضا فرايا الهرش فوسعا ، فدخل الهرش والملفان سعدون الى جانبه يتوكأ على عكازه ، ومشى احد الحراس بين يديهما بالمصباح فى رواق مستطيل الى قاعة عليها ستر مسدول . وعلى بابها حاجب خف الى استقبال الهرش مرحبا ، فابتدره قائلا : « هل مولاك هنا ؟ »

قال : « اظنكم على موعد من لقائه لأنى لا اعلم انه يسهر الى مثل هذه الساعة »

فلم يجبه الهرش وظل سائرا حتى رفع الستر وأشار الى الملفان سعدون ان يدخل ، وأومأ الى حامد ان يمكث فى الرواق ريثما يستقدمه . أما الحاجب فاعلن قدوم الزائرين بقوله : « ان الهرش داخل يا مولاى »

فدخل سلمان وهو فيما وصفناه من قيافته الملفانية بعد أن نزع حذاءه وترك عكازه بجانب الباب . فراى ابن ماهان فى صدر القاعة على وسادة وبجانبه رجلان مال احدهما عليه كأنه يقص عليه حديثا مهما . فعرفه سلمان انه سلام صاحب البريد جاء ليسر اليه خبر موت الرشيد ، وكان ابن ماهان يتطاول بعنقه لسماعه وقد بدت الدهشة فى عينيه

وكان الرجل الآخر شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، جميل الطلعة حسن البزة ، وجهه مشرب حمرة ، ويتلألأ فى عينيه ماء الشبيبة ، وعليه ثوب ثمين وحول قلنسوته عمامة مزركشة ، وقد تربع وأخفى قدميه تحت سراويل من الخز الثمين . وقد تضوعت القاعة من طيبه . ولم يكن هذا الشاب أقل اصغاء لحديث صاحب البريد من ابن ماهان . فعرف سلمان انه ابن الفضل بن الربيع ولم يكن احد من هؤلاء يعرف الملفان سعدون الا بما سمعوه عنه من الهرش

وكان ابن ماهان شيخا تقدمت به السنون ولكن مطامعه ما زالت فى ابانها . وله لحية واسعة يخضبها بالحناء وقد تغضن جبينه واتضحت الشيخوخة فى وجهه . ولكن الكبرياء والغرور ما زالا ظاهرين فى جلسته ولفتته وأسلوب خطابه . وقد زاده كبرا ما اختص به من الدالة على رجال الدولة لسبقه فى خدمتها منذ ايام المنصور . فانه لما توفى هذا الخليفة سنة ١٥٨ هـ وأبى عيسى بن موسى ان يبايع لابنه المهدى ، كان ابن ماهان حاضرا فوضع يده على قبضة حسامه وقال له : « والله لتبايعن أو لاضربن عنقك » . فبايع فارتفعت منزلة ابن ماهان لدى الخلفاء العباسيين من ذلك الحين . وتولى عرش الخلافة فى ايامه اربعة خلفاء آخرهم الرشيد . وكان قد حسد البرامكة ووالى الفضل بن الربيع واتفقا على معاداة الفرس ومن قال بقولهم . ولذا قربه الامين وجعله صاحب شرطته فأصبح همه تأييد سلطانه

وكان شديد القلق على مستقبل الخلافة بعد سفر الرشيد ، وكاشف الهرش بذلك فاخبره بمقدرة الملفان سعدون على استطلاع الغيب ووعده بأن يأتيه به في تلك الليلة ، فلبث ابن ماهان في انتظاره على مثل الجمر فجاءه صاحب البريد اثناء ذلك واسر اليه نعي الرشيد وجلسا يتباحثان فيما عساه ان يحدث من التغيير . اما ابن الفضل فكان يتردد على ابن ماهان ويجالسه بلا كلفة ، فاشترك في سماع الخبر . فلما سمع ابن ماهان الحاجب ينبئه بقدوم الهرش التفت نحو الباب فرآه داخلا وسلمان الى جانبه فرحب بهما واصطنع ضحكة يتلاطف بها كما يفعل بعض المتغطرسين اذا أحب التظاهر بالتواضع

▭

لم يحفل سلمان (أو الملفان سعدون) بما بدا فظل داخلا وسلم ، ثم قال الهرش : « هذا الملفان سعدون قد جاء معي »

فابتسم ابن ماهان وهو يمشط لحيته بأنامله ولم يتزحزح من مكانه وقال : « مرحبا بالملفان العالم المنجم » . وأومأ اليهما أن يجلسا ، ثم التفت الى صاحب البريد وقال : « قد كنت في قلق لاستطلاع الخبر الذي قصصته علي فأحببت ان أستعين على كشفه بعلم هذا المنجم ولم يعد بنا حاجة الى ذلك الآن » . ثم اعتدل في جلسته وقال : « ولكني سررت بلقائه ، لعلي احتاج اليه في فرصة أخرى »

فأدرك الهرش ان صاحب الشرطة يحسب خبر صاحب البريد سرا عليهما ، فنظر الى الملفان سعدون نظرة فهم مراده منها ، فالتفت الى ابن ماهان وقال : « أرى صاحب الشرطة في شاغل مع صاحب البريد ومع مولانا ابن الفضل وأخشى ان تكون قد ثقلنا بمجيئنا »

فضحك والاهتمام باد في عينيه وقال : « لا يستغنى عن المنجمين في مثل هذه الحال ، لا سيما اذا صدقوا في تنبئهم » . ثم وجه خطابه الى سلمان وقال : « هل كشف لك شيء يهمنا أمره يا ملفان ؟ »

فقال مستخفا : « ربما كان ذلك »

فتدخل الهرش وقال : « ان الخبر الذي تتسارون به كشف لنا منذ ساعات ! »

فتجاهل ابن ماهان وقال : « اي خبر تعني ؟ »

فأشار الهرش الى سلمان ففهم مراده فقال : « ليس موت الرشيد جديدا عندي ، ولا اقنع به وحده ، فلو أني عملت المندل هذه الليلة لرأيت .. »

فبغت ابن ماهان ونظر الى صاحب البريد كأنه يستعينه ، فتصدى ابن

الفضل للسؤال وقال : « وهل من خبر غير موت الرشيد ؟ »

قال : « ان الرشيد رحمه الله كان مريضا قبل سفره وكنا كلنا نتوقع موته ، لكن المندل كشف لى أمورا اذا وعدتمونى بكتمانها عن مولانا الأمين حتى يعرفها من غيرى قلتها لكم » . قال ذلك وهو يرمى الى أن يجعلهم يفشونها . وكذلك يفعل اهل الدهاء اذا احبوا نشر مأثرة لهم فانهم يتظاهرون بكتمانها ويبالغون فى الحذر من نشرها بغية اذاعتها

فلما احس ابن الفضل تكتمه ازداد رغبة فى الاطلاع على ما عنده وقال : « اذا كنت تعرف شيئا جديرا بالاهتمام فان اطلاع مولانا الأمين عليه يدعو الى رفع مقامك . وماذا عسى ان يكون لديك ؟ »

فقال : «اطلعت على سر يهم ابن الفضل أكثر من غيره » . فزحف ابن الفضل نحوه وقال : « وما ذلك ؟ وكيف يهم ابن الفضل خاصة ؟ » . قال ذلك وهو يظن ان الملفان لا يعرفه

فقال سلمان : « ان الخبر يهم ابن الفضل لأنه يمس اباه الوزير ، أى اباك »

فعجب ابن الفضل لمعرفته اياه ، ولكنه شغل عن ذلك برغبته فى الاطلاع على الخبر ، ونظر الى ابن ماهان فالتفت هذا الى الملفان وقال : « ارى دعواك عريضة فقل ما عندك لنرى . فاذا صدقت ضمنا لك التقرب من مولانا »

فقال : « ان التقرب من امير المؤمنين نعمة وما نحن الا عبيده »

فاستغرب قوله : « أمير المؤمنين » . فقال : « كيف تدعوه أمير المؤمنين وغاية علمنا انه ولى العهد ، فهب ان الرشيد مات فهل تصير الخلافة اليه ؟ »

قال : « بل قد صارت له وحده وقضى الأمر ! »

فعلم اذ ذاك انه يعرف شيئا جديدا فقال : « له وحده ؟ وكيف ذلك ؟ »

فأشار بأصبعه الى ابن الفضل وقال : « بسعى مولانا الفضل الوزير »

فتطاولت اعناقهم لسماع الخبر ، والهرش على راسهم وابتدره قائلا : « ذلك شيء جديد على فاقصص علينا ما علمت »

فاعتدل فى مجلسه واخذ يقص عليهم ما سمعه من بهزاد وكانه يقرا فى صحيفة بين يديه ، والكل صامتون وقلوبهم تخفق دهشة واستغرابا ولاسيما ابن الفضـــل فانه ازداد افتخارا بما أتاه أبوه للأمين ، وكان قد اطلع على مقدمات من قبل فلما سمع النتائج التى رواها سلمان تحقق صدقها . ودهش ولم يتمالك أن دنا منه وربت على كتفه استحسانا واعجابا وقال : « بورك فيك ، انك منجم عجيب ! »

أما ابن ماهان فأمسك عن الاعجاب ، وقال : « هل انت واثق مما تقول ؟ »

فقال : « هذا ما كشفه لى المندل ولم اعهده يخدعنى من قبل »

فصغر صاحب البريد فى عينى نفسه واحتقر الخبر الذى جاء به فسكت

اما ابن ماهان فالتفت الى الهرش وقال : « اذا صح ما جاءنا به الملفان فان الأمر جد خطير ، واني أبشره برياسة المنجمين فى دار الخلافة ، فاكتموا الآن ما سمعتم لنرى ما يكون » . وتناول من تحت وسادته صرة من النقود دفعها الى المنجم وقال : « هذا اجر طريقك وثمن البخور »

فتباعد سلمان ويداه وراء ظهره مستنكرا ، ويد ابن ماهان ممدودة بالصرة ، فالتفت الى الهرش مستغربا ، فضحك هذا وتناول الصرة واعادها الى مكانها وقال : « ان منجمنا لا يتعاطى هذه الصناعة رغبة فى أجر ، وانما يبذل علمه فى سبيل صداقتنا »

فازداد الجميع اعجابا به وقال صاحب الشرطة : « لابأس ، سينال اضعاف هذا بما أرجوه له من التقرب الى الخليفة »

وعند ذلك تحفز سلمان للوقوف وقال : « اعذرونا فقد أطلنا سهركم »

فلم يتمالك ابن ماهان عن النهوض احتراما له ، وقد ذهبت كبرياؤه واحس بافتقاره الى علم الرجل . وذلك شأن الناس مع أهل المعرفة فانهم يبداون باحترام الظواهر حتى تظهر المعرفة فتكون العاقبة لها . وقد تجالس رجلا لا تعجبك بزته فتحتقره ، ثم يتكلم فاذا رأيت منه علما انقلب احتقارك احتراما . وربما دخل عليك فلا تأبه له فاذا عرفت فضله خرجت لوداعه وزودته بالثناء والاعجاب . كذلك فعل ابن ماهان بالملفان سعدون فقد استقبله استقبالا فاترا ظنا منه انه جاء يتزلف اليه ، فلما رأى علمه وترفعه عن الانعام احترمه ووقف لوداعه وشيعه الى باب المجلس راجيا اليه ان يأتيه فى الغد

ولما ودع ابن ماهان الهرش بالغ فى الثناء عليه لأنه كان وسيط معرفته بالمنجم ، فتذكر الهرش غلامه حامدا وكان لا يزال فى انتظاره بالباب فقال : « انى لم افعل ما يستحق الثناء وان نعمتك متوالية علينا ، ثم نادى حامدا وقدمه الى ابن ماهان وقال له : « هذا غلام أضن به ، واحب أن يكون فى رجال الشاكرية فى قصر الخليفة ، فرجائى منك أن تدخله فى جملتهم »

فتقدم الغلام واكب على يد ابن ماهان فقبلها ووقف متأدبا ، فقال له : « ادخل الآن الى دار الغلمان وفى الغد تكون فى جملة الشاكرية » . والتفت الى الهرش وقال : « كن مطمئنا فسيكون على ما تحب » . فأثنى وخرج

أما ابن الفضل فكان اكثرهم اعجابا وارتياحا ، وتوسم فى الرجل نفعا فرافقه حتى خرجا من الباب ولم يبق معهما غير الهرش فأسر اليه بانه يود أن يكلفه امرا لا شأن للخلافة فيه ، والح عليه ان يجيئه فى فرصة اخرى

فأشار مطيعا وخرج مع الهرش ، ثم ودعه وركب بغلته وسار ولم يبق من الليل الا القليل

خلافة الأمين

كان أهل بغداد غافلين عما جرى،فأصبحوا في اليوم التالى واذا بالمنادين يطوفون بالأسواق ينعون الرشيد ويترحمون عليه ويعلنون خلافة الأمين · واهتم الهاشميون ورجال الدولة بأخذ البيعة على عادتهم

وبكر سعدون في الصباح التالى (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ) الى دار الشرطة ، فرحب به ابن ماهان وأركبه فى حاشيته ليشهد الاحتفال بالبيعة · حتي اذا وصلوا الى قصر الخلد ترجلوا ودخلوا فى جملة الداخلين بين تزاحم الأجناد والأعيان · ولما أتوا دار العامة أذن لهم وسعدون فدخلوا وسلمان بجانب ابن ماهان

وحضر البيعة شيوخ بنى هاشم الذين كانوا في بغداد ، والقواد وأكابر رجال الدولة ، حتي غصت بهم الدار · وجلس الأمين على سرير الخلافة وكان قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره وتخشن عضله واسترسلت لحيته واستطال عارضاه وبانت رجولته · وكان طويل القامة قوى العضل يلقى الأسد فلا يبالى،وكان مع ذلك جميل الصورة أبيض اللون صغير العينين أقنى الأنف سبط الشعر ، وفى وجهه أثر الجدرى · وكانوا قد ألبسوه حلة الخلافة فجعلوا العمامة المرصعة على رأسه والبردة على كتفه ، وقد جاءه بها رجاء الخادم من عند أخيه صالح من طوس · وجاءه أيضا بقضيب الخلافة والخاتم فتختم بالخاتم ، وحمل القضيب بيده فازداد جلالا وجمالا والناس جلوس بين يديه : بنو هاشم على الكراسي ، وسائر الناس على الوسائد أو على البساط وبعضهم وقوف · والكل منصتون مطرقون حزنا على الرشيد واجلالا للأمين

وكان أول من تقدم للأمين سلام صاحب البريد ، فانه أقبل فعزاه في أبيه وهنأه بالخلافة ، ثم تقدم بنو هاشم فعزوه وبايعوه ، ووكل سليمان ابن المنصور شيخ بني هاشم بأخذ البيعة من القواد وكبار رجال الدولة وفى جملتهم ابن ماهان و بن الفضل

وكان الملفان واقفا في الجمع لم ينتبه له أحد ، فلما فرغ الناس من المبايعة وقف الأمين فيهم خطيبا فأصغوا وتطاولوا بأعناقهم ، فحمد الله ثم قال : « يا أيها الناس ، ويا بني العباس ، ان المنون بمرصد لذوى الأنفاس·حتم من الله لا يدفع حلوله ، ولا ينكر نزوله · فارتجعوا قلوبكم من الحزن على

الماضي ، الى السرور بالباقي ، تحوزوا ثواب الصابرين ، وتعطوا أجر الشاكرين »

ولم يكن الناس يتوقعون هذه الجرأة منه فاستغربوا ذلك، ثم أمر أن يفرق في الجند رزق أربعة وعشرين شهرا ، وكانت قد جرت العادة اذا تولى الخليفة أن ينعم على الجند بأرزاقهم ليكتسب ثقتهم.

ولما فرغ من مبايعة الناس تقدم الحسن بن هانىء (أبو نواس) شاعره فهنأه بالخلافة وعزاه فى أبيه فقال :

جرت جوار بالسعد والنحس — فنحن فى وحشة وفى أنس
العين تبكي والسن ضاحكة — فنحن فى مأتم وفى عرس
يضحكها القائم الأمين ويبـ — ـكيها وفاة الرشيد بالأمس
بدران بدر أضحى ببغداد فى الـ — ـخلد وبدر بطوس فى الرمس

وكان ابن الفضل أثناء ذلك لا يشغله شاغل عن الأمر الذى يريد أن يسره الى الملفان سعدون ، فما كاد يفرغ من مشاهدة المبايعة حتى تلفت فرأى الملفان يتأهب للخروج فاعترضه وسأله القدوم معه ، فاعتذر اليه ووعده بأن يعود اليه فى المساء . وكان عازما على البحث عن مولاه بهزاد ليرى ما يكون

فقال له ابن الفضل : « عد الينا هذا المساء الى منزلنا بالرصافة ».فودعه ومضى يلتمس القصر المأمونى

□

كان أهل القصر قد علموا بموت الرشيد ، فشق نعيه عليهم ولاسيما زينت بنت المأمون ، فلما سمعت الخبر بكت كثيرا . وتوقعت دنانير الانقلاب الذى يخشى حدوثه بعد موت الرشيد لاطلاعها على كثير من دسائس أهل البلاط وان كانت لم تعرف بعد ما عرفه بهزاد من نكث بيعة المأمون . وأصبحت تنتظر خبرا من مولاها لأنه ان كان سيتولى خراسان تنفيذا للعهد فقد يبعث الى ابنته وسائر أهله بالشخوص اليه . وشعرت وهي فى اضطرابها بحاجتها الى الطبيب بهزاد تستشيره أو يساعدها فى التخفيف عن زينب ، فانها على صغر سنها اشتد حزنها على موت جدها وانقبض صدرها ولم تعد تفرح لشيء بعد أن كانت تضحك لأى شيء، فلازمت عرفنها ودنانير لا تفارقها . وأمسكت زينب عن الطعام حتى أثر الحزن فى صحتها وأصابها دوار وامتقع لونها وعجزت دنانير عن تعزيتها . ولما شغل بالها على صحتها استأذنتها فى استشارة بعض أطباء القصر فأبت ، ولما ألحت عليها قالت : «وأين طبيبنا الخراساني ؟» . فمكثت تنتظر مجيئه بفارغ الصبر

« فلما فرغ الناس من المبايعة ، وقف الأمين فيهم خطيباً .. »

أما عبادة أم جعفر فساءها موت الرشيد لأنه بمنزلة ولدها ، فضلا عن ذهاب آمالها فى وساطة زينب لديه فى شأنها . ولكنها فكرت من الجهة الأخرى فيما عساه أن يكون من الانقلاب فى أمر الخلافة مما قد يعود عليها بالخير ، على انها كانت ضعيفة الأمل لعلمها بما يسعى فيه أعداء المأمون وهم أعداء الفرس وأعداؤها طبعا . ورأت حتما عليها أن تساعد دنانير فى التخفيف عن زينب فاذا خلت بها تباحثتا فيما سيكون

وأما ميمونة فقد شغلت عن ذلك كله بما هاج فى قلبها من الشوق الى حبيبها . والحب يشغل صاحبه عما حوله من الشؤون ، فاذا غاب حبيبه طارت نفسه شعاعا وأصبح همه فى أن يعود اليه ، لا شىء ينسيه شوقه أو يعزيه على وجده . واذا اشتغل بشىء فالى أجل ، واذا اجتمع بالحبيب قام بينه وبين الحوادث سد منيع فيصبح أصم الا عن سماع حديثه ، وأبكم الا فى جوابه ، وأعمى الا عن رؤيته . وقد يسمع أو يرى ولكن كالسامع من وراء جدار أو الناظر فى ديجور الظلام ، واذا وقعت حوله الطوارىء فانما يهمه منها ما يقربه من الحبيب أو يبعده عنه . فلم يكن موت الرشيد ليهم ميمونة الا من هذا القبيل ولأنها كانت لا تزال فى ريب مما فى نفس بهزاد بعد أن ودعها بالأمس وخرج مسرعا على تلك الصورة ومضى معظم ذلك النهار ولم يرجع ولا جاء خادمه

قضت النهار كله فى قلق لا تبالى انهماك أهل القصر فى الحزن ، ولا ما أقام بغداد وأقعدها احتفالا بالبيعة ، على انها كانت تلهو بالجلوس الى زينب وتخفف عنها بما يحضرها من عبارات التعزية وعيناها الى باب الدار تترقبان بشرى بقدوم بهزاد ، وأذناها مصغيتان لعلها تسمع وقع قدميه . ثم سمعت دنانير تكلم جدتها عنه وتستبطئه وتتمنى قدومه ، فخفق قلبها ولكنها ظلت ساكتة

ومالت الشمس عن خط الهاجرة وهى لم تذق طعاما وأهل القصر فى شاغل عنها بشؤونهم وأحزانهم . وفيما هى فى ذلك رأت غلاما قادما وفى وجهه خبر فتحفزت لملاقاته ثم أمسكت نفسها حياء لئلا يكون الغلام قادما الى دنانير ، فتظاهرت بأنها نهضت لبعض شؤنها وتمشت على مهل حتى صارت بالباب فرأت الغلام وقف وحيى دنانير وقال لها : « ان سلمان غلام الطبيب بالباب »

فخفق قلب ميمونة وكادت الدهشة تظهر فى محياها لسماع اسمه . أما دنانير فقالت للغلام : « يدخل سلمان . وعساه أن يكون مبشرا بقدوم مولاه . فاننا فى حاجة اليه اليوم »

وبعد هنيهة أقبل سلمان بلباسه العادى يمشى متثاقلا متظاهرا بالحزن والانقباض ، وميمونة تراعى حركاته . فلما أطل على القاعة حيى ووقف حتى

يؤذن له • فابتدرته دنانير قائلة : « ما وراءك ياسلمان؟ • أرأيت ما أصابنا؟ » • وخنقتها العبرات

فاطرق ودخل حتى دنا من مجلس زينب وانحنى كأنه يريد تقبيل يدها وأجهش بالبكاء ، ثم التفت الى دنانير مظهرا الكآبة وقال : « ان المصاب جلل يا مولاتي • ان وفاة أمير المؤمنين ضربة كبيرة • أطال الله بقاء مولاى المأمون وأنجاله وجعله خير خلف لخير سلف » • وغص بريقه وتراجع حتى وقف في بعض جوانب الغرفة

فأشارت اليه دنانير أن يقعد وقالت له : « أرأيت طبيبنا اليوم ؟ »

قال : « كلا يا سيدتي لم أره منذ افترقنا بالأمس ، وكنت أحسبه رجع الى هنا »

قالت : « لم يجيء يا سلمان • وكنا نتوقع مجيئه ، وقد مرضت مولاتنا ولا ترضى طبيبا سواه » • قالت ذلك وفي كلامها غنة العتاب

فقال سلمان : « عذر الغائب معه حتى يحضر ، وأعتقد أنه لا يلبث أن يأتي ولا يغيب الى الغد •• أو •• »

فقطعت عبادة كلامه قائلة : « ألا تعلم أين ذهب ؟ • »

قال : « كلا ، وهل يعلم أحد بذهابه أو مجيئه ؟ »

فقالت دنانير : « لقد عودنا التخلف عنا يوما أو بضعة أيام ثم يعود الينا على غير موعد ولكن »

فقالت عبادة : « أتراه ذهب الى بيته في المدائن ؟ »

فرفع حاجبيه وكتفيه وشخص بعينه كأنه يتنصل من تبعة علمه بمكانه

وكانت ميمونة تسمع ما يدور من الحديث والحياء يمنعها من الدخول فيه ، ثم غلب عليها حب الاطلاع فقالت وهي تتظاهر بالسذاجة وقلة الاكتراث : « أظنه الآن في بيته بالمدائن وقد أغلق بابه ليشتغل بالكيمياء أو اخراج الكنوز كما يقولون » • ومع ما حاولته من التجلد ما لبثت أن توردت وجنتاها ، ولما وقع نظرها على دنانير رأتها تتفرس في وجهها وتبتسم ، فازدادت خجلا وأطرقت وتحولت الى وسادة في بعض جوانب الغرفة فقعدت عليها وتشاغلت باصلاح خمارها

فتجاهل سلمان ذلك كله وقال وهو يوجه كلامه الى عبادة : « ان الناس يتهمون مولاى بأمور كثيرة هو بريء منها ، وما انزواؤه في بيته أحيانا الا للمطالعة في بعض كتب الطب أو الفلسفة • ولو وثقت بأنه هناك الآن لذهبت اليه واستقدمته • على أني ما أظنه يبطيء كثيرا • فاذا لم يأت هذه الليلة أو في صباح الغد عمدنا الى البحث عنه في المدائن أو غيرها »

وكانت دنانير تبالغ في اظهار القلق لغياب بهزاد ارضاء لزينب ومراعاة

لاحساس ميمونة ، لعلمها أن الحياء يمنعها من اظهار قلقها فنابت عنها وتكلمت بلسانها ، فلما سمعت قول سلمان قالت « لابد من البحث عنه الليلة »

فتراجع وأطرق وقال : « ان أمرك مطاع يا سيدتى ، وسأفعل ما تشائين وربما آتيكم به الليلة أو صباح الغد »

فأثنت دنانير عليه وسكتت وهى تنظر الى ميمونة فرأتها ترنو اليها ودلائل الشكر بادية فى محياها ، فابتسمت وحولت وجهها الى عبادة وقالت: « ألا ترين ذلك ؟ »

فأجابت على الفور : « بلى ٠٠ واذا كان هناك ما يمنع سلمان من البحث فأنا أذهب للتفتيش عليه فى المدائن.فاننا نعرف منزله حق المعرفة ومسيرنا الى هناك سهل ٠ واذا رأيت أن يبحث سلمان فى مكان آخر ونحن نذهب للبحث عنه فى المدائن فعلنا »

فلما سمعت ميمونة اقتراح جدتها أشرق وجهها ارتياحا لهذا الرأى ، لأنه عبر عن احساسها ، كأنها نابت عنها فى قول ما لا تستطيع هى التصريح به

أما سلمان فانما وعد بالبحث عن بهزاد حياء من دنانير ، لأنه كان يرغب فى الرجوع الى ابن الفضل قياما بوعده ليغتنم فرصة ذلك الانقلاب عسى أن ينفعه فيما هو فيه ٠ على أنه كان لا يرى موجبا للقلق لغياب مولاه لعلمه بكثرة شواغله ٠ فاستأنف الكلام وقال : «ها أنذا ذاهب للبحث عن الطبيب بالاتكال على الله » ٠ وخرج

ميمونة وابن الفضل

خرج سلمان من القصر المأموني بعد ان بدل ثيابه ، وركب بغلته وسار الى قصر الفضل بن الربيع . والقصر يومئذ فى الرصافة بالجانب الشرقى من بغداد يشرف على سوق الميدان وكان فى الأصل اقطاعا اقطعه الرشيد لعباد ابن الخصيب فصار كله للفضل بن الربيع يقيم به مع أهله ، وهو على مسافة بعيدة من القصر المأموني وان كان كلاهما على الجانب الشرقى من بغداد . فقطع سلمان المخرم حتى دخل طريق الميدان ، وهو يبتدىء من سوق الثلاثاء وينتهى بالشماسية ويعرف هناك بطريق الخضير . وكانت تحمل اليه المصنوعات الصينية وغيرها من الأوانى الثمينة وتباع فيه

فلما وصل الى باب القصر عند الغروب ، وجد ابن الفضل فى انتظاره وقد أوصى الحرس بأن يدخلوه اليه فلم يمهله الحارس حتى يترجل بل سارع اليه فابتدره قائلا : « الملفان سعدون ؟ » . فقال : « نعم »

قال : « ان مولانا فى انتظارك . . . اتبعنى »

فترجل سلمان ومشي فى طريق الحديقة يضرب الارض بعكازه ويتباطأ فى مشيته مطرقا متمتما كأنه يتلو آية او يقرأ تعويذة ، واسرع حارس آخر فسبقهما وأنبأ ابن الفضل بقدومه . فقطعا البستان حتى وصلا الى باب القصر الداخلى فاذا بابن الفضل قد خرج لملاقاته والترحيب به ، وصافحه ومشى بجانبه حتى اتصلا من الدهليز الى قاعة استطرقا منها الى غرفة لا يدخلها غير ابن الفضل وبعض خاصته ، وفيها سرير بجانبه كرسيان ، وفى ارضها بساط ثمين ، وفى احدى زواياها منارة عليها عدة شموع أناروها فجلس ابن الفضل على السرير ودعا سلمان الى الجلوس على كرسى بجانبه قائلا : « مرحبا بالملفان سعدون »

فجلس سلمان وما زال يتمتم وقد ألصق ذراعه بجنبه كأنه يتأبط شيئا يحرص عليه . فلما استقر به الجلوس اخرج من تحت ابطه منديلا من الحرير فيه كتاب هو درج من الرق قديم العهد تخرق من بعض جوانبه وتمهل فى حل الصرة واخرج الدرج مبالغة فى الحرص عليه ووضعه فى حجره فبانت من خلال الخروق كتابة بحرف لا يقرؤه الانس ولا الجان . ثم رفع رأسه كأنه فرغ من القراءة او التعزيم ، ومسح وجهه من جبهته الى لحيته ، والتفت

الى ابن الفضل واخذ يثنى عليه لحسن وفادته فأجابه : « لقد اتيت اهلا ونزلت سهلا » . وبش له يستأنس به استعدادا لما ينوى كشفه له من اسرار

فابتسم الملفان وقال : « لقد بالغت فى اكرامى ايها الوزير »

فغلب على وهمه أن الملفان انما يدعوه وزيرا لما تبين له من علم الغيب فى مستقبله . لكنه تجاهل واحب أن يحقق ظنه فقال : « انك تدعونى وزيرا والوزير ابى »

فقال : « ان ابن الوزير وزير يا سيدى . مر بما تشاء »

قال : « دعوتنى وزيرا وانا أدعوك رئيس المنجمين فى دار امير المؤمنين . فأدرك سلمان انه يعده بهذا المنصب وهو يستطيعه لعظم نفوذ ابيه ورضى الأمين عنهما . فأحب أن يثبته فى وعده فقال : « بورك فى ابن الفضل فانه يقول ويفعل وانا سامع مطيع »

فاطرق ابن الفضل واعمل فكرته ثم قال : « دعوتك لأسر اليك امرا انا شديد الحرص على كتمانه وطيد الأمل فى الحصول عليه »

قال : « اما ما يشير اليه مولاى فهو سر عن كل الناس الا على ، فالملفان سعدون لا يقال له ذلك »

فاستغرب ابن الفضـــل دعواه واحب أن يمتحنه فقال : « وهل تعلم سرى ؟ »

وكان سلمان قد سمع بعض خدم القصر المأمونى يذكرون حب ابن الفضل لميمونة . كما سمعه من عبادة عندما كانت تقصه على دنانير . وكان الخدم يومئذ من اكثر الناس اطلاعا على أسرار مواليهم لأنهم كانوا لا يحذرون التكلم امامهم استخفافا بهم . فقال : « أظننى اعرف سرك الا اذا كنت تعنى غير حبك لتلك الفتاة التى تظن نفسها مجهولة النسب »

فدهش ابن الفضل عندما فاجأه بهذا التصريح وبانت الدهشة فى وجهه ، وسهل عليه ان يكاشفه بما يكنه ضميره فقال : « أما وقد علمت سرى فلا اخفى عليك انى أحب تلك الفتاة حبا مبرحا . احبها من كل قلبى ، واتعشقها بكل جوارحى ! » . قال ذلك ودلائل الحب ظاهرة فى وجهه ، فابرقت عيناه واحمر وجهه

فضحك وهز راسه وقال : « ان الحب سلطان . اأنت تحبها ؟ »

فقال : « نعم احبها فهل تحبنى هى ؟ »

قال : « لا ادرى لو كانت معنا الآن لعرفت مكنونات قلبها ، غير ان ذلك يحتاج الى مندل »

قال : « هب انها لا تحبنى . بل يظهر لى انها لا تحبنى الآن فما الحيلة ؟ . انى انما دعوتك لأستعين بك على ذلك . فما قولك ؟ »

فتناول سلمان الدرج من حجره وفتحه واخذ يقلبه بين يديه ويتظاهر بانه يقرا شيئا منه ويعيد القراءة ويطرق ثم يرفع بصره الى السقف ويعيده الى الكتاب ثم ينظر الى وجه ابن الفضل ويتفرس فيه . واخيرا أطرق ويده على لحيتــه كانه يفكر ويأسف ثم قال : « ان حبيبتك انتقلت من مكانها »

فاجفل ابن الفضل وقال : « اين كانت واين صارت ؟

قال : « الم تكن فى المدائن ؟ » . قال : « بلى »

قال : « ليست هناك الآن » . قال « واين هى ؟ . اين ذهبت ؟ »

فقال : « انى اعلم انها خرجت من المدائن ، ولا ادرى اين تقيم الآن . ان ذلك يحتاج الى بحث »

قال : « لعلها فى الطريق الآن ؟ » . قال ذلك لاعتقاده انها لو كانت فى مكان معين لما خفى ذلك على علم اللفان سعدون

فقال سلمان : « ربما كانت فى الطريق ، ولكن هذا ليس بامر ذى بال . هب انها فى السماء او فى الارض او ما بينهما فهى لا تنجو من يدى »

فابرقت اسرة الفضل واطمأن خاطره وقال : « جزاك الله خيرا . افعل ما بدا لك ولا تبخل بالانفاق على اتمام هذا العمل فانى ابذل ما املــكه فى سبيل الحصول عليها ، انما اريد ان آخذها بشرع الله .. لأنى احبها حبا صادقا ولا ادرى ما الذى يحملها على مجافاتى »

فابتسم سلمان وقال مستخفا : « اظنك تدرى السبب . ان عداوة الآباء تتصل بالبنين »

فازداد ابن الفضل استغرابا لكشف هذا السر وقال : « صدقت .. ذلك هو السبب ولكنها لو علمت خطر حبى لها وانى سانسيها ما فعله ابى بأبيها لرضيت »

قال : « علمت ذلك ولم ترض ، ولكن هذا لا يهمنا فانها سترضى . ان هذا القلم يجعل الصخر ماء والماء صخرا افلا يلين قلب فتاة ؟ » . واشار الى دواة مغروسة فى منطقته

قال : « افعل ما تراه ولا تسل عما تبذله فى هذا السبيل »

فنظر اليه شزرا وقال : « الم تكن حاضرا بالأمس عند صاحب الشرطة ؟ . انكم لا تزالون تهينون الأصدقاء . ولكنكم تعودتم عشرة المتملقين والمتزلفين فلا لوم عليكم ! »

فابتدره ابن الفضل معتذرا وقال : « عفوا يا سيدى فانى اقبل منك هذا الجميل ، وارجو ان تقبل وساطتى مع صاحب الشرطة فى ان تكون رئيس المنجمين عند امير المؤمنين . واننا اذ نفعل ذلك فانما نؤدى خدمة

عظمى للخليفة لأن وجود مثلك فى بلاطه نعمة من نعم الله . فماذا أنت فاعل الآن ؟ »

قال : « دعنى ابحث عن مقرها ، وسأكتب لك كتابا اذا استطعت توصيله على ما سأصف لك اتتك مذعنة مطيعة » »

فلم يتمالك ابن الفضل عن النهوض بغتة وقال : « أصحيح ما تقول ؟ انى لا اعرف كيف اشكرك . ومتى تكتب هذا الكتاب ؟ »

قال أكتبه متى انتهيت من بحثى . لا تضجر . ولا تستعجل »

قال : « افعل ما يتراءى لك الا أمرا واحدا أرجو منك ان تطيعنى فيه »

قال : « وما هو ؟ » . قال : « أن تبيت عندى الليلة وتصحبنى غدا الى دار الخلافة فأقدمك الى امير المؤمنين ليجعلك رئيس المنجمين »

قال : « الأمر لك ولكننى لا ابيت عندك وانما آتيك غدا اذا شئت »

قال : « بل تبيت عندى فان القصر واسع تختار منه مخدعا لا يزعجك فيه احد ، وقد أرسلت الى صاحب الشرطة ان يوافينا غدا الى قصر الخلافة فى مدينة المنصور . لأن دار الخلافة انتقلت بعد مبايعة الأمين من قصر الخلد الذى نعرفه خارج باب خراسان الى داخل المدينة » . قال ذلك وصفق فدخل غلامه فقال له : « اعد لنا المائدة للعشاء ، وقل لقيم الدار أن يعد لنا مخدعا ليبيت فيه الملفان » . قال ذلك مصمما . فلما رأى تصميمه خاف ان يخالفه فيفسد عليه تدبيره فأطاع وبعد هنيهة نهض للعشاء ، ثم بات ليلته هناك

موكب ابن الفضل

فى صباح اليوم التالى ركب ابن الفضل فى موكبه وعليه الجبة السوداء التى يقابل بها الخلفاء العباسيين ، وامتطى سلمان بغلته وهو فى قيافته المعهودة ، وخرجا من الرصافة غربا نحو الجسر حتى اذا قطعاه جاءا الطريق المؤدى الى قصر الخلد فتجاوزاه الى قصر المنصور المعروف بباب الذهب حيث اقام الأمين بعد البيعة

وكانت مدينة المنصور مستديرة الشكل حولها سور ضخم طوله عشرون الف ذراع وعرض اساسه تسعون ذراعا ، ثم ينحط حتى يصير فى اعلاه خمسا وعشرين ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا . وهو السورالاعظم، ويحيط به من الخارج فراغ عرضه مثل عرضه ، وحول الفراغ المذكور سور آخر يقال له الفصيل له أبراج عظام وعليه الشرفات المدورة . وخارج الفصيل وحوله كما يدور مسناة بالآجر والصاروج متقنة محكمة . وخارج المسناة وحولها خندق أجرى فيه الماء ، ووراء الخندق طرق للمارة والباعة ووراءها الأرباض

وفى داخل السور الأعظم سور آخر أصغر منه ، وبين السورين فراغ فيه ابنية لأهل الأسواق ينتهى الى كل من السورين بطريق مرصف بالحجارة . فسور المدينة ثلاثة اسوار اعظمها اوسطها

وللسور ابواب سميت باسم المدن التى تتجه نحوها وهى : باب خراسان ؛ وباب الشام ، وباب الكوفة ، وباب البصرة . وكل منها مؤلف من عدة أبواب عليها الأبراج ولها الشرفات والكوى . ولكل باب اربعة دهاليز عظام طول كل دهليز ثمانون ذراعا كلهـا معقودة بالآجر والجص . فاذا دخل أحـد فى الدهليز الذى على الفصيل او السور الخارجى وافى رحبة مفروشة بالصخر ، ثم دهليز السور الاعظم وعليه بابان عظيمان من الحديد لا يغلق الواحد منهما الا جماعة من الرجال ، وهما عظيما الارتفاع يدخل الفارس فيهما بالعلم ، والرامح بالرمح الطويل من غير ان يميل العلم أو يثنى الرمح ، فاذا مرالراكب من دهليز السور الأعظم سار فى رحبة الى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كوى رومية مصنوعة صنعا خاصا بحيث تدخل منها أشعة الشمس او الضوء ولا يدخل منها المطر ، وفيها منازل الغلمان

وفوق كل باب من ابواب السور الأعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة حولها

مجالس ومرتفعات يجلس فيها المرء فيشرف على مادونه . ويصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن ، وقد جعل بعضها اعلى من بعض ، بشكل عجيب رهيب

فاطل ابن الفضل بموكبه على باب خراسان ، وبجانبه الملفان سعدون على بغلته ، فلما رآهما الحرس وسعوا اجلالا لابن الوزير ، فتقدما وهما راكبان والخدم فى ركابهما ، فدخلا من الدهليز الى الفصيل او السور الخارجي . ثم سمعوا قرقعة حوافر الجياد على الرحبة المفروشة بالصخر المؤدية الى دهليز السور الأعظم . وكان البوابون لما علموا بقدوم ابن الفضل قد تعاونوا على فتح احد البابين العظيمين فسمع لفتحه صرير هائل لثقل حديده وعلوه ، فدخلا بموكبهما فيه ، حيث بدت العتبة العليا اعلى كثيرا من رؤوس الراكبين . وكان سعدون أثناء ذلك ينظر الى ما وراء تلك الرحبة من الطاقات المعقودة والى شكل كواها الرومية وقد اطل منهـا الغلمان لمشاهدة الموكب . فلما خرجوا من الباب المذكور الى الرحبة التى بينه وبين الطاقات ، حول سعدون بصره الى القبة العظمى المعقودة فوق الباب وما يغشاها من الزينة المذهبة ويتعلق بها من المجالس والمرتفعات المشرفة على كل ما حولها ، واخذ يتأمل فيما عليها من المصاعد المبنية بالجص بعضها فوق بعض ، وقد امتلأت نفسه اعجابا وعجبا من عظمتها ورهبتها

تجاوز موكب ابن الفضل تلك الطاقات ودخل الى باب آخر غير ابواب السور المذكور ورقوا منه الى الرحبة الكبرى فى منتصف المدينة ، وكان قصر المنصور فى وسط الرحبة ، يسمونه قصر الذهب نسبة الى بابه المذهب ، وبجانب القصر المسجد الجامع المعروف بجامع المنصور . ومشى الموكب فى الرحبة مسافة كبيرة فى خلاء لا بناء فيه حتى اقبل على القصر والجامع وسط الرحبة ، وحولهما فناء ليس به من الابنية غير دار من جهة الشارع المؤدى الى باب الشـام يقيم بهـا الحراس ، وسـقيفتين ممتـدتين على عمد مبنية بالآجر والجص ، يجلس فى احداهما صاحب الشرطة وفى الأخرى صاحب الحرس . وكانت حول الرحبة منازل بناها لأبناء العم الأصاغر ولمن يقربهم من خدمه وعبيده . وأبنية لبيت المال ، وخزانة السلاح ، وديوان الرسائل ، وديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الجند ، وغيرها . وبين الطاقات مسالك ودروب اعدها المنصور لقواده ومواليه

وكان ابن الفضل كلما أقبل على باب وقف له حراسه ، فلما دخل الرحبة الكبرى لفت انتباهه الصهيـل والحمحمة والنهيق وغير ذلك من اصوات الدواب ، لأن الرحبة كانت غاصة بالخيل والبغال والحمير فضلا عما ادخل منها الى الاصطبلات ، ومعها العبيد والخدم فى انتظار من جاءوا عليها من الأمراء والقواد لتهنئة الأمين بالخلافة ، أو جاءوا لغرض آخر

وكان سعدون (او سلمان) ينظر الى ذلك ويراقبه ولا يبتعد ببغلته ابن الفضل ، حتى اذا دنوا من القصر تحول ابن الفضل نحو السقيفة ، يقيم بها صاحب الشرطة لمقابلة ابن ماهان قبل الدخول على الخليفة . فأرسل بعض من فى ركابه من الخدم ليتقدمه بالسؤال عنه فى السقيفة فعاد يقول انه فى حضرة امير المؤمنين بعث اليه من بضع دقائق

فلم يتعجب ابن الفضل لذلك ولكنه كان يرجو ان يراه قبل دخوله على الأمين ليتفق معه على تقديم الملفان سعدون اليه . ولكنه لم ير بدا من النزول عن جواده ، فنزل ونزل سعدون عن بغلته ، ومشيا الى باب القصر فوقف لهما الحراس وهم ينظرون الى الملفان ويستغربون شكله وقيافته ومشيه بعكازه والدواة فى منطقته ، وما زال يمشى بجانب ابن الفضل حتى بلغا باب القصر الداخلى ، مارين فى الباحة بجماعات من القادمين على الخليفة فيهم الأمراء والقواد والشعراء وغيرهم من الوفود

وكان الأمين كريما جوادا ، يغدق على الجند رغبة فى استنصارهم لما يعلمه من حرج مركزه ، ولذلك أعطاهم رزق ٢٤ شهرا يوم مبايعته ففرحوا وفرح معهم أهل بغداد كافة لأن هذه الأموال تنفق فى المدينة فيدفع الجند منها ما عليهم ويبتاعون ما يحتاجون اليه من الآنية أو الطعام او اللباس . فلا غرو اذا سر البغداديون بتبديل الخلفاء بعد أن جرت العادة بأن يأمروا بمثل هذا العطاء عند مبايعتهم

وعرف ابن الفضل كثيرون من الواقفين هناك فخف بعضهم لتحيته ، وتزلف اليه آخرون لأنه ابن الوزير ، والوزير يومئذ صاحب الحل والعقد . فسأل بعضهم عن سبب وقوفهم هناك فقالوا : « ان الخليفة فى شاغل مع صاحب الشرطة بعد أن جاءه هذا الرسول » . واشار الى رجل واقف فى بعض جوانب الباحة . فعرف ابن الفضل انه من موالى ابيه ، وكان الرجل قد رأى ابن الفضل مارا فلم يجرؤ على مبادأته بالحديث فلما رآه ينظر اليه ويبتسم هرول نحوه وقبل يده فقال له : « ما وراءك . . ؟ وما الذى جاء بك ؟ »

قال : « ارسلنى مولاى الوزير برسالة الى امير المؤمنين »

قال : « وأين ابى الآن ؟ »

قال : « قريب من بغداد وقد أرسلنى لأبشر بقدومه »

قال : « وهل جئت بكتاب منه ؟ »

قال : « جئت بكتاب دفعته الى أمير المؤمنين ، ولعله السبب فى تأخير الاذن للناس كما ترى ، وانما دخل عليه صاحب الشرطة »

فاشتد ميل ابن الفضل للدخول على الأمين وان لم يؤذن لسواه فيفاخر

اهل البلاط بدالته على صاحب الخلافة ، فظل ماشيا وابن سعدون بجانبه حتى اقبل على باب القصر والحرس الشاكرية وقوف بالأسلحة ، فتأدبوا عند مشاهدته ، ثم خرج الحاجب لملاقاته وتلطف فى الترحيب به وفى غنة صوته وملامح وجهه شبه اعتذار عن عدم ادخاله . فادرك ابن الفضل غرضه فابتدره قائلا : « استأذن أمير المؤمنين فى دخولى ودخول رفيقى هذا » . واشار الى سعدون

فتردد الحاجب حينا ولم يجسر على التصريح بأن أمير المؤمنين لا يأذن لأحد ، ثم غلب عليه الخوف فدخل على الأمين وظل ابن الفضل فى انتظاره والناس ينظرون اليه ويتوقعون أن يرد طلبه فيفشل ما أراده من التقدم عليهم جميعا . اما هو فكان يتوقع الاذن له ، رعاية لمنزلة ابيه . وبعد هنيهة عاد الحاجب وهو يبتسم وقال : « ادخل اذا شئت »

فدخل الى مكان تخلع فيه الأحذية فخلع حذاءه ، وفعل سلمان مثل فعله ، وتقدم بعض الخدم فتناولوا الحذاءين ووضعوهما على اماكن معدة لذلك . ومشيا على الأبسطة المفروشة فى الدهليز ، وتطرقا من قاعة الى قاعة والحاجب يمشى بين يديهما حتى وصلا الى مجلس الأمين ، وكان على بابه ستر من الديباج المطرز فتقدم الحاجب وازاح الستر وصاح : « مولاى ابن الفضل ورفيقه بالباب »

الأمين والفضل بن الربيع

كان الأمين جالسا فى صدر القاعة على سرير من الآبنوس المنزل بالعاج بلا ترصيع ولا تذهيب ، لأنه السرير الذى كان يجلس عليه المنصور قبل أن يغرق العباسيون فى الحضارة والترف واستخدام الذهب والجوهر فى آنيتهم ومجالسهم . وكانت على ارض القاعة طنافس ثمينة قليلة الزينة عليها الوسائد والكراسي . وقد ارتدى الأمين مثل ملابسه يوم المبايعة لأنه ما زال يستقبل المهنئين والمبايعين . فدخل ابن الفضل ورفيقه فرايا بين يدي الأمين : ماهان صاحب الشرطة ، وقد قعد على وسادة قعود أهل الدولة بلا كبير تهيب ، لأن الأمين لم يكن فى مثل هيبة ابيه ، ولا سيما مع من تعود مجالستهم من خاصته فى مجالس الشراب او الطرب . ومع امثال ابن ماهان وغيره من ذوى شوراه الذين يحتاج الى رايهم او مساعدتهم

وكان الأمين شديد الثقة بابن ماهان والفضل بن الربيع ، يستشيرهما فى مهامه . فلما جاءه كتاب الفضل فى ذلك الصباح ينبئه بقدومه ومعه الأحمال ومن بقى من رجال الرشيد وانه لا يلبث أن يصل الى بغداد ليقص عليه تفصيل ما فعله . اهتم الأمين بذلك الكتاب وبعث الى ابن ماهان ليطلعه عليه ، وأمر بالا يدخلوا عليهما أحدا من الزوار . فجاء ابن ماهان فدفع اليه الأمين كتاب الفضل . ثم لم يكد يتم قراءته حتى جاء الحاجب يستأذن لابن الفضل ورفيقه ، فسأل الأمين عن ذلك الرفيق فقال الحاجب : « هو رجل من علماء حران كأنه حاخام أو ملفان »

فقال : « وما شأنه ؟ »

فعلم ابن ماهان انه الملفان سعدون فتبسم وقال : « اظنه الملفان سعدون الحرانى . ان لهذا الرجل شأنا عظيما وله قوة غريبة على استطلاع الغيب » فالتفت الأمين الى ابن ماهان وقال : « هل تعرفه ؟ »

قال : « اذا كان هو الملفان سعدون فقد عرفته لأنى اجتمعت به فى جلسة ورايت منه المعجزات »

فهز الأمين راسه وقال : « انى قليل الثقة بهؤلاء الدجالين »

قال : « ليس الرجل دجالا يا مولاى بل هو منجم »

قال : « المنجمون كثيرون عندنا وقلما يصدقون ! »

قال : « سترى فيه ما لم تعهـــــده فى سواه اذا اذنت فى دخوله ، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان »

فاشار الأمين الى الحاجب ان يدخلهما ففعل

ولما أقبل ابن الفضل على الأمين حياه بتحية الخلافة ووقف حتى اشار اليه بالجلوس ، ثم التفت الى الملفان فابتدره هذا بالسلام ايضا ، فقال له : « اجلس يا ملفان »

فجلس على البساط جاثيا وتأدب فى مجلسه مطرقا ساكتا فقال له الأمين : « اخبرنا صاحب شرطتنا انك من المنجمين »

فاجاب سلمان : « انى من عبيد امير المؤمنين »

قال : « وهل أنت صادق فى تنجيمك ؟ »

قال : « على ان اصدق فى ابلاغ امير المؤمنين ما أراه واقرؤه طبقا لقواعد العلم ، وله الرأى فى تصديقه أو تكذيبه ! »

فحول الأمين نظره الى صاحب الشرطة كأنه يستشيره فيما يمتحنه به ، فقال : « هذا كتاب الوزير يقول فيه انه سيقص على أمير المؤمنين ما فعله فى طوس ، فليمتحن الملفان به »

فاستحسن الأمين ذلك ، والتفت الى سعدون وقال : « جاءنا كتاب وزيرنا الساعة بانه قادم الينا ، فهل لك أن تخبرنا بما سيتلوه علينا ؟ »

فاحنى الملفان راسه احتراما ، ثم مد يده الى جيبه واخرج الدرج المعهود ، وحل المنديل واخذ يقلبه بين يديه ، ويتمتم مظهرا أنه يقرأ ويتفهم ويتفطن. ثم رفع بصره الى الامين وقال : « ان الوزير حفظه الله يحمل اليك خبرا مهما خاصا بالخلافة »

فضحك الأمين مستخفا وقال : « طبعا انه يعلم بمبايعتى وليس فى ذلك شىء من الغيب ! »

قال الملفان : « صدق امير المؤمنين ولكن الوزير سينقل اليك شيئا جديدا عن اخيك المأمون . ولعله اخرجه من البيعة ! »

فبغت الامين وقال : « هل اخرجه منها ؟ »

فهز الملفان كتفيه وقال : « يظهر لى مما اقرؤه فى هذه الاوراق انه فعل ذلك ، ولم يجد فى سبيله مشقة . فاذا كان فيه ما يســوء امير المؤمنين فلا ذنب لى »

فتظاهر الامين باستيائه لاخراج اخيــه من البيعة وقال : « هل فعلها الفضل ؟ ما اظنه فعلها ! فاحذر مما تقول واعلم انك تقول قولا تقطع فيه الرقاب »

فقال بجاش رابط : « قلت لمولاى انى لا اقول شيئا من عندى وانما انا

اقرؤه فيما بين يدى . واذا طويت الكتاب نسيت ما قلته »

فقال الأمين وهو يظهر الغضب : « انها وشاية تعاقب عليها ! »

قال وهو ساكن الجاش : « العفو يا مولاى ، لا ذنب لى فيما قلته فانى اقول ما اراه ، ولم يخدعنى هذا العلم من قبل »

فبالغ الأمين فى اظهار التهديد ، ثم قال : « يكفى هذا » . والتفت الى ابن الفضل وقال : « هل جاءك من ابيك شيء من هذا القبيل ؟ »

قال : « كلا يا مولاى انه لم يكتب الى بشيء » . ولم يجسر ان يخبره بما قصه عليهم الملفان بالأمس

ثم التفت الأمين الى ابن ماهان وقال : « الم اقل لكم ان هؤلاء المنجمين يتقربون الينا بكذبهم ؟ »

فابتسم ابن ماهان ابتسام المستعطف وهمس للأمين قائلا : « اننى اعرف صدق اخبار الملفان سعدون . واذا شاء مولاى أن يختبر صدقه فعل ، ان الوزير لايلبث ان يصل الى بغداد الليلة أو صباح غد ، وسيعلم مولاى ما فعله ، والرأى بعد ذلك لأمير المؤمنين ! »

وكان الملفان اثناء ذلك يتشاغل بتقليب الدرج بين يديه يتمتم كأنه لا يسمع ما يقولون حتى سمع الأمين ينادى : « يا غلام »

فدخل الحاجب وتادب فقال له : « قل لصاحب الانزال ان ياخذ هذا الملفان الى دار الأضياف . يقيم هناك فى كرامة ورعاية حتى اطلبه » . والتفت الى الملفان وقال : « تفضل أن شئت وكن مطمئنا حتى ندعوك »

فنهض سلمان واستعاذ بالله من الانتظار مخافة ان يبطيء على اهل القصر المامونى وهم فى قلق على تأخر الطبيب بهزاد ، لكنه لم ير بدا من الطاعة . فخرج وسار مكرما الى منزل بجانب مطبخ العامة ، جاءوه فيه بما يحتاج من الطعام والشراب

ومكث هناك كأنه على الجمر بقية يومه . وفى ضحى اليوم التالى جاءه رسول الخليفة يستقدمه الى المجلس الخاص ، فسار بعد ان اصلح هندامه واتقن تنكره وهو يتظاهر بالسذاجة وصفاء النية وخلوص السريرة ، فلما دخل على الخليفة وجد عنده ابن ماهان وابن الفضل ، فأمره الأمين بالجلوس وقال له : « ان وزيرنا الفضل آت عما قريب وسنسأله عن أمره بحضورك ثم نرى ما يكون »

فحنى راسه مطيعا ووقف ، فامر له الأمين بالجلوس فجلس

ثم جاء الحاجب يقول : « الوزير الفضل بالباب يا مولاى »

فأبرقت اسرة الأمين وصاح : « يدخل وزيرنا الفضل »

وما عتم ان عاد الحاجب ووسع الستر ، فدخل الفضل وآثار السفر بادية

فى وجهه ، فحيا بتحية الخلافة وقال : « يعذرنى امير المؤمنين ان ادخل عليه قبل اصلاح شأنى »

وكان الفضل يومئذ فى أواسط الكهولة وقد وخط الشيب لحيته وتغضن جبينه وظهر تغضنه مع ان اكثره مخبأ تحت القلنسوة ، وقد تردى بالقباء الأسود على عادة الداخلين على الخلفاء العباسيين

فهش له الأمين واجلسه على كرسى بجانبه ، فاخذ الفضل يعزيه فى الرشيد ، ثم هناه بالخلافة ودعا له بطول البقاء وسكت وهو يجيل نظره فى الجالسين كأنه يلتمس الخلوة ليقص على الأمين ما جاء به ، فابتدره الأمين قائلا : « اذا كنت قد جئتنا بخبر فاقصصه علينا »

فقال : « هل اقصه الآن ؟ » . قال : « نعم قل ما عندك ان هذا المنجم يزعم انه عرف ما فعلته ، وقد اردت أن امتحن معرفته ، فاذا كان مصيبا أنعمنا عليه والا كان عقابه شديدا »

فقال ابن ماهان : « هل يأذن امير المؤمنين فى كلمة » . قال : « قل »

قال : « اذا كان القتل جزاء هذا الملفان اذا ظهر كذبه ، فما جزاؤه اذا صدق ؟ هل يأمر مولاى حينئذ بان يجعله كبير المنجمين فى قصره لعله ينفعنا بعلمه »

قال : « سأفعل » . والتفت الى الفضل وقال : « قل ما الذى فعلته باخينا عبد الله المأمون والخلافة ؟ »

فاستغرب الفضل السؤال على هذه الصورة وقال : « فعلت ما اراه عائدا على الدولة بالخير . فليس يخفى على امير المؤمنين ان مولانا الرشيد كان عند سفره قد استمع لاغراء بعض ذوى الأغراض ، فبايع للمأمون وأوصى له بجميع ما فى عسكره ، مع ان البيعة سبقت لمولانا الأمين صاحب هذا العرش . فلما قبض الرشيد رأيت ان فى بقاء بيعة المأمون ما قد يؤدى الى انقسام الخلافة واستفحال الفتنة ، فاستشرت أصحابى واجمعنا على الرجوع الى الصواب ، فأبطلنا بيعة المأمون وجعلنا الخلافة مستقلة لمولانا امير المؤمنين »

قال : « والمأمون ماذا فعلتم به ؟ »

قال : « لم نفعل به شيئا فانه باق على خراسان كما كانت الوصية من قبل ، على أن يكون وليا للعهد »

فما اتم كلامه حتى بانت الدهشة فى وجه الأمين ، ونظر الى الملفـ سعدون ، فرآه مطرقا هادئا لا يخامره خوف ولا اضطراب فلم يتمالك الأمين ان صاح به : « ويلك من أين اتاك علم الغيب ؟ »

فرفع بصره الى الأمين وقال : « لا فضل لى يا مولاى ، ان هـذا العلم معروف عند المنجمين ولكن الذين يصدقون فى استخدامه قليلون »

فقال : « انما أعجبني صدقك من غير ادعاء ، قد جعلناك رئيس المنجمين »

فوقف سلمان وانحنى بين يدى الأمين ودعا له بطول البقاء ثم قال : « ان هذه نعمة لا استحقها ! »

قال : « بل انت اهل لذلك وهــذا جزاء الصــادقين » . وصفق فجاء الحاجب فقال له : « قل لقيم الدار ان يعد للملفان منزلا يقيم به ، وان يفرض له العطاء فقد صار رئيس المنجمين» . ثم اشار الى الملفان أن يجلس فانحنى ثانية وكرر الدعاء وجلس وهو يقول : « ان منازل امير المؤمنين واسـعة وحيثما اقمت فانما اكون فى حياطته غارقا فى نعمائه ، واذا سمح لى ان اقيم حيث شئت كان ذلك أدعى لمرضاته لأنى لا استغنى عن الانفراد فى منزلى احيانا لعمل المندل أو مطالعة كتب التنجيم ، على ان اكون بين يدى امير المؤمنين متى شاء . ولو جاز ان ترد هبته لتقدمت اليه ان يجعلنى خادما رقيقا بلا اجر ، فان من تعاطى هذه الصناعة على حقها وجب عليه انكار نفسه والبعد عن ملاذ الدنيا وعن التوسع فى اسباب العيش . ولكن نعم المؤمنين لا ترد »

فاستغرب الأمين هذا التعفف ولم يخطر له سماعه من مثل هذا الرجل وهو يعلم أن امثاله انما يتقربون الى دار الخليفة طمعا فى المال ، فالتفت الى ابن ماهان والاستغراب باد فى وجهه كأنه يستطلع رأيه فقال ابن ماهان : « أن الملفان سعدون هذا طبعه ، والأمر لأمير المؤمنين »

فقال : ولكنا قد نحتاج اليه فى ساعة لا نجده فيها »

فقال الملفان : « انى اقيم بدار امير المؤمنين على ان يؤذن لى فى الخروج الى منزلى متى رايت فى الخروج فائدة فلا يعترضنى احد ولا اظن الحاجة تمس الى دعوتى فلا يجدونى »

فقال الامين : « لك ذلك »

وكان الفضل أثناء الحديث ينظر الى الملفان سعدون ويتفرس فيه ، وقد دهش لما سمعه وكأنه ارتاب فى امره

اما الأمين فكان شديد الرغبة فى سماع تفصيل الخبر من الفضل ، فالقى قضيب الخلافة على السرير بجانبه وتزحزح من مكانه ، فادرك الحضور انه يريد أن ينصرفوا ، فوقفوا وخرجوا ، بينما اشار الأمين الى الفضل ان يبقى . اما سلمان فمشى حتى بلغ مكان بغلته فركبها ومضى الى القصر المامونى

إلى المدائن

تركنا القصر المأموني فيانتظار عودة سلمان بعد أن ذهب يبحث عن بهزاد. فلما انقضى النهار ولم يعد باتوا على احر من الجمر ، ثم اصبحوا في اليوم التالي وهم يتوقعون قدوم بهزاد أو قدوم سلمان بخبر عنه ، فمضى أكثر النهار ايضا ولم يعد احدهما فاخذ القلق منهم ماخذا عظيما . ومما زاد في قلقهم ان زينب بنت المامون اصيبت بحمى شديدة صباح هذا اليوم ، على اثر ما انتابها من الحزن . ولا تسل عن حال دنانير عند ذلك فقد اشتد بها القلق ورجت منها ان تقبل دعوة أحد أطبـاء القصر الكثيرين ، وفيهم المهرة من كل طبقة ، فلم ترض الا بهزاد ، فارسلوا الغلمان يستشرفونه من الطرق او على الشاطىء فطال انتظارهم . وكانت ميمونة أشد قلقا منهم جميعا ، وقد حرصت على الا تظهر ذلك حتى لا تكشف اسرار قلبها

على انها لما رات زينب مريضة هان عليها اظهار قلقها محتجة بالقلق على صحة بنت المأمون ، فاخذت تطل ساعة من الشرفات على الطرق واخرى من الأبواب الى دجلة ، لعلها تراه قادما على فرس أو في قارب . ولما اعياها البحث جلست في غرفة منامها وقد كل دماغها من الاهتمام وبان التعب في محياها فعلاه شحوب وتقطب ، فاستلقت على الفراش وهي تحسب لتاخر بهزاد ألف حساب ، وتراجع ما دار بينها وبينه في ساعة الفراق فلا تزداد الا رغبة في لقائه

وكانت الشمس قد مالت الي المغيب فاظلمت الدنيا في عينيها وفارقها صبرها ، فخرجت راجية ان تلقى من يخبرها بقدومه أو تسمع صوته في الدهليز . وانما توقعت ذلك لأن رغبة الانسان في الأمر تصور له سهولة الادراك ولو كان مستحيلا فكيف ومجيء بهزاد من اقرب الأمور لأنهم على موعد معه ؟

ومشت في الدهليز الى الباب المطل على دجلة ، وجعلت تتفرس في السفن الصاعدة والنازلة متمنية ان يكون بهزاد في واحدة منها . وتوهمت غير مرة انه هناك فلما تكررت خيبتها يئست من مجيئه . ثم جلست الى مقعد بجانب نافذة تطل على دجلة واخذت تفكر في أسباب تاخر بهزاد ، موزعة النفس بين التفاؤل والتطير . فصارت اذا رات طيرا يسبح في

الفضاء قالت في نفسها : « اذا حط هذا الطائر على هذه الشجرة كان بهزاد قادما الليلة. وكذلك اذا تحول الطائر يمينا فان‌هذا يكون فالا يبشر بقدومه ، فاذا تحول الى اليسار ، فهذا مما يدعو الي التشاؤم والتطير

وقضت في ذلك حينا ، فلما اظلمت الدنيا انتبهت ، وظنت انها تسمع خفق نعال على المسناة قرب الباب فخفق قلبها واطلت فلم تجد احدا ، فنهضت واسرعت الى غرفة زينب فرات جدتها بجانب سرير الفتاة ودنانير جالسة على السرير قربها ، وقد توردت وجنتا زينب من شدة الحمى وكلهم سكوت . فلما اطلت ميمونة ابتدرتها دنانير قائلة بصوت مختنق : « ارايت ما فعله الطبيب ؟ »

فقالت ميمونة : « انه ابطأ علينا ولا بد من شاغل شغله عنا »

فقالت عبادة : « واغرب من ذلك غياب سلمان بعد أن وعدنا بالبحث عنه . لا اخال بهزاد الا في المدائن الآن وكم انا نادمة على تقاعدي عن الذهاب للبحث عنه منذ الصباح »

فقالت دنانير : « اذا لم يأت غدا ارسلنا في طلبه من المدائن »

فقالت ميمونة : « غدا اذهب اليها مع جدتي وارجو أن نجده في منزله »

قالت دنانير : « ستتحملان المشقة في هذا الامر ، و . . »

فقطعت عبادة كلامها قائلة : « لا مشقة علينا في ذلك ، ولا نظن احدا يعرف مكانه مثلنا لأننا نعرف البلدة ونعرف بيته فيها فاذا لم يأت الليلة أو صباح غد ، ولم يأت سلمان بخبر عنه ، ذهبت انا وميمونة للبحث عنه هناك »

قالت دنانير : « بارك الله فيكما ، سننتظر الى غد والاتكال على الله فاذا لم يكن بد من ذهابكما فليكن ذلك في بعض سفن القصر ومعكما النوتية والخدم . ولولا اصرار مولاتنا على الاستشفاء بدواء هذا الطبيب لكان لنا غنى عن هذه المشقة ببعض اطباء القصر »

واصبحوا في اليوم التالي وزينب احسن حالا . اما ميمونة فالحت على جدتها أن تصر على الذهاب الى المدائن قياما بخدمة أهل القصر لقاء حسن وفادتهم ، فأطاعتها جدتها والحت على دنانير أن تأمر باعداد حراقة تسيران بها الى المدائن ، فامرت قيم القصر باعدادها فاعدت عند الظهيرة وفيها النوتية وبضعة من غلمان القصر . فركبتاها واشارت عبادة الى الربان أن يسير جنوبا فادار الدفة ونشر شراع الحراقة فسارت وميمونة جالسة في مقعد تشرف منه على الشاطئ الأيسر لعلها ترى بهزاد مارا على جواده في البر ، بينما وجهت عبادة التفاتها الى النهر لعلها تراه في سفينة

وظلت الحراقة سائرة بهم يساعدها مجرى النهر اكثر مما يساعدها

الشراع على الاسراع . على ان ميمونة كانت بسطها وتكاد تحسبها واقفة لفرط رغبتها فى الوصول . وكانت عبادة جالسة بالقرب منها صامتة ، وكل من فى الحراقة سكوت لا يسمعون غير صوت ارتطام الماء بمقدم السفينة . ثم سمعوا ضوضاء وجلبة وراءهم فالتفتت ميمونة فرات حراقة تسير فى اثرهم مسرعة ، فتفرست فيها فراتها جميلة الصنعة عليها نقوش مذهبة ومقدمتها على شكل الفيل بخرطومه ونابيه ، فاستغربت منظرها ولفتت نظر جدتها اليها ، فقالت هذه : « انها حراقة الخليفة الأمين . وللأمين خمس حراقات على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس انفق فيها مالا كثيرا »

فخفق قلب ميمونة وتصاعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها ثم ذهب الاحرار فجأة وامتقع لونها وصاحت : « ويلاه . . انى ارى أصحاب الحراقة سائرين فى أثرنا . ماذا يريدون منا ؟ »

فأشارت عليها جدتها ان تستتر بالسارية ، وأسرعت الى ربان حراقتهم فامرته أن يحل الشراع ويسير على مهل متجها الى الشاطىء ويفسح الطريق للحراقة التى خلفهم . فأدار الرجل الدفة والتفتت عبادة بنقابها وانزوت بجانب ميمونة . وكانت حراقة الأمين قد دنت منهم فعرفتا انها تحمل جندا وعيارين ، وسمعت رجلا منهم يقهقه قهقهة السكارى ويقول : « هذه غنيمة باردة ! »

فأجابه آخر : « ما لكم وللغنائم ؟ الم يكفكم ما نلتموه من رزق ٢٤ شهرا ، فنال راجلكم ٤٨٠ درهما مرة واحدة ، فضلا عن حصتكم من الغنائم ؟ . . انكم لا تشبعون . . أما نحن العيارين فلا رزق لنا الا من الغنائم اذ لا مرتبات لنا »

فضحك الأول وقال : « انكم معشر العيارين اكثر منا رزقا فقد تنتدبون لمثل هذه المهمة تنالون منها مرة واحدة ما لا يتيسر لنا فى مرات . فاذا وفقتم الى القبض على ذلك الخراسانى أصبتم رزقا كثيرا »

فنفر الآخر منه وقال : « لا اظن امير المؤمنين يعطينا شيئا كثيرا اذا قبضنا عليه ، فقد طالما قبضنا على امثاله ولم ننل الا دراهم معدودة »

فضحك الجندى مقهقها وقال : « العطاء على قدر العمل ، أتريد ان يعطوك على لص تأخذونه كما يعطونكم على مثل هذا الرجل ؟ »

فقال : « وما الذى يميزه من سواه ؟ دعنا من هذه الآمال الفارغة »

قال : « ان لهذا الخراسانى شأنا عظيما عند امير المؤمنين لم نكن نعلمه قبل مجىء الوزير »

وكانت ميمونة منزوية وراء السارية تسترق السمع ، فلما سمعت

ما قالوه عن الخراساني اختلج قلبها في صدرها خوفا من ان يكون حبيبها .
فأصاخت بسمعها فسمعت رجلا آخر يقول : « ما لكم ولهذا الهذيان ؟ لئن سمعكم مولانا الهرش لأسمعكم ما تكرهون . وما نحن في معرض جدال وانما جئنا للقبض على ذلك الرجل فاذا ظفرنا به كان هذا ربحا عظيما لنا جميعا »

وكانت الحراقة قد حاذت حراقة المأمون ، فنهضت ميمونة والتفتت الى المتكلمين ، فرات عددا كبيرا من الجند والعيارين في جلبة وضحك وصياح كأنهم سكارى يعربدون ، ورات على مقعد في طرف السفينة رجلا قصيرا سمينا عليه قيافة الرياسة ، فسألت جدتها هل تعرف هؤلاء فرفعت عبادة بصرها وحالما رات الرجل همست قائلة : « انه الهرش رئيس العيارين »

ووقع بصر احد العيارين اثناء ذلك على ميمونة وقد زادها الخوف والقلق رونقا فصاح : « اني ارى جارية حسناء لعلها من القيان . اربط يا ريس . لنسمع غناءها »

فارتعدت ميمونة خوفا وجمد الدم في عروقها ، وادركت جدتها خوفها فنهضت تحث صاحب الدفة على الفرار او الدفاع فسمعت رجلا من تلك الحراقة يقول بصوت منخفض : « دع الفضول . الا ترى الراية ؟ »

فتجمهر جماعة ونظروا الى راية منصوبة في مقدم الحراقة فقالوا : « انها راية المأمون » . وقال احدهم : « دعونا منها » . ثم ما لبثوا ان مروا بها مسرعين ، فسري عن ميمونة لزوال الخطر عنها ولكنها اصبحت في قلق عظيم على حبيبها ورجع عندها انهم يجدون في طلبه فالتفتت الى جدتها والدمع يترقرق في عينيها وقالت : « انهم يطلبون بهزاد ؟ .. ويلاه ! » . قالت ذلك وقد نسيت انها تكتم حبها عن جدتها

فقالت عبادة وقد حملت خوفها محملا آخر : « لا تخافي يا حبيبتي ، لا اظنهم يطلبونه . وعلى كل حال سنسبقهم اليه وننبهه »

ونهضت الى صاحب الدفة وامرته أن ينشر الشراع في اثر تلك الحراقة . ففعل وسارت الحراقة ساعة اخرى وميمونة واقفة حائرة لاتدري ماتعمل ، فابتدرتها جدتها قائلة : « لاتخافي يا بنية اننا سنصل الى بهزاد قبلهم وان سبقونا بحراقتهم ، واسرعت الى مقدم السفينة وجعلت تتفرس في الشاطىء على اليسار وتنظر الى أبعد ما يقع عليه بصرها في عرض الأفق ، وميمونة واقفة الى جانبها تستند الى كتفها خوفا من السقوط والسفينة تشق الماء والريح تنقر على الشراع ، فسارت الحراقتان ساعتين متقاربتين وعبادة واقفة وبصرها شاخص الى الأفق حتى اشرفت على بناء شامخ تراءى لها عن بعد فصاحت : « هذا هو الايوان . اننا على مقربة من المدائن »

ثم تحولت الى الربان وقالت : « اترى هـذه الناعورة (الساقيـة) امامك ؟ »

قال : « نعم اراها يا مولاتي »

قالت : « قف بالحراقة عندها » . ثم التفتت الى ميمونة وهمست في اذنها قائلة : « اذا نزلنا من هنا ويممنا منزل بهزاد وصلنا اليه قبل اولئك بوقت طويل ! »

فحلوا الشراع وادار الربان الدفة، وبعد هنيهة رست بهم الحراقة عند الساقية فامسكت عبادة يد ميمونة ونزلتا الى الشاطىء وقالت عبادة للربان : « امكث هنا حتى نعود اليك » . فقال : « الا يسير أحد منا في خدمتكما ؟ »

قالت : « كلا » . فقال : « سمعا وطاعة »

وهرولت عبادة مسرعة وميمونة تعدو في اثرها ، وقد مالت الشمس نحو المغيب وعبادة تعرف الطريق جيدا وتعرف حناياها ومختصراتها ، فسارتا على هذه الصورة نصف ســـاعة ، فتعبت العجوز وكادت تخور قواها وتسقط ، وميمونة تركض لا تبالي من شدة لهفتها ، ناسية ضعف جدتها وشيخوختها . فما لبثت أن رأتها تلهث من التعب والعرق يتصبب من جبينها وانفها وسالفيها ولم تعد تقوى على السير ، فوقفت ثم قعدت على حجر واخذت تمسح عرقها وتلهث . فاستاءت ميمونة من قعودها وودت لو كانت لها اجنحة لتطير بها الى منزل بهزاد . وتحيرت فلم تدر أتترك جدتها هناك وتسير وحدها وهي لاتعرف الطريق ولايطاوعها قلبها على ترك جدتها وحدها في ذلك المكان ؟ ام تصبر ريثما تستريح فتضيع الفرصة ؟. فجعلت تمسح لها عرقهـا وتنشطهـا وتخفف عنها ، وعبادة لا تستطيع الكلام من شدة التعب . وبعد بضع دقائق قالت : « اننا على مقربة من البيت . الا ترين هذه النخلة الباسقة ؟ »

وكانت الشمس قد توارت بين النخيل على الشاطىء الغربي وراءهما فنظرت ميمونة شرقا نحو الافق فرات تلك النخلة فصاحت : « اليست هي النخلة التي الفنا الاستظلال بها عندما كنا نخرج من منزلنا ؟ »

قالت : « بلى هي بعينها »

فقالت : « نحن اذن على مقربة من بيت بهزاد . هلمي بنا نكمل مسيرنا ولو اتعبك ذلك فاني اخاف ان يسبقنا أولئك الرعاع اليه »

قالت : « لا تخافي انهم لا يزالون يمخرون في دجلة » . ونهضت وهي تتشدد وتتجلد ، ومشت وميمونة في اثرها مستبطئة مشيتها حتى وصلتا الى اسواق تلك البلدة فقطعتاها . واقبلتا على منزل بهزاد والشمس تكاد تغيب، فوجدتا الباب مغلقا وليس عنده أحد، فمشتا وهما تلتفتان والشاطىء

بعيد عنهما فلم تجدا أحدا قادما ، فتحققت ميمونة ان الاعداء لم يدركوا البيت بعد . وبعد هنيهة وصلتا الى الباب فوجدتاه مغلقا فقرعتاه قرعا عنيفا فلم يجبهما احد

فلما أبطأ عليهما الجواب ، فحصت عبادة الباب فراته مغلقا من الخارج ، فتحققت أن بهزاد ليس داخله فانشرح صـــدرها وانبأت ميمونة بذلك فتنفست الصعداء وقالت : « الحمد لله انه ليس هنا ولا سبيل لهؤلاء اليه . ولكن أين هو يا ترى ؟ »

فقالت جدتها : « ربما كان في بغداد أو في بلد آخر » . قالت ذلك وقعدت على حجر عند الباب لتستريح

فقالت ميمونة : « أخاف ان يكون عائدا الى بيته الآن فيظفرون به . الا يحسن أن ننتظره بالقرب من هذا المكان فاذا رايناه أعلمناه بما يهدده ؟ »

قالت : « وهل نكون في امن على انفسنا ؟ »

فتحيرت ميمونة في امرها وقالت : « ماذا نعمل اذن ؟ اخاف ان يكون بهزاد آتيا الساعة وهو لا يعلم بما أعدوه له فيقع غنيمة باردة في أيديهم . يجب أن نتمم سعينا في انقاذه » . وكأنها ادركت كثرة ما اظهرته من اللهفة عليه فخافت ظهور حبها له فاستدركت قائلة : « يجب علينا أن نكافئه على فضله ولا ندخر وسعا في انقاذه ولو تعرضنا للخطر »

فاستحسنت عبادة كرم اخلاقها وقالت : « صدقت يجب علينا أن نبذل ما في وسعنا في سبيله ، ولكن ما العمل ؟ ها انذا اسمع ضوضاء القوم من جهة الشاطىء . اسمعي انهم يجرون . هلمي بنا نذهب من قبل أن يدركونا » . قالت ذلك ونهضت فأمسكت بثوب ميمونة ومشت بها مسرعة نحو الشرق ، فمرتا بتلال وأحجار من انقاض قصر كبير فقالت ميمونة : « أرى انقاضا لعلها من بقايا دولة الفرس فهي تشبه انقاض ايوان »

فقالت عبادة وهي تسرع في مشيتها جهد طاقتها مع ما يحول دون ذلك من شيخوختها : « صدقت يا حبيبتي ان هذه التلال والأحجار من انقاض ايوان كان هنا غير ايوان كسرى ، يعرف بايوان سابور . وهو القصر الذى كان يقيم فيه المنصور قبل بناء بغداد وتهدم بعده »

فقالت ميمونة : « يلوح لي أن بهزاد اختار السكن بجوار هذه الأنقاض استئناسا بآثار أجدادنا » . قالت ذلك وهي تسرع أمام جدتها وقد نبهها ذكر هذا الايوان الى شيء خطر لها ، فلما توارتا عن المنزل قالت ميمونة : « اذكر اني ســــــمعته يذكر انه يتردد الى ايوان كسرى للبحث عن بعض العقاقير الطبية والحشائش التي تنبت على انقاضه ، فلعله هناك الآن ؟ »

فقالت عبادة : « ربما كان هناك . اتبعيني لنبحث عنه قبل أن تغرب الشمس »

فى إيوان كسرى

صعدت عبادة وميمونة الى الايوان وهو في ظاهر المدائن من جهة الشرق، فخرجتا من البلدة وهما تحاذران أن يشعر أهلها بهما ، وبالغتا في التقنع ، فلما بلغتاه اذا هو قائم كالجبل العظيم وقد زاده الخراب وحشـــة · وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق وتلاحمت الظلال وأخذت تتحول الى ظلام

وساعة الغروب منأوحش الساعات على الانسان لقرب خروجه الى الظلمة فيشق عليه فراق النور فتنقبض نفسه ويستوحش حتى اذا كان في قصره بين أهله وذويه،فكيف اذا كان في برية يغشاها الخراب وينعق فيها البوم؟· وقد كان هذا البناء رهيبا في ابان عمرانه فكيف به في خرابه ؟ وللخراب وحشة في ابان النهار فكيف في الليل ؟

على أن ميمونة شغلت عن الخوف بلهفة المشتاق ، ولولا ذلك لكان لها في منظر ذلك القصر عبرة أي عبرة !

كانت خرائبه توحي بأن مصير الانسان الى الزوال ، كما باد أهلوه·وقد كان فيهم الأكاسرة والمرازبة والدهاقنة والاساورة ممن كان أحدهم لا تكاد الأرض تســع مطامعه · فكم ربطت خيـــولهم في باحة ذلك القصر ؟ وكم دخلوه وعليهم الخز والديباج وعلى رؤوسهم التيجان وفي أيديهم الصوالجة؟· وكم جاء الملوك والأمراء يلتمسون الهدنة أو يتقربون بالهدايا ؟ وكم خضع لهم القواد وسيقوا اليهم بالأغلال والأصفاد يوم كان القصر آهلا بالنساء والأولاد وألوف من العبيـد والجوارى مما حمل اليهم أسرا أو هدية ، وفيهم غلمان من أبناء الملوك وفتيات من بنات الأمراء ·· وكلهم يرفلون في ألبسة الحرير ، ويتوسدون الرياش الوثير بين مزركش ومطرزبألوان تبهج النظر، وبين أنغام تطرب السمع

وكم كان على شرفات الايوان منالستائر الموشاة ، يطل من ورائها الجوارى الحســـان يتطلعن الى ما كان يقام في باحة القصر من الألعاب على الخيـول كالسباق أو لعب الصوالجة · والناس كلهم فرحون يحسبون الحيـاة نعيما دائما !

فلو رآهم راء ثم جاء مع ميمونة في ذلك المساء ورأى الايوان قد أصبح مقرا للحشرات ، رياشـــه التراب وما نبت عليه من الحشائش والطحالب ، ونمارقه الأشواك والأحجار ، وقد تهدمت جـدرانه وسقطت أســـاطينه

وتصدعت أركانه ، لاعتبر وتهيب وغلبت عليه الوحشة والرهبة ولو كان من الأبطال ، فكيف اذا كان فتاة ربيت في مهاد الرخاء مثل ميمونة ؟

فالتفتت الى ما حولها فلم تر الا خلاء قد تولاه الخراب ، فاستوحشت وندمت على مجيئها ولكن رغبتها في لقاء حبيبها شجعتها وثقتها بجدتها هونت الأمر عليها

أما عبادة فكانت في شاغل بما نالها من التعب وكانت أقل خوفا من ميمونة فأسندت نفسها الى اسطوانة ملقاة هناك من أنقاض الايوان وقالت لميمونة : « هل ترين أحدا أم تسمعين صوتا ؟ »

فأصاخت بسمعها وقالت : « اني لا أسمع صوتا ولا أرى شيئا ، لكن ذلك لا يمنع أن يكون بهزاد في داخل هذا البناء يبحث عن عشب أو عقار . وبما أننا وصلنا الى هنا فلندخل الطاق فاذا لم نر أحدا رجعنا سريعا قبل أن يشتد الظلام . هل ندخل ؟ »

فلم تشأ عبادة مخالفتها فمشتا وهما تجسان الأرض جسا بأقدامهما وتحاذران العثور بالأحجار أو الأشواك، وقد سكنت الطبيعة وأوت الطيور الى أوكارها. ولما أقبلتا على باب الايوان هابتا سعته وارتفاعه فقد كان عرض فتحته ٣٤ ذراعا وارتفاعه ٣٢ ذراعا ، ولما مرتا تحت قنطرته سمعتا هبوب النسيم وأحستا ببرده ، فأجفلت ميمونة وتراجعت وشعرت كأن يدا باردة لمست وجهها فتلفتت فلم تر أحدا فابتدرتها جدتها قائلة : «مالك يا بنية ؟»

قالت : « ماذا أسمع ؟ . هل أسمع هبوب النسيم وأشعر ببرده ؟ أم هي أنفاس الجن ؟ . قد كنا منذ لحظة خارج الايوان وكل شيء هادىء فما بالي أسمع هبوبا وأشعر بالبرد ؟ »

قالت : « كأنك لم تدخلي هذا الايوان قبل الآن ؟ »

قالت : « كلا . وهل فيه جن ؟ »

قالت : « لا تخافي يا بنية ليس في المكان جن ولا انس وأما ما تسمعينه فهو أصوات مجاري الهواء الخارج من جدران الطاق »

قالت : « قد كنا بقربه الآن ولم يكن ثمة ريح ! فكيف هبت سريعا على هذه الصورة »

قالت : « ان في بناء هذا الايوان سرا لم ينكشف لأهل هذا العصر بعد. انه مبني على هندسة تجعل الهواء يلعب في قاعته ولو كان الناس خارجه في حر شديد فيخرج من منافذ في جدرانه مصنوعة على نمط عجيب حير مهندسي هذا الزمان. وقد تأنق الذين بنوه في صنعه على هذه الصورة حتى لا يفارق النسيم مجالس الأكاسرة في أشد الايام حرا . فلا تخافي . هل نرجع ؟ »

وكانتا قد دخلتا الباب وأقبلتا على القاعة الكبرى التي يسمونها الطاق

ويسمون الايوان بها فيقولون طاق كسرى كما يقولون ايوان كسرى. وكانت مساحة هـذا الطاق في أيام عمارته ستين ذراعا في ستين ، وقيل مائة في خمسين . وكانوا يفرشون أرضه ببساط واحد مزركش ومرصع

وكان في صدر الطاق على عهد الأكاسرة عرش من ذهب مرصع بالحجارة الكريمة يجلس عليه كسرى ، تعلوه قبة مرصعة في داخلها مروحة من ريش النعام ، والى جانبي العرش مجالس الأعوان والمرازبة . وقد ذهب ذلك كله أثناء الفتح غنيمة للمسلمين وهم يومئذ أهل بادية حفاة عراة لا يفرقون بين الكافور والملح ولا بين الجوهر والحصى ، فاقتسموا الآنية وقطعوا الأبسطة ومزقوا الستائر . وكان نصرهم من آيات تغلب البداوة على الحضارة . فلم يبق هناك الا الأحجار وبعض الأساطين وقد تشوهت وتكسرت

ونظرت ميمونة الى ما حولها من الجدران الهائلة فرأت عليها صورا ملونة منعها الظلام من تحققها . ولما سمعت جدتها تستخيرها في الرجـوع وهي لا ترى في ذلك المكان الا ما يبعث على الوحشة . ناهيك بما كانت تخافه من الحشرات التي تكثر في مثل تلك الخربة عزمت على الرجوع وأرادت أن تجيبها بالايجاب فاذا بها تسمع دبدبة خارج الايوان ولا تسمع كلاما فاختلج قلبها في صدرها وأرادت أن تصيح فارتج عليها ولصق لسانها بحلقها . وأدركت جدتها ذلك ولم تكن أقل خوفا منها فامسكت بيدها وأومأت اليها أن تتبعها الى الداخل وهي تهمس في أذنها : « لعل أولئك العيـارين أتوا للبحث عن بهزاد في الايوان مثلنا . وهو والحمد لله ليس هنا على أني أخشى أن يبصرونا فتعالى نختبىء وراء هذه الأساطين حتى اذا أطلوا ولم يجدوا أحدا رجعوا » . قالت ذلك وصوتها يرتجف وهي تجر ميمونة بيدها . فأسرعتا فوق الحجارة وما يتخللها من الأعشاب والأشواك ، فسمع لخطواتهما خشخشة وطقطقة رغم ما أرادتاه من التستر . ولم تنتبها لهول ما اعتراهما الى ما كان يسرح بين أقدامهما من الجرذان والأورال وغيرها من الحشرات ، حتى وصلتا الى كوة واسعة لعلها كانت موضع العرش في ابان صولة الفـرس . وعند الـكوة أساطين متفرقة اذا دخـل الطاق داخل لا يفطن لمن يقيم وراءها . فدخلتا الكوة وانزوتا فيها وهما تمسكان أنفاسهما من الخوف ، وأصغتا وعيونهما محملقة تنظران الى الباب بلهفة وجزع ، وقد ندمتا على تلك المخاطرة

ولم تمض لحظة حتى كفت الدبدبة وسمعت ميمونة همسا عند الباب كأن المتكلم يحاذر أن يسمعه أحد ، ثم سمعت صوت قدح زناد ، ورأت أشـعة النور اندفعت الى الطاق من سراج يحمله شخص طويل القامة ملثم بلثـــام أسود، وقد التف بعباءة سوداء فلم يبد منه غير يده التي يحمل بها السراج . وما لبث أن دخل صامتا وفي أثره بضعة رجال في مثل هيئته ، فخفق قلب ميمونة وازداد اضطرابها حتى كاد الدم يجمد في عروقها ، مخافة أن يتقدم الرجل بسراجه الى مكانهما ، فبالغت في الانزواء وهي ما زالت معانقة جدتها

أما حامل السراج فلما توسط الطاق التفت يمنة ويسرة وقال : « ليس هنا أى أحد . وهل يعقل أن يأتي هنا أحد في مثل هذا الوقت ؟ . فليس ما سمعناه الا خشخشة بعض الحشرات التي فرت حين أحسست بقدومنا » .

ثم نظر الى ما بين يديه كأنه يبحث عن مكان يضع السراج عليه فرأى بقية اسطوانة قد ذهب معظمها وظلت قاعدتها قائمة ، فوضع السراج عليها ، وأخرج يده الأخرى من تحت العباءة وفيها صندوق أسود فوضعه بجانب السراج والتفت الى رفاقه وهم ستة وقال بصوت ضعيف : « هل نبدأ الحديث ؟ »

فقال أحدهم : « نعم قل ما بدا لك »

فلما سمعت ميمونة صوت الرجل الأول استأنست به ، وخيل اليها أنه يشبه صوت حبيبها ، فاختلج قلبها وشاعت عيناها . ثم رأت الرجل الطويل ورفاقه قد خلعوا عباءاتهم فافترشوها وقعدوا عليها ما عدا أولهم فظل واقفا وبدت ثيابهم من تحت العباءات على غير المألوف في بغداد ، اذ كان على كل منهم قباء أخضر وعلى رأسه قلنسوة حولها عمامة خضراء ، وقد تمنطقوا بالسيوف وتقلدوا الأقواس كأنهم يتأهبون للحرب

واسترعى انتباهها طول الرجل الأول وكان قد ولاها ظهره ، فرجحت انه بهزاد ، وحدقت فيه ، وكادت تناديه ولكنها امسكت واشارت الى جدتها أن تنظر اليه فعرفته على ضعف بصرها وأومأت الى ميمونة أن تصبر وتبقى صامتة ، وأخذت تتفرس في القوم ، وعرفت من وجوههم ولحاهم أنهم من الفرس ولكنها لم تعرف أحدا منهم . ثم رأت بهزاد قد تحول نحو قاعدة الاسطوانة وأخذ الصندوق فوضعه بين يدي الجماعة وقعد القرفصاء وقال : « أقسموا على ما في الصندوق أنكم تكتمون ما يدور بيننا »

فتصدى رجل منهم رقيق البدن خفيف العضل تدل سحنته على مزاجه العصبي وحدة ذهنه وجرأته فقال : « ولكنك لم تخبرنا بما فيه وقد وعدتنا أن تطلعنا على ذلك قبل كل شيء »

فتناول بهزاد مفتاحا من جيبه وفتح الصندوق وقال : « انظروا ولا تتكلموا »

فنظروا في الصندوق وتراجعوا وقد تولتهم الدهشة وقالوا : « انا لله وانا اليه راجعون . ما هذا ؟ »

فقال : « هذا شعارنا منذ اليوم . هذا رأس القتيل المظلوم ، فهيا أقسموا أن نكتم أمرنا ، وأن ننتقم له ولمن قتل قبله »

قال ذلك وأغلق الصندوق وهو جاث ، فقرأوا الفاتحة معا ، ثم أقسم كل منهم ليبذلن ماله ودمه للانتقام

وقف بهزاد عقب الانتهاء من القسم ، فأعاد الصندوق الى موضعه وحمل

وفتح بهزاد الصندوق وقال : « انظروا ولا تتكلموا ..! »

المصباح وتقدم نحو جدران الطاق والسراج مرفوع بيده ليبدو ما على الحائط وقال : « أترون ما على هذا الجدار من الرسوم ؟ »

قالوا : « نرى كسرى أنو شروان يحاصر بجنده أنطاكية »

فقال : « ألم يفتحها ؟ » . قالوا : « بلى »

قال : « ألم يكن أنو شروان عادلا ؟ » . قالوا : « بلى »

قال : « ألستم خلفاءه وأبناءه ؟ » . قالوا : « بلى »

قال : « ألم تنصروا هؤلاء العرب وتملكوهم رقاب الناس ؟ »

قالوا : « بلى »

قال : « ألم يبذل أجدادكم أرواحهم ودماءهم وأبلوا بلاء الرجال في طاعة امامهم الأول ، فقتلوا على الشك وغدروا وخانوا رغبة في رفع منار تلك الدولة ، فكيف كان جزاؤهم ؟ » فقالوا جميعا : « لقد جوزينا جزاء سنمار . رحم الله أبا مسلم »

قال : «ليس أبو مسلم أول شهيد قتله العرب غدرا بعد أن أيد سلطانهم، وسلم الدولة اليهم ؟ أترضون أن يذهب دمه هدرا فضلا عن دماء آبائكم ؟ »

فقال رجل منهم كبير السن جليل الطلعة : « انك تدعونا الى أمر عظيم ، ولكنك لم تخبرنا من أنت . نعم انك فارسي مثلنا وشريك لنا في هذا الأمر . غير أننا نحب أن نعرف الغرض من مجيئنا الى هذه الخرائب وقد كنا في غنى عن ذلك بالاجتماع في بيت احدنا »

فقال بهزاد : « يعد الناس هذا المكان خرابا وما هو كذلك . انه أثر حي لعظمة دولتنا ، وقد عجز المنصور بعد أن غدر بأبي مسلمْ عن هدمه . ان بقاء هذا الايوان رمز على بقاء دولة أصحابه . فأحببت أن نتعاهد على الانتقام بين جدرانه ، وهذا أنو شروان العادل كأنما يرانا ويسمعنا ، فاذا تعاهدنا أمام صورته كان عهدنا وثيقا »

ثم رفع السراج الى رأس كسرى في الصورة وقال : « انظروا ، انه ينظر اليكم بعينيه نظرة عاتب كأنه يقول : (لقد تقاعدتم عن نصرة أمتكم ورضيتم بالرضوخ لقوم استخدموكم وأذلوكم وقتلوكم غدرا ، فكيف تصبرون على الذل وفيكم العظماء والحكماء والقواد ، ومنكم رستم وقورش ودارا وسابور وبرويز وأنو شروان وبزر جمهر ، وقد حاربتم الاغريق والرومان والهند والصغد وفتحتم بلادهم . كيف يغلبكم على أمركم أعراب كانوا يفدون علينا للاستجداء فننعم عليهم بالطعام واللباس ، وكان أحاسنهم من جندنا وموالينا . فتسلطوا عليكم بالسيف ، ثم نصرتموهم فقتلوا كباركم غدرا وملكوا رقابكم وأنتم صابرون ، ولو لم تصبروا لكنتم الملوك وهم عبيد لكم . ومع هذا أليست مقاليد الأحكام في أيديكم ، ومنكم وزراؤهم وقوادهم ورجال العلم والسياسة فيهم ؟ فكيف تحنون رقابكم لرجال ما فيهم الا

الضعيف ، وانما غلبوكم بالحيلة والمداجاة • ان الصبر اذا طال أصبح مذلة وعجزا) • هذا خطاب أنو شروان ، ولأجله جئت بكم الى هذا المكان • أما أنا فاذا كنتم من الناقمين لأبي مسلم فاعرفوني • اني رسول اخوانكم في خراسان فما قولكم ؟ »

وكان بهزاد قد ارتفع صوته ونسي التكتم والتستر وأشرق وجهه حماسة وشهامة • فرقص قلب ميمونة فرحا لرؤيته وسماع خطبته . ولكنها ظلت متشوقة لمعرفة ما في الصندوق وقد فهمت من حديثهم ان فيه رأس رجل مظلوم ، فتلهفت لمعرفته

ولما انتهى بهزاد من كلامه وهو ينظر الى القوم والسراج في يده ، نهض أحدهم وقال : « هل أنت رسول الينا من اخواننا الخرمية في خراسان ؟ »

فقال : « اني رسول اليكم منذ بضعة أعوام »

قالوا : « وما الذي عاقك الى الآن ؟ »

قال : « تربصت حتى جاءت الساعة وسنحت الفرصة ، لأن الأمور مرهونة بأوقاتها • فالآن مات الرشيد • ذلك الذي غلبنا بمبادرته وكيده، فقتل كبيرنا وعمدتنا وعرقل مساعينا • أما خليفته فغلام غر همه أكله وشربه و •• »

فقطع الرجل كلامه قائلا : « ولكننا أقمنا دولة فارسية أساسها الآن في خراسان • وهذا أخوه المأمون ولي العهد لا يلبث أن يتولى العرش بعده ، وهو آلة في يد الفضل بن سهل • وهذا انما أسلم وتقرب منه رغبة في نصرة الفرس وتطلعا الى هذه الفرصة • فاذا أفضت الخلافة الى المأمون بلغنا الغرض المطلوب على أيسر سبيل ؟

فقال بهزاد : « ألم أقل لكم انكم غافلون عن منافعكم ؟ ان مساعي الفضل أوشكت أن تذهب أدراج الرياح بما هيأه هذا الغلام وأنصاره من أسباب الغدر • فكما أسس المنصور دولته بقتل أبي مسلم غدرا ، وأنقذها الرشيد بقتل جعفر غدرا ، فان هذا الغلام عرقل مساعي الفضل بن سهل بخلع المأمون غدرا ! »

فصاح الرجل : « هل خلعه ؟ »

قال : « نعم خلعه ولا يلبث أن يقتل أنصاره وأنتم نيام • ان مساعي الفضل مؤسسة على الدهاء والسياسة ، فاذا لم تبادروا الى تأييدها ذهبت عبثا ، فلا ينفعنا اسلامه ولا تقربه من المأمون »

فقال الرجل : « هل أنت واثق من خلع المأمون ؟ »

قال : « لست نائما مثلكم ، ولكني ساهر على صوالحكم منذ بضعة أعوام، وقد بثثت العيون والأرصاد حتى في بلاط الخليفة ، وأعرف كل حركة تجري في بيت الأمين ، وأعرف أهواء العامة وأغراض الخاصة • وقد علمت يقينا

أن الأمين خلع أخاه المأمون ، ولا ندرى ما يفعله بعد ذلك • أما العامة فقوم طغام يباعون ويشرون وهم لا يعلمون ، وأما الخاصة فأنتم عمدتهم • فبادروا الى العمل • فقد بلغ السيل الزبى »

فأطرق القوم هنيهة ثم وقف الرجل الجليل وقال بصوت هادىء : « أما وقد ثبت خلع المأمون فالأمر خطير ، ولكننا لا نفوز الا بالتؤدة ، فان هؤلاء العامة لا يقادون الا بالدين وهذا أمر كان أوله فى خراسان ولا يقوم الا من هناك »

قال : « ان تدبير ذلك سهل علينا ، وخراســان سيفنا وذخيرتنا • وأما الدين فهو الوسيلة لجمع كلمة العامة وهذا فى أيدينا وســـندبر ذلك فى خراسان • ان هذه الأقبية الخضراء ستملك أمر الدين باذن الله ؟ »

ففهم الرجل مراده من اتخاذه مذهب الشيعة سلاحا لنقل الخلافة فقال : « متى صارت الخضرة شعار الخلافة وذهب سواد العباسيين نلنا المراد،ولكن أنى لنا ذلك ؟ »

قال : « يكون لنا ذلك ان شاء الله فى خراسان ، ولابد من اعمال السيف، فكونوا أنتم فى يقظة من أمر شيعتنا فى بغداد • واذا أتت الساعة يحاسب كل منا على عمله » • ثم أشار الى الصندوق وقال : « وأما شعارنا الحقيقى فهو ما رأيتموه فى هذا الصندوق ، وسأضيف اليه رأسا آخر اذا رأيتموه علمتم أنكم اذا بذلتم أموالكم وأنفسكم فانما تبذلونهما فى سبيل قويم•اذا كنتم من الخرمية فانكم تنتقمون لامام قديم ورجــل عظيم • تنتقمون لأبى مسلم صاحب الرايات السود مؤسس الدولة العباسية ، وهو يناديكم من أعماق قبره أن تقلبوا هذه الدولة وتعيدوا دولة الفرس وتؤيدوها بالشيعة العلوية أصحاب الدعوة الأصلية التى أضاعها المنصـــور بغدره ودهائه • وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »

▭

كان بهزاد يتكلم والعرق يتصبب من جبينه ، وقد أخذت منه الحميــة مأخذا عظيما فاستنهض عزائم رفاقه وسحرهم بحماسته وبلاغته حتى تراءى لهم ان الايوان عاد سيرته الأولى آهلا بالجيوش يزجيها كسرى أنو شروان • وكانوا يعرفون بهزاد طبيبا فارسيا ناقما على العباســيين ، ولم يكن يخطر لهم أنه رسول «الخرمية» ــ من الاحزاب السرية القائمة فى خراسان ــ وهم طائفة ظاهرها ديني واختلفت الأقوال فى حقيقة مذهبها ، ولكنها كانت حزبا سياسيا يستخدمها ذوو المطامع فى طلب السيادة•ومنهم أصحاب أبى مسلم وأهله ولاسيما ابنته فاطمة فان الخرمية كانوا يقدســـونها ويذكرونها فى

أدعيتهم . وللخرمية أثر كبير في تاريخ الاسلام ، وكانوا اذا اشتدوا ظهروا واذا ضعفوا اختفوا،وكانت لهم مخابرات سرية في المدن الاسلامية،يتعاونون ويتكاتفون وفيهم المسلمون والزرادشتيون والمجوس وانما تجمعهم العصبية الفارسية

ولا بدع اذا كان منهم جماعة في بغداد كالذين جاءوا مع بهزاد ، وهم من وجهاء القوم وأصحاب الثروة والنفوذ ، وفي نفوسهم أشياء على الخلفاء كقتل أبي مسلم وجعفر البرمكي وغيرهما.وكانوا يتحدثون بذلك سرا وينتظرون تبدل الأحوال وآمالهم عالقة بالمأمون اذا تولى الخلافة ، ولم يكونوا يعلمون أن الأمين قد خلعه . فلما أنبأهم بهزاد بذلك ثارت الغيرة في نفوسهم وتحمسوا ونهض أحدهم وقال : « اننا على ما أقسمنا عليه ، لا ندخر مالا ولا رجالا ، ولكن لابد لنا من التؤدة »

فقال : « ذلك ما عزمنا عليه .. فاقيموا أنتم على أعمالكم حتى تأتي الساعة ، وأنا أعرف أماكنكم فكونوا على استعداد ، وقد آن لنا ان ننصرف. وهذا آخر اجتماع لنا على هذه الصورة . وسنجتمع في غير كلفة أو حذر قريبا ان شاء الله ! »

فنهض رفاقه وأخذوا يتأهبون للخروج ، فالتفوا بعباءاتهم وهموا بالانصراف.وتناول بهزاد عباءته فالتف بها وانطفأ السراج وتركه في مكانه وخرج . فلما أظلم الطاق لم تعد ميمونة تستطيع ضبط نفسها والصبر على التستر فهمت بأن تنادي بهزاد ، فامسكت جدتها بيدها وطلبت اليها أن تصمت ريثما يتفرق القوم ونهضت وأشارت اليها أن تتبعها بخفة وهدوء ، فاطاعتها ومشت وركبتاها تتلاطمان ولا تكادان تحملانها ، وكذلك اصطكت أسنانها كأنها أصيبت بتشنج

ولم تتوسطا الطاق حتى رأتا القوم قد امتطوا خيولهم بعد أن صافحوا بهزاد وودعوه وانصرفوا ، وبقي هو وحده فاتجه الى مربط جواده ليركبه ، ولكنه سمع وقع خطوات تتبعه فالتفت فرأى شبحين بلباس النساء ، فاتجه اليهما بهدوء ورباطة جاش وقال : « من أرى ؟ »

فركضت ميمونة نحوه وأمسكت بذراعه وصاحت : « أنا ميمونة ، وهذه جدتي عبادة »

فشعر بهزاد برعدتها فتجلد وقال : «وما الذي جاء بكما الى هذا المكان ؟»

فقالت عبادة : « جئنا للبحث عنك فقد بلبلت خاطرنا بغيابك ، وقد أصيبت مولاتنا بنت المأمون بحمى ولا تقبل آسيا غيرك ، فلما ابطأت لم نر أحدا أولى منا بالبحث عنك لأننا نعرف منزلك وطرقك »

فأطرق وهو ممسك لجام الفرس بيده والصندوق باليد الأخرى ثم قال :

« وما الذى جاء بكما الى هذا المكان بالذات وكيف عرفتما أنى أجيء اليه ؟ »

فقالت ميمونه . « قد ساقتنا اليه العنايه . والحديث فى ذلك يطول وأنت الآن فى حاجه الى الراحه ونحن كذلك »

فقال : « هلم الى المنزل » . ثم التفت الى عبادة وقال : «أظنك أكثرنا تعبا فاركبى الفرس ونحن نمشى بجانبه »

فقالت . « لا يركب فرسك سواك . لكن الى أين نذهب ؟ »

قال : « الى المنزل »

فقالت : « الى المنزل فى المدائن ؟ » . قال : « نعم »

فأمسكت يده بكلتا يديها وقالت : « لا بالله . لا تذهب الى هناك »

قال : « ولماذا ؟ » . قالت « لأن فى الذهاب خطرا عليك »

فاجابها وهو لا يزال ماسبا : « وأى خطر ؟ »

قالت : « رأينا الجند والعيارين قادمين للبحث عنك فى منزلك ».وقصت عليه ما شهدتاه الى أن قالت . « فأخاف أن يصيبك سوء »

فقال : « أنت تخافين وأما أنا فلا أخاف ! »

فقالت : « بالله أطعنا . وتعال نذهب معا نحو الشاطىء فان الحراقة فى انتظارنا هناك »

فقال : « لابد لى من الذهاب الى منزلى يا خالة »

وهمت ميمونة بأن تتوسل اليه أيضا ليرجع عن عزمه ، فاذا بهم يسمعون وقع أقدام مسرعة . فالتفتوا جميعا فرأوا شبحا قادما نحوهم من جهة المدائن، فأجفلت ميمونة وصاحت : « ويلاه أظنه واحدا من العيارين »

فسمعت الرجل يقول : « كلا لست منهم »

فعرفوا صوت سلمان فدهشوا وصاح بهزاد : « سلمان ..؟ »

قال : « نعم يا مولاى » . وكان قد وصل اليهم وهو يلهث من سرعة الركض فابتدره بهزاد قائلا : « ما وراءك ؟ »

فقال بصوت متقطع : « ان المنزل يا مولاى محاط بالجند والعيارين وهم جماعة كبيرة أرسلهم الأمين ليأخذوك »

قال : « وكيف أتيت المدائن ورأيت ذلك ، وعهدى بك فى بغداد »

قال « علمت بهذا العزم من مصدره ، فاحتلت فى الخروج بأسرع ما يستطيع الناس حتى أدركت المنزل وقد سبقونى اليه ، ورأيتهم محيطين

به يتشاورون في فتحه ، فعلمت انك لست في داخله ، وتذكرت أنك تأتي الأيوان في بعض الأحيان فأتيت لعلي أراك وأنذرك بالخطر »

قال : « وهل أفر ؟ »

قال : « وهل تلقي بنفسك الى التهلكة ؟ »

قال : « هذا لا يكون فاذهب أنت بهذه الحالة وميمونة الى الحراقة. أما أنا فلابد من ذهابي الى المنزل لأمر مهم ، فاذا لقيت فيه جندا فالله يحكم بيني وبينهم »

فلم تعد ميمونة تقوى على السكوت وكتمان ما في خاطرها فقالت : «وهل نحن خائفون على حياتنا ؟ وحياتك هي العزيزة . ان حياتك عزيزة يا سيدي ... أتظننا لم نسمع حديثك ...؟ لقد عرفنا مهمتك وفي نفسي من هـذا الصندوق شيء أحب الاطلاع عليه »

فقال : « ربما أطلعتك فيما بعد ، وأما الآن فلابد من الذهاب الى البيت. اني لم أتعود الفرار »

فازدادت ميمونة اعجابا به ، ولم يروا بدا من اطاعته فقالوا : « نسير جميعا حيثما تشاء ويصيبنا ما يصيبك »

فمشى وسلم زمام الفرس الى سلمان ، وأراد هذا أن يحمل الصندوق عنه فأبى . ومشت عبادة تتثاقل في خطاها وتبالغ في اظهار عجزها وكذلك سلمان وميمونة كأنهم مساقون الى القتل مكرهين ، وبهزاد يجاريهم ويتأنى في خطاه

بين ميمونة وبهزاد

مشت ميمونة مع جدتها وبهزاد وسلمان ، وهى سابحة فى بحار من الهواجس تراجع ما سمعته وراته فى الطاق ، وكلما تصورت مساعى حبيبها فى نصرة الفرس اختلج قلبهـا فرحا ، ثم يعترض فرحها ما تخلل أقواله من تلميحه بالذهاب الي خراسان فتنقبض نفسها ، وهى مع ذلك لاتعلم محلها من قلبه

وقطعوا مسافة الطريق والظلام شامل وهم سكوت يمشون الهوينى ، وكل منهم يفكر فى امره ويتشاغل بتحسس الطريق لأن اكثرها وعر . وكلما اقتربوا من البلدة تطلعوا الى ما عساه أن يكون من امر اولئك الجند . فلما دخلوا الاسواق استأذن سلمان فى المسير أمامهم ليستطلع حال المنزل فمضى ثم عاد وقال : « لقد جلا الجند عن البيت بعد ان كسروا ابوابه ونهبوا مافيه »

فقال بهزاد : « لايهمني مما فى البيت الا شيء واحد ارجوا ان يكونوا قد ابقوه »

فظنه سلمان يعنى كتبه واوراقه فقال : « انهم اخذوا الكتب ومزقوا الاوراق »

فقال : « وهذا لايهمنى » . وظل ماشيا وهم يتبعونه حتى وصلوا الى المنزل ، فرأوا الباب مكسورا فدخلوا منه ، وسبقهم سلمان الى غرفة يعهد فيها مسرجة فأضاء السراج وعاد ليضيء طريقهم ، فرأوا آثار النهب ، وظل بهزاد يسير والصندوق بيده وهو يتفرس فى الارض ، فمروا فى باحة كبيرة فيها كثير من الآثار الدالة على ان البيت بنى على انقاض ايوان سابور ، حيث كان المنصور يقيم قبل بناء بغداد ، ثم استطرقوا من الباحة الى باب البيت الداخلى فرأوه مفتوحا فدخلوا وبهزاد يمعن فى اظهار عدم اكتراثه بما اصاب بيته من النهب . وبينما هم يسيرون فى الدهليز رأوا بهزاد تحول عنهم الى كوة فى جداره الايمن فتناول منها معولا كان هناك فدفعه الى سلمان وقال : « احتفظ بهذا » . وبدا البشر فى محياه ومشى لايلتفت الى شيء حتى دخل غرفة كبيرة فى وسط المنزل ، فى أرضها بساط عليه تراب من اثر المشي واوراق مبعثرة من اثر النهب ، وعلى جوانبها وسائد ، فأشار الى عبادة وميمونة بالجلوس ، وامر سلمان أن يتبعه ودخلا من باب فى صدر الغرفة الى حجرة واغلقا الباب وتركا السراج فى الغرفة

فلما خلت ميمونة الى جدتها نظرت اليها فرأتها تلهث من التعب والعرق قد بلل خمارها وهي في حاجة الى الاستراحة فتمنت ان تنام فتغتنم الفرصة لمحادثة بهزاد . فتشاغلت عنها ولم تخاطبها في شيء فرأتها تكبو وتتثاءب من النعاس فقالت لها : « توسدي ياسيدتي واستريحي » . ونهضت فأتتها بوسادتين فاستلقت عليهما وقالت : « اذا خرج بهزاد فأيقظيني » . فوعدتها بذلك

▭

ولم تمض دقائق قليلة حتى نامت عبادة ، وظلت ميمونة وحدها وكأنها في بحر تتقاذفها امواجه لاستغراقها في البحث عن سبب تنتحله لمخاطبة بهزاد . وفيما هي في ذلك فتح باب الغرفة فأجفلت والتفتت فرأت بهزاد خارجا وقد بدل ثيابه فالتف برداء خفيف واعتم بعمامة صغيرة . وخرج سلمان في اثره والمعول بيده فأشار اليه بالخروج بمعوله فخرج ، وظل بهزاد واقفا ، فوقفت ميمونة احتراما له وهي مطرقة حياء وهياما ، فألقى يده على كتفها وقال : « اجلسي يا ميمونة يا بقية البرامكة »

فلما سمعته يذكرها بأهلها ويظهر لأول مرة انه يعرف نسبها ، خجلت وجلست وقد ارتج عليها . فبادر الى وسادة ثناها واشار اليها ان تجلس عليها وقال : « اقعدي على هذه الوسادة يا ابنة جعفر »

فازدادت ميمونة استغرابا من هذا التصريح ، وتجلدت حتى لاتضيع هذه الفرصة منها وقالت وهي مطرقة وقد توردت وجنتاها : « اراك تخاطبني بكنية جديدة ؟ »

فقال وهو يتناول وسادة اخرى ليقعد عليها : « اني اخاطبك باسمك الحقيقي وان كنت تحسبينني اجهله . رحم الله جعفرا واحياه »

فرفعت بصرها اليه وقد ابرقت عيناها بما غشيهما من ماء الحب وقالت وصوتها يتقطع من شدة تأثرها وهي تحاول اخفاء ذلك بالابتسام : « هل ترجو قيامة الاموات في هذه الدنيا ؟ »

قال : « ان لم يحي جسده فسيحيا بذكره . ان جعفرا لم يمت يا ميمونة لأن الرشيد قتل جسده ولا سلطان له على ما خلفه من الذكر الحميد ! »

فقالت وقد انقبضت نفسها عند ذكر مقتل ابيها : « اني اشكر احسانك مجاملتك ياسيدي ، فانك طالما احسنت الينا وسترت فقرنا » . قالت ذلك شرقت بدموعها.

فلما رآها تبكي تفطر قلبه وكاد يبوح بما في نفسه ، ولكنه لم يكن يرى التصريح بحبه في ذلك الحين فغالطها وقال : « ان فضل جعفر واحسانه شمل

الملأ كافة ، وما من مسلم أو غير مسلم الا هو مدين له . فاذا وفينا بعض الدين فلا فضل لنا فى ذلك »

فلم يعجبها هذا الجواب لأنها كانت تتوقع أن يقول كلمة غير هذه . كانت ترجو أن تسمع منه كلمة الحب . فخافت ان يكون ضميرها خانها فتنهدت وسكتت وأرسلت يدها الى وجهها واخذت تمسح عينيها باناملها . فامسك معصمها ورفع يدها عن وجهها وقال وصوته يكاد يختنق : « مالك تبكين؟ »

فقالت وهى لاتزال مطرقة وقد احست بمجرى كهربائى يجرى من يده الى كل عروقها : « انى حزينة ياسيدى دعنى افرج كربتى ! »

فقال : « وما سبب حزنك ؟ »

قالت : « اتسألنى عن حزنى وانت تعلم سببه ؟ . وهل هناك أتعس من فتاة يتيمة الابوين ، تخاف أن يعرفها الناس ؟ . ان انتسابى الى جعفر بن يحيى وبقائى حية بين هؤلاء الاقوام من اكبر اسباب شقائى » . قالت ذلك وجذبت يدها من يده وغصت بريقها

فأخذ يدها بين يديه وهو يغالب حبه وقال : « معاذ الله ان تكونى تعسة »

فحاولت اخراج يدها من بين يديه وهى تقول : « بل انا تعسة ، وكيف لا اكون كذلك وقد عرفت الليلة أن . . » . وامسكت عن الكلام ونظرت اليه فاذا هو يتفرس فى عينيها ويتجاهل غرضها والهوى يكاد يشف عن سريرته . ومخاطبة العيون افصح من مخاطبة الالسن

العين تبدى الذى فى قلب صاحبها ... من الشناءة أو حب اذا كانا
ان البغيض له عين يصدقها ... لا يستطيع لما فى القلب كتمانا
فالعين تنطق والافواه صامتة ... حتى ترى من صميم القلب تبيانا

فادركت ميمونة من تلك النظرة ان بهزاد يحبها ، ولكنها احبت ان تسمع ذلك من فيه فحولت نظرها عنه الى جدتها وكانت قد استغرقت فى النوم وقد علا صوت غطيطها ثم اطرقت وسكتت ، فابتدرها قائلا : « أكملى حديثك . قولى ما هو الذى عرفته الليلة يا ميمونة ؟ »

قالت : « ان ذكره يؤلمنى . دعنى وشانى . لا احب ان تهتم بى . فانك فى شغل شاغل عن مثلى بما أنت فيه من المطالب الخطيرة . فلا اريد ان اشغلك بما تحدثنى به نفسى من احلام الصبا »

فقال : « لعلى مشتغل بمثل هذه الاحلام ! »

فرفعت بصرها ونظرت اليه نظرة عتاب وهيام وابتسمت والدمع يترقرق فى عينيها وقالت : « اعذرنى ياسيدى على تطفلى وصغر نفسى . انى على يقين من خيبة املى ، وحاشا لبهزاد القائد العظيم أن يقع فيما وقعت فيه ، فان اشتغاله بجمع الاحزاب لقلب الدول واستنهاض الامم ينزهه عن الالتفات

لفتاة مثلي . قد تقتضي مساعيه ان يدوس الجماجم ويقتل المئات فهل يبالي قلب فتاة يتيمة مسكينة مثلي ؟ » . وكانت يدها لاتزال بين يديه فاجتذبتها وغطت بها وجهها واخذت فى البكاء

فلما سمع قولها ورأى بكاءها غلب عليه الهيام ولكنه تجلد وقال : « وهل تريدين أن أمسك عن السفر ؟ »

فتنهدت وقالت : « آه ! . حبذا ذلك ، ولكن ما الفائدة لي من بقائك ؟.. سأكون سعيدة بارجائك السفر ولكن .. » . وسكتت . فقال لها : « ولكن ماذا ؟ »

فعظم عليها صغر نفسها والتجاؤها الى الحيلة فى استطلاع حبه ، فغلبت عليها الانفة ونقمت على نفسها فاسترجعت رشدها وحدثتها نفسها بأن تجافيه فنهضت وهمت بالخروج فامسكها بطرف ثوبها وقد استغرب نفورها فجأة وجذبها نحوه وهو يقول معاتبا : « الى اين يا ميمونة ؟ »

فقالت وهى لاتلتفت اليه : « دعنى يا بهزاد » . قالت ذلك وهى تحاول التملص منه

فقال : « اقعدي يا ميمونة ، لاسبيل الى الذهاب الآن ، فانك غريبة هنا ولا منزل لك تلجئين اليه »

فاثر قوله فى نفسها وتذكرت مصائبها فوقفت وغطت عينيها بكفيها واطلقت لنفسها عنان البكاء

فرق لها قلبه وسكت وقدكاد يختنق ، ووقع فى حيرة وهو يتجلد فى كتمان احساسه وقال : « كنت تريدين أن تقولى شيئا . فما هو ؟ »

فظلت واقفة وهى تغالب عواطفها وتحاول كتمان هيامها ولا تجد الى ذلك سبيلا ، وشعرت بانها مغلوبة على أمرها فاصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت وهى تتشاغل بمسح عينيها بطرف كمها ، ثم نظرت الى عينيه فرأت فيهما شيئا يكاد ينطق بمكنونات قلبه ، فهمت بأن تصرح بما ترجوه منه فغلب عليها الحياء ، فاذا هو يبتسم لها وعيناه تبرقان وجدا وهياما فبقيت ساكتة

أما هو فاستأنف الكلام قائلا : « قولى يا ميمونة .. قولى »

واختنق صوته ، فنظرت اليه وقد احمرت عيناها وذبلت أجفانها فازدادتا سحرا وفتنة وقالت : « أراك تبالغ فى المجاملة ، كفى ياسيدى .. كفى استخفافا بى . قل انك لايهمك أمرى وهذا يكفيك مؤونة الاهتمام بى ! »

فقال : « بل امرك يهمنى كثيرا . الا يشعر قلبك بذلك ؟ أراك تتجاهلين اكثر من تجاهلى أم انت لا قلب لك ؟ » . واخشوشن صوته

فابرقت أسرتها وحدقت فى عينيه كانها تستطلع حقيقة ما يعنيه ، ثم

ابتسمت والدمع يجول فى عينيها ، وتجلدت والحياء يغالبها وقالت : « ايهمك امرى كثيرا ؟ . اذن قل انك . . » . وسكتت ففهم مرادها وتظاهر بأنه لم يفهم فقال : « ماذا أقول يا ميمونة ؟ قولى انت اولا ! »

فقالت : « وهل تحتاج حالى الى قول وهذه دموعى تقول عنى، فقل أنت ، قل بالله انك تحبنى ، أودعنى وشأنى ! » . قالت ذلك وحولت وجهها عنه وهى تكاد تختنق من تضارب الحب والخجل وخوف الفشل

فلم يعد بهزاد يستطيع امساك هواه ولكنه فكر فيما هو فيه من مهام الامور ، فخاف أن يحول التصريح دون مشروعه فقال : « ان ذلك لايحتاج الى تصريح . نعم انى أحبك ! »

فلما سمعت تصريحه غلب عليها السرور حتى كادت تضحك فغصت بالضحك كما كانت تغص بالبكاء ، وتساقطت دموعها ولم تتمالك ان صاحت : « انت تحبنى يابهزاد ؟ . تحبنى ؟ . . احقيقة ما اسمعه ام وهم ؟ . وهل انا فى يقظة أم فى منام ؟ حبيبى بهزاد انت تحبنى ؟ »

فلما رأى لهفتها تذكر مهامه ، فبدا الاهتمام فى وجهه وقال : «نعم انى . . » . وبلع ريقه وحك ذقنه وسكت

فخافت ان يكون قد ندم على ما قاله فنظرت اليه وقد امتزجت فى عينيها ملامح الخوف والرجاء وقالت : « مالك ؟ أراك تتردد . ماذا جرى ؟ . الا تحبنى ؟ »

قال : « بل احبك ولكن . . » . قالت : « ولكن ماذا ؟ »

قال : « ولكن اسمحى لى ان اقول شيئا آخر . . »

قالت وقد بان الوجل فى محياها : « اما وقد قلت انك تحبنى فقل بعد ذلك ما شئت . ولكن لا . . تمهل . . لا تقل . . أخاف ان تهددنى بالفراق ! »

قال : « لا اهددك به ولكنه شرط من شروط حبك »

فنظرت اليه شزرا وقلبها يختلج وفى عينيها امارات العتاب وقالت بصوت خافت : « اراك تتشرط فى الحب . وانا احبك بلا شرط »

فاطرق خجلا من توبيخها اللطيف ثم رفع بصره اليها وقال : « صدقت . لاخير فى الحب اذا تقيد بشرط . ولكنى أشترط امرا فيه نفع لك ، فائذنى لى فى ذكره واطيعنى فيه »

قالت : « انى احببتك بلا شرط ، ومن مقتضيات هذا الحب المطلق الا اضع عائقا فى طريق حبك فاشترط ما شئت »

فقال : « قد علمت الان انى مسافر . فاذا سافرت فانما اسافر فى خدمتك . وقد تحسبين انك عرفت امرى وسهل عليك الحكم على مستقبلى . سمعت انى رسول من جماعة الخرميه . . انى لم اكذب ولكننى اكثر من ذلك . واقول

والاسف ملء فؤادى لا استطيع التمتع بهذا الحب الا بعد الانتقام فاذا بقيت حيا وعدت ظافرا فتلك هي السعادة اذ اكون انتقمت لأبيك وللقتيل قبله ، والا فلا حيلة لى فى دفع الاقدار . ولا اجهل ان الشرط صعب عليك بل هو ظلم منى ولكن لاخيرة فى الواقع »

قال ذلك ونهض وهو يقول : « انهضى الآن الى فراشك »

فنهضت وقلبها يرقص طربا ، وان كان قد ساءها خبر فراقه ، ولكنها سرت لسعيه فى الانتقام لأبيها ، وشغل ذهنها بما قاله عن نفسه من انه اكثر مما عرفت عنه ، فقالت فى نفسها : « من عساه أن يكون؟ » . ولكنها لم تجسر على سؤاله فأطاعته وهمت بالذهاب الى الفراش . فاشا ربهزاد الى حجرة وحمل المصباح بيده ومشي بين يديها وهى تتبعه وافكارها تائهة ، فدخلت الحجرة وفيها سرير عليه فراش من جلد فوقه وسادة وغطاء فقال : « هذا هو فراشك الليلة » . ورجع والمصباح فى يده ولم تمض هنيهة حتى توارت اشعة ذلك المصباح عنها فنزعت الخمار ونامت

◻

توسدت ميمونة الفراش واستولى السكوت على البيت وخيم الظلام فلما خلت الى نفسها تذكرت ما مر بها منذ ان اختبأت فى الايوان الى ان اطمأن قلبها ووثقت من محبة بهزاد . ثم تنبهت للصندوق الذى رأته بيد بهزاد فازدادت رغبتها فى معرفة ما فيه

فقضت ساعة أو ساعتين وهى تتقلب على الفراش واجفانها لاتغمض وطال ارقها حتى ملت الوساد وحدثتها نفسها أن تنهض فأقعدتها الظلمة

وفيما هى على هذه الحال من الارق والقلق وقد زادها السكوت وحشة ، سمعت حركة وراء الحائط فاصغت فسمعت ضرب معول فى الارض فخفق قلبها وظنت انها واهمة ، ثم سمعت همسا فنهضت مذعورة والتفتت الى جدران الحجرة فرأت فوق سريرها نافذة صغيرة يبدو منها بصيص نور ضعيف . فأخرجت راسها من النافذة فرات خلاء بين البيت والسور على أرضه مصباح عرفت انه مصباح بهزاد ، ورات رجلا طويلا قد حسر عن ساعديه وشمر عن ساقيه وكشف رأسه وبيده معول وامامه حفرة وقد اخذ ينبش بمعوله ، وامامه رجل آخر عرفت انه بهزاد ، وتفرست فى صاحب المعول فاذا هوسلمان . فازدادت دقات قلبها وارتعدت حتى كادت تسقط ، فتجلدت وأسندت نفسها الى النافذة وهى تحاول ان تختبىء لئلا يراها بهزاد . وتربصت فسمعت بهزاد يقول : « لابد أن يكون هنا . احفرأيضا »

فقال سلمان : « اخاف ان تكون مخطئا ياسيدى فقد اخرجنا ترابا كثيرا ولم اجد اثرا للجثة »

فقال : « لا . . لست مخطئا . الم يكن هنا ايوان سابور ؟ » . قال : «بلى»

قال : « قد اكد لى ذلك الشيخ الهرم ان المنصور كان يجلس فى قاعة الايوان حيث هذا البيت الآن ، وانهم دفنوا الجثة فى بستان الايوان . ولا يمكن ان يكون البستان فى غير هذا الخلاء . وقد نبشنا كل بقعة منه ولم يبق غير هذه . فاحفر »

قال : « ليت الشيخ كان معنا الليلة فيهدينا الى مكان الجثة »

قال : « الم اقل لك انه مات ؟ ولكنه والحمد لله بقى حيا حتى دلنا على المكان ، وهو على ثقة من قوله لأنه عاش فى عهد المنصور شابا واصابه مما راى جزع بقى اثره فى ذهنه لم ينسه طول عمره . احفر . اننا على هدى »

فعاد سلمان الى الضرب بمعوله وجرف التراب الى الخارج وهو يقول : « انى لا ارى اثرا للجثة يا مولاى »

وكان بهزاد فى اثناء ذلك يحدق فيما يخرج من التراب ، ثم انحنى وقبض على قطعة من نسيج نفض التراب عنها وقال : « اليست هذه قطعة من ذلك البساط ؟ »

فامسك سلمان عن الحفر وتناول النسيج وقد تهرأ وتقطع وقال : « بلى . بلى . . انها جزء منه » . وعاد الى الحفر بهمة ونشاط وميمونة تنظر اليه وتستغرب حركاته

وبعد أن حفر برهة تعب وتصبب العرق عن ساعديه ووجهه فوقف واسند يده على المعول وتنهد تنهدا شديدا ، فابتدره بهزاد قائلا : « لقد تعبت ولكن لابد لنا من اتمام عملنا فى هذه الليلة . هات المعول » . ومد يده فتناول المعول واخذ يحفر بسرعة ونشاط ، ثم سمعت ميمونة صوت ارتطام المعول بجسم صلب كانه اصاب حجرا ، ورأت بهزاد توقف عن الحفر ومد يده فأخرج قطعة عظم مستطيلة وصاح : « هذه ساقه او فخذه . ابشر يا سلمان »

فتقدم سلمان ونزل الى الحفرة بنفسه وجعل يجرف التراب ويبحث فيه حتى عثر على شيء تناوله بين السبابة والابهام ودفعه الى بهزاد وقال : «هذا خاتم »

فأخذ بهزاد الخاتم وتقدم الى المصباح وتفرس فيه وقال : « انه خاتمه بعينه »

قال : « وكيف عرفت ذلك يا سيدى ؟ »

قال : « الا تذكر انه لما استقدمه المنصور من خراسان اوصى كاتبه بأنه اذا

جاءه كتابه وعليه خاتمه كاملا لايعمل به ، وانما يعمل بالـكتاب اذا كان عليه نصف الخاتم فقط ؟ » . قال : « بلى »

قال : « انظر ان اسمه على الخاتم ممحو من احد جانبيه . فهو خاتمه وهذه هى ساقه فابحث عن الجمجمة »

فأخذ سلمان يحفر بيده ويخرج قطعا من اقمشة متهرئة أو من عظام نخرة واخيرا اخرج الجمجمة وناولها الى بهزاد ، فنفض التراب عنها وقد بدا البشر فى وجهه يتخلله انقباض ، ثم امتقع لونه وقال : « هذا هو راسه . هذا هو راس المقتول ظلما ! ان عثورنا عليه يساوى نصف الخلافة ، واذا انتقمنا له فقد نلنا الخلافة كلها » . وما تمالك ان قبله واكب سلمان عليه فقبله واخذ يمسح التراب عنه بطرف ثوبه بلطف واحترام ، وبهزاد واقف ينظر الى الراس وقد تغيرت سحنته وتجلى الغضب فى عينيه ، فابتدره سلمان وقال : « اهنئك ياسيدى بما توفقت اليه فقد وقعت على ضـالتك وكفى الآن . فاذا شئت رجعنا الى المنزل فقد كان هذا الليل شاقا عليك » . قال ذلك وتحول الى المصباح فحمله باحدى يديه والجمجمة باليـد الاخرى ، ومشى بهزاد فى اثره وقد تولاه السكوت والغضب كأنه أصيب بجمود

اما ميمونة فلما راتهما يتحولان الى المنزل قعدت على فراشها وقد انهكها التعب وازدادت هواجسـها وتهيبت من الخروج الى بهزاد فى تلك الساعة للاستفهام عن سر ما شاهدته وصبرت نفسها الى الصباح

وقضت بقية ذلك الليل كأنها فى بحر هائج ، ولم تغمض عينها الا قبيـل الفجر فغرقت فى النوم ولم تستيقظ حتى ايقظتها جدتها ، ففتحت عينيها فراتها واقفة عند راسها تقول لها : « قومى يا ميمونة اننا على اهبة المسير »

العودة إلى زينب

نهضت ميمونة مذعورة تلوم نفسها على التأخر، وتلثمت بخمارها واحتذت نعالها ومشت فى أثر جدتها حتى خرجتا من الدهليز، فسمعت صهيلا فالتفتت فرات بهزاد على جواده وقد تزمل بعباءته وجعل الصندوق بين يديه على القربوس ، والتفت الى ميمونة وعبادة واشار اليهما اشارة الوداع واوما الى سلمان قائلا : « اذهبا مع سلمان » . وهمز جواده

فاحست ميمونة كأن قلبها قد نزع من مكانه وهمت بأن تستوقف بهزاد فاذا به قد ساق جواده مسرعا ، فبهتت وكاد الدم يجمد فى عروقها ، ونسيت موقفها وبكت ، فامسكت جدتها بيدها وقالت : « هلم بنا فالقارب فى انتظارنا على الشاطئ . واما الطبيب فانه سيوافينا الى قصر المأمون »

فمشت وقد تولتها الدهشة وعيناها شائعتان نحو بهزاد حتى توارى ، وجدتها لا تعلم بما يكنه قلبها او لعلها علمت بعضه وتجاهلت رفقا بعواطفها وترفعا عن الميل الى الاستطلاع والسؤال كما يفعل العجائز اللاتى يجدن فى الحديث عن الآخرين لذة . أما عبادة فقد ربيت فى بيت رجل كبير وتعودت معاناة العظائم ومشاهدة الغرائب وانقطعت لتربية ميمونة وتولت كفالتها ولازمتها ملازمة الظل فلا تخاف عليها أن تأتى أمرا لاترضاه لها ، ناهيك باعجابها ببهزاد وايثاره على الجميع

فسارتا الهوينى الى الشاطئ وسلمان بلباسه الاصلى وقد التف بعباءته ، حتى اقبلوا على دجلة فراوا الحراقة فى انتظارهم فركبوها وامروا الربان فادار الدفة نحو بغداد وارخى الشراع . وجلست عبادة بجانب حفيدتها على مقعد فى صدر الحراقة وكل منهما فى هاجس . وجلس سلمان بالقرب من الربان يتلفت نحو الشاطئ على الجانبين كأنه يراقب أمرا يتوقع حدوثه

وما جرت السفينة ساعة حتى ظهرت حراقة قادمة من بغداد تشق عباب الماء وعليها علم عرفه سلمان انه علم الفضل بن الربيع ، وان السفينة من سفنه فأوجس فى نفسه خيفة ، واسرع الى ميمونة وعبادة ، واشار اليهما ان تنزلا عن المقعد وتستترا . فلما رات ميمونة اشارته ولهفته خافت ونزلت وجدتها وعيناهما تراعيان الحراقة الاخرى، وكانت قد فرشت بالسجاد والوسائد. ووقف فيها جماعة من الخدم ، بينما تصدر المجلس شاب جميل

الحلقة عرفت عبادة انه ابن الفضل والتفتت الى ميمونة فرأتها تنظر اليه فلما تحققته انقبضت نفسها وضاقت وامتقع لونها واغضت بصرها

اما عبادة فنظرت الى سلمان كأنها تستوضحه ، فابتسم تشجيعا لها وقال بصوت منخفض : « لا تخافى يا مولاتى ان هذا الغلام لايجرؤ على امر ونحن فى حراقة مولاى المأمون »

فقالت : « وماذا يفعل لو كنا فى سواها ؟ »

قال : « ربما اوقفها واستفهم عمن فيها لانه ذاهب الى المدائن للبحث عن». وأومأ بعينيه الى ميمونة

فقالت : « قبحه الله الا يزال على عزمه ؟ »

فقال : « وقد استشار المنجمين واستكتبهم الارصاد التماسا لمحبتها ، فقالوا له انها خرجت من المدائن فكأنه لم يصدق قولهم فذهب ليتحقق ذلك بنفسه »

وسمعت ميمونة سلمان وتجاهلت حياء وانفة ولكنها عجبت لاطلاع سلمان على خبرها مع ابن الفضل وتركت الكلام لجدتها فقالت هذه : « خسىء النذل انه لاينال قلامة من ظفرها ما دمت على قيد الحياة »

وكانت حراقة ابن الفضل قد حاذت حراقتهم ووقف بعض الخدم على حافتها يتفرسون فى ركابها فلم يقع نظرهم على غير سلمان وميمونة ترتعد خوفا وكرها فلما تجاوزتهم أراد سلمان أن يعبث بالفتاة ليخفف عنها فقال : « ارى مولاتى تنفر من ابن الوزير وهو يكاد يموت شغفا بها ؟ ! »

فرفعت نظرها اليه لترى ما يرمى اليه ، فرأته يبتسم فقالت جدتها : « اننا لانريد النظر الى هذا الشاب »

فقطع كلامها وقال : « ولا الى ابيه »

وكانت عبادة تظن سلمان يجهل حقيقة حالهما ، فلما سمعت ما قاله استغربته ورنت اليه كأنها تنكر عليه قوله ، فابتدرها قائلا : « يحق لك يامولاتى أن تكرهيه وتكرهى أباه ، ولا تعجبى لاطلاعى على سبب هذا الكره فانى خليفة مولاى الطبيب فى نصرتكما . فاركنا الى وثقا بى فانى خادم لكما ! »

فلما سمعت عبادة قوله توسمت الصدق فى لهجته فاطمأن بالها . وأما ميمونة فلما سمعت ذكر حبيبها ، سألته وهى تظهر السذاجة : « لعل الطبيب مسافر ؟ »

قال : « نعم انه مسافر للبحث عن بعض العقاقير الطبية » . وضحك

فأدركت ميمونة انه يمازحها ، وانه لاشك عارف بأسرار مولاه ، فابتسمت وقد استأنست به وارتاحت الى خفة روحه وقالت : « هل تظنه يعود قريبا ؟»

فأجابها وهو يضحك : « انك تسألين هذا السؤال قلقا على مولاتنا بنت

المامون لانها لاترضى علاجا الا من يده . بارك الله فيك . اظنه سيسافر عما قريب ، ولا أجزم لأن الطبيب يعمل ولا يطلع احدا على ما اعتزم »

فقالت عبادة : « يلوح لي انك تتجاهل ياسلمان ، فان الطبيب لايخفى عليك شيئا . وانت تقول انك لا تعلم موعد سفره »

فلما رآها تجد في قولهـا اراد أن يغالطها لئلا تعتمد على قوله فيكون قد باح بما يعلمه وان كان لايخاف عاقبة اطلاعهما عليه فقال : « ان مولاى الطبيب حريص على مقاصــده ضنين بما يكنه ضميره ، واذا كان ينوى سـفرا فانه لايكاشفنى به فلعله كاشفك بذلك يامولاتى ؟ » . قال ذلك ووجه كلامه الى ميمونة

اما هذه فاحترست كما احترس هو ، ومنعها الحياء من الخوض في هــذا الشأن، فأطرقت وتصاعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها ، فاكتفى سلمان بذلك وأراد تغيير الحديث فتحول الى الربان وقال له : « لعلنا قربنا من بغداد؟»

فأجابه وهو يشير باصبعه الى الامام : « اليست هذه قصور كلواذة »

فالتفت سلمان وتفرس في الافق وقال : « بلى اني ارى ابنيــة البلدة عن بعد ، اذن نحن على مقربة من دار السلام »

قال : « نعم نحن على مقربة منها ، ولا نلبث أن نرى مئذنة جامع المنصور ثم نشرف على قصر مولانا »

ولما سمعت ميمونة ذكر القصر تذكرت دنانير وزينب وكيف ذهبت مهمتها في استقدام بهزاد الطبيب عبثـا . وأخـذت تفكر فيما تقوله لدنانير : هل تخبرها بالامر أم تكتم ما اطلعت عليــه . وفيما هي تفكر في ذلك دنا منهـا سلمان وقال موجها خطابه الى عبادة : « لايخفى على مولاتى ان ما شاهدناه الليلة من حال مولانا بهزاد يجب أن يبقى مكتوما »

فقالت عبادة : « وماذا نقول لدنانير اذا سالتنا عنه ؟ »

قال : « نقول اننا لم نجده في بيته » . فقالت : « حسنا »

□

كانت دنانير صباح اليوم السابق بعد ذهاب عبــادة وميمونة قلقة على زينب تنتظر رجوعهما بالطبيب . فانقضى النهار وهى في انتظارهما على احر من الجمر . على ان الفتاة ما لبثت ان تحسن حالها وبرحت الفراش كأنها لم تكن تشكو مرضا ، وانتظرتا رجوع عبادة وميمونة في الصباح فلما مضى نصف اليوم التالي ولم يات احد قلقت دنانير وحسبت لذلك التأخير غير حساب . وفي الاصيل جاء بعض الخدم ينبئها بقدوم الحراقة . فخرجت لاستقبالهاعلى

فرفعت ميمونة نظرها اليها كأنها تستعطفهـا وقالت : « ما الذى أتانا به سلمان ؟ »

قالت : « أتانا برسالة من الطبيب ؟ »

قالت : « وما هى ؟ هل سافر ؟ »

فأرادت دنانير أن تداعبها فقالت : « وهل دلك قلبك على سفره ؟ . لقد قيل : من القلب الى القلب دليل ! »

فخجلت من هذا التلميح واحمر وجههـا ، ولم تكن تشعر بأن دنانير تعلم شيئا مما يكنه قلبها فقالت : « لماذا تقولين هذا يا خالة ؟. اننى أسأل اهتماما بأمر مولاتنا بنت ولى العهد لعلمى بتعلقها به ! »

فقالت دنانير وهى تبتسم : « بارك الله فى مروءتك . واذا علمت انه سافر فهل يسوؤك سفره اكراما لمولاتنا ؟ »

قالت وهى تظهر السذاجة وقلة الاكتراث : « هل سافر حقيقة ؟ »

قالت : « نعم سافر » . ثم تفرست فى وجهها فرأت البغتة ظاهرة فيـه وقد تحول احمرار الخجل الى صفرة الوجل ، فاسـتدركت بقولها : « ولكنه يعود قريبا ، لأن قلبه لايطاوعه على الفراق »

فخافت ميمونة أن ينفضـح أمرها اذا ظلت مع دنانير ، فانصرفت تطلب غرفتها لتخلو الى نفسها ، فلقيها سلمان فى الدهليز . فلما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة : « هل سافر بهزاد حقيقة ؟ »

قال : « نعم يا مولاتى » . قالت : « الى اين ؟ »

قال : « الى مرو فى خراسان حيث مولانا المأمون »

فقالت : « كيف سافر وتركنا ؟ » . وغصت بريقها

فقال : « تركنا جميعا الا انت ، وهذا كتابه اليك » . قال ذلك ودفع اليها منديلا ملفوفا فتناولته ، وعلمت من ملمسـه ان فى جوفه كتابا فاشرق محياها وخبأت المنديل فى جيبها ، وذهبت الى غرفتها فاسـتوقفها سلمان قائلا : « هل تحتاجين الى شىء آخر ؟ »

فأجابته بقولها : « شكرا يا سلمان ، انى لا انسى جميـلك ولا غنى لى عن مروءتك »

فقال : « انى رهين اشارتك » . ومضى

وما كادت ميمونة تصل الى غرفتها وتخلو الى نفسها حتى جلست على البسـاط ، ثم فتحت المنديل واخرجت منه لفافة من الكاغد ـ وكان الكاغد قريب العهد بالاستعمال فى التراسل والفضل فى ذلك لأبيها جعفر فانه أول من استخدمه فى الدواوين بدل الجلود ـ ففضت الكتاب وقرأته فاذا فيه :

« من المحب الذي تسمونه بهزاد الى ميمونة بنت جعفر بن يحيى المقتول ظلما . .

« اما بعد . فقد كنت اود ان اكتب اليك بلسان اجدادنا العظام لو كنت تفهمينه ، ولكن قضت صروف الزمان ، ان نتفاهم بلسان أمة ظلمتنا وغلبتنا على أمرنا فقتلت رؤساءنا ، واستخدمت قوادنا وحكامنا ، واستبدت فى شؤوننا . وسيأتي يوم تقلب لهم فيه ظهر المجن ونأخذ بالثأر . فيعلم الظالمون أى منقلب ينقلبون . وكنت أحب ان أراك قبل سفرى واودعك وجها لوجه لولا خوفى أن يغلبنى قلبى كما غلبنى أثناء ذلك الاجتماع ففضح سرا كتمته عدة اعوام وكنت عازما على كتمانه حتى يأتي وقتـه فابوح به فى يوم آتي به عملا يؤهلني لحبك . ولـكنك أبيت الا أن اقول لك انى أحبك فقلت وأقول : انى أحبك . . انى احبك يا ميمونة . . أحبك حبا مبرحا . . أقول ذلك الآن وأنا لا احاذر ان يحول قولى دون ما عقدت النية عليه منذ عرفتك وقبل أن أعرفك . ولو كنت بين يديك ما قلت ذلك مخافة أن يغلب على الغرام فاطيعك بل اطيع قلبى فاضيع سعيا قضيت العمر فى اعداده . اما وانا فى مأمن من ذلك فلا ابالى أن ابوح لك بمكنونات قلبى . فاعلـمى يامنيتى انى اوقفت حياتي عليك وعلى الانتقام لأبيـك . وما أنا بهزاد ولا أنا طبيب ولا كيميائى ولا أنا رسول من جماعة أو جماعات وانما أنا من ستعرفينه وتفتخرين بحبه . ولا اقول من أنا حتى تأتى الساعة ودون الوصول اليها قطع الرقاب والاستهداف للحراب . انى ذاهب الى خراسان لابدعوة من المأمون ولا بأمر احد من الناس ، وانما انا ذاهب لاتمام أمر بدأت به ولابد من اتمامه ، انى ذاهب طوعا لصراخ صاعد من اعماق القبور ينادي اهل النجدة أن ينتقموا للمظلوم من الظالم . واما الصندوق فقد كنت أحب أن أريك ما يحويه ولكننىأشفقت على قلبك . وسأفتح لك الصندوق كما فتحت لك قلبى ولكل اجل كتاب . أقيمى ببغداد فى حراسة الله ، وقد اوصيت غلامى سـلمان أن يقوم على خدمتك ، وهو امين صادق فاعتمدى عليه وثقى به واحتفظى بما اطلعتعليه حتى يأتيك النبأ الصحيح من خراسان يوم تنقلب الاحوال وينتصر الحق على الباطل . وإذا لم يسعدنى الزمان بما أرجوه فانى أموت ناعم البال وقد فعلت فعل الرجال . وغاية ما يستطيعه الانسان أن يجود بنفسه فى نصرة الحق . والله من وراء ذلك وهو على كل شىء قدير »

وما أتت على آخر الكتاب حتى امتقع لونها وتغيرتسحنتها وكادت تسمع نبضات قلبها باذنها وخارت عزيمتها ، وظنت نفسها فى حلم . ولما تحققت من يقظتها طوت الكتاب وخبأته فى جيبها ، واستلقت على البساط واستغرقت فى بحار الهواجس ، فراجعت فى مخيلتها خلاصة علاقتها ببهزاد منذ عرفته بالمدائن ، وما كان من عنايته بها وبجدتها ، وكانت تحسبه يفعل ذلك رغبة فى الاحسان وانه لايعرف حقيقتها وقد ظهر لهـا من ذلك الـكتاب انه كان

مشغوفا بها عالقا بحبها فندمت على ما اضاعته من فرصة البوح بالغرام

على انها تذكرت بعض ما جاء فى كتابه من الوعد والاشارة فاشتاقت الى تلاوته فأخرجته واعادت قراءته ثانية وثالثة وهى تحاذر ان يدهمها قادم او يراها راء . ثم سمعت خطوات قريبة فأخفت الكتاب واستلقت وهى تتناعس ثم تباعدت الخطى وعاد السكوت فعادت الى هواجسها ، فراجعت ما ارتسم فى ذهنها من عبارات حبيبها فرات انه يعرض نفسه لخطر الموت فاختلج قلبها خوفا عليه وفضلت رجوعه عن عزمه وبقائه معها تتمتع برؤيته . وتصورت عزمه على الانتقام لأبيها فسهل عليها الفراق ، وخيل اليها انه سيعود ظافرا منصورا فتفاخر به وتعوض عما قاسته من الذل والتستر

على انها تحيرت فى امره ومن عساه ان يكون اذا لم يكن بهزاد الطبيب ولا رسول الخرمية . ولما اعياها التفكير استسلمت الى المقادير، وصبرت لترى ما تأتى به الايام ، ثم غلب عليها النعاس وكادت تنام واذا بقارع يقرع الباب ، فنهضت وفتحته فرات دنانير وحدها فرحبت بها . فدخلت ضاحكة وقالت : « مالى أراك وحدك يا بنية ؟ »

قالت : « استلقيت على هذا البساط لأستريح فغلب على النعاس »

فاظهرت انها صدقت قولها وهمت بالخروج وقالت : « نامى يا حبيبتى تريه فى الحلم »

فاستغربت تعريضها وقالت : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « لا تخافى يا ميمونة . ان جدتك غائبة الآن فلا تكتمى . على أن تكتمك لاينفعك وانا قهرمانة خبرت الزمان وقرات الكتاب من عنوانه »

فتوهمت ميمونة انها تشير الى ذلك الكتاب، فقالت : « واى كتاب تعنين؟ » . وبدا الارتباك فى وجهها

فقالت : « لا اعنى كتابا مرقوما » . وتحولت اليها بجملتها وقالت : « وانما اعنى ان دلائل الحب لا تخفى على احد وقد عرفت حبك بهزاد من اول نظرة ويسوؤنى انه سافر قبل أن . . » . وأومأت بجفنها

فخجلت ميمونة من ذلك الايماء ولكنها سرت لبقاء امر الكتاب مكتوما عنها ، وهان عليها مكاشفته دنانير بحبها — وفى المكاشفة راحة للمحبين اذا وثقوا من كتمان حبهم — فابتسمت واطرقت

فاستبشرت دنانير وهى انما تلتمس ذلك منها لتشاركها السعى فى نيل مطلوبها فألقت يدها على كتفها واشارت اليها أن تقعد فقعدت وهى تلاطفها وتهش لها لتجرئها على أن تبوح ، ثم قالت سامح الله طبيبنا كيف سافر قبل ان يتم العقد ؟ . لا تخجلى يا ميمونة فانك تحبينه حبا طاهرا ولا شك انه يحبك ايضا . وهو من خيرة الشبان لا حرمك الله منه »

فتجرات ميمونة على الكلام وقالت : « وهل الحب عيب يا خالة ؟ »

قالت : « معاذ الله ! . لم اقل ذلك . فلا يصعب عليك فراقه فانه لايلبث أن يعود فلا تجزعي »

فتنهدت وسكتت وسرورها باد ثم قالت : « اني يتيمة مسكينة فلعل الله نظر الى ذلي فأراد رفعي ، ولا غنى لي عن عونك لأني في حماك »

قالت : « انك مولاتي وبنت مولاي ، ولا انسى فضل أبيك رحمه الله ، فأيقني أني عون لك على كل ماتريدين . وهذه مولاتنا زينب قد أحبتك واستأنست بك »

ولم تتم كلامها حتى سمعت خطوات مسرعة نحو الحجرة وصوتا مرتجفا ينادي : « أين مولاتنا القهرمانة ؟ »

فعلمت دنانير أن بعض الغلمان جاء في مهمة ، فصفقت فجاء الغلام حتى وقف بالباب وصاح : « أأدخل ؟ » . فقالت : « ادخل »

فدخل وحيى ، فصاحت به : « ما وراءك ؟ »

قال : « ان شاكريا بباب القصر يقول انه يحمل كتابا اليك »

فقالت : « شاكري ؟ وما شأن الشاكرية عندنا . انهم رسل الخليفة وليس في القصر رجال . لعله ضل السبيل »

قال : « سألته في ذلك فذكر انه يحمل رسالة الى قيمة القصر ، وسماك باسمك »

قالت : « اذهب وهات الرسالة لنرى فحواها » . فخرج . واستغربت هي الخبر ، أما ميمونة فارتبكت وخافت أن تكون الرسالة بشأنها أو لأمر يسوؤها . ومن تتوالى عليه النوائب يسبق الى ذهنه ما يسوؤه ويغلب أن يصدق ضميره فيه

وبعد قليل عاد الغلام وفي يده كتاب مختوم ودفعه الى دنانير وخرج ، فنظرت في الختم فرأته خاتم الفضل بن الربيع وزير الأمين ، فتشاءمت من رؤيته واخذت في فضه ويدها ترتجف ، وأدركت ميمونة بغتتها فاختلج قلبها ، ولبثت تنتظر ما يبدو منها . ففضت دنانير الكتاب واخذت تقرؤه والدهشة بادية في عينيها ، وميمونة تراقب حركاتها وتكاد تخطف الكتاب ن يدها لتطلع علىمافيه ، ولكنها تجلدت وصبرت نفسها فرات دنانير تعيد رأءته وقد ظهر الارتباك عليها ، ثم تحفزت للوقوف فاخذت ميمونة بيدها صاحت وصوتها يرتجف : « الى اين ؟ . . قولي لي اليس هذا الكتاب نني ؟ انى أرى عليه خاتم الفضل بن الربيع ، لاريب انه يمسني »

قالت : « وما شأنك انت ؟ انه يخاطبني انا ! »

قالت : « اشعر ان له علاقة بي ، قولي : ماذا يريد مني ؟ . ويلاه قولي ! »

فابتعدت دنانير منها ونهضت وهي تقول : « لا علاقة له بك ! »

فتبعتها وامسكت بيدها وترامت عليهـا وقالت : « اتوسل اليك ان تصدقيني . بالله قولي ولا تخفي على واعذرى لهفتى »

فبدا الغضب على دنانير وقالت : « لقد أوغل هذا الرجل فىالقحة وتجاسر كثيرا !. وكانه اغتنم فرصة غياب سـيدى وحسب اننا نخـاف سطوته ونطيع اوامره . قبحه الله ! »

فتأكدت ميمونة ان الكتاب يتعلق بها فصاحت : « مهما يكن من فحوى هذا الكتاب فانى أحب الاطلاع عليه ، والأمر لك فى كل حال . اطلعينى عليه ولو كان فيه قتلى ، بالله أطلعينى عليه »

فلم تر دنانير بدا من مسايرتها فدفعت الكتاب اليها فتناولته بيدها وهى ترتجف وقرأته وهاك نصه :

« من الفضل بن الربيع وزير امير المؤمنين الى القهرمانة دنانير

« وقع الى امير المؤمنين أن فى قصر مولانا المأمون فتاة اسمها ميمونة جاءت من عهد قريب ، ويجب أن يراها ويسألها عن بعض الشؤون ، ويطلب ارسالها مع الشاكرى حامل هذا الكتاب »

وما اتمت ميمونة تلاوة الكتاب حتى غشي الدمع عينيها وكاد الكتاب يقع من اناملها لفرط دهشتها وصاحت : « ويلاه ان حبل تعاستى لا يزال متصلا . ويلاه ! . ماذا أفعل ؟ . دعينى اخرج من هذا القصر »

فاخذت دنانير تخفف عنها وقالت : « لاباس عليك . لن تخرجى من هنا . ولن نسلمك لأحد . انك فى ضيافتنا . كونى مطمئنة» . قالت ذلك وخرجت وظلت ميمونة وحدها . ولما صارت دنانير فى الدهليز صفقت فجاء الغـلام فقالت : « قل للشاكرى أن يذهب ولا جواب له عندنا »

ورجعت الى ميمونة وهي ترتجف من الغضب ، فوقعت ميمونة فى حيرة واخذت تندب حظها ، ودنانير تطمئنها وتخفف عنها . وفيما هما فى ذلك اتت عبادة وهى خالية الذهن من الامر ، فلما رأتهما قالت : « ما بالكما ؟ »

قالت ميمونة : « ان وزير السوء كتب فى طلبى ، وزعم أن امير المؤمنين يحب ان يسألنى عن بعض الشؤون ! »

فاطرقت عبادة وفكرت هنيهة وقالت : « قد علمت السبب فى ذلك . ان الكتاب ليس من امير المؤمنين وانما كتبه الفضـل لغرض فى نفسه انا اعلمه ، واظنكما تعلمانه ايضا . والأجدر ان نخرج من هذا القصر قبل ان يتفاقم الخطب ويحدث ما لا تحمد عقباه بسببنا »

فصاحت دنانير : « انكما فى ضيافتنا ولا تخرجان مطلقا . ايجبر هذا الوغد على اضياف ولى العهد ؟ . كلا لن تخرجا على هذه الصورة ، ومتى جاء سلمان شاورناه فى الامر فانه خبير . ونرى ما يكون »

مجلس الفضل

كان سلمان قد رجع من قصر المأمون فى ذلك الصباح الى مخدعه فغير هندامه وتقمص شخصية الملفان سعدون ، وسار حتى دخل مدينة المنصور وقصد الى قصر باب الذهب يتوكأ على عكازه ويسرح لحينه وقد تأبط كتابه ومشى يلتمس المنزل الذى اعد له بامر الأمين اثناء اقامته هناك . فدخل حجرته واخذ يطالع فى كتاب كأنه يكشف امرا اهمه . وظل فى ذلك الى العصر وهو يتوقع أن يأتيه احد فى استفتاء او استطلاع لعلمه أن الجواسيس والعيون مبثوثة بالأبواب ينقلون خبر القادمين والذاهبين الى صاحب الشرطة

وفيما هو فى ذلك ، سمع وقع حوافر جواد يقترب من حجرته ، فأصاخ بأذنيه فسمع الراكب ينزل ويخطو نحو بابه مسرعا ، فأدرك من رائحة الطيب التى فاحت أنه ابن الفضل ، وعلم من سرعة خطوه انه جاء متلهفا . فظل جالسا حتى قرع الباب فنهض وفتح له واستقبله بفتور واستخفاف على غير عادته ، فتهيب ابن الفضل من رؤيته لما سبق الى ذهنه من اقتداره على استطلاع الغيب ، فحياه وهو يبتسم وقال : « كيف حال الملفان سعدون اليوم ؟ »

فأجابه بالاشارة ان يدخل ويجلس وظل ساكتا

فابتدره ابن الفضل قائلا : « ما بالك يا ملفان ؟ ما لى اراك غاضبا »

قال : « تفضل يا ابن الوزير واجلس . من انا وما هو غضبى ؟ ولكنى رأيت اهل هذا الجيل لا يليق بهم غير الخداع والكذب » . قال ذلك واشار الى ابن الفضل ان يجلس

فقال ابن الفضل : « لا حاجة بى الى الجلوس . انى لم آتك لأمر يهمنى وانما لأدعوك الى أبى »

قال : « اذا كان ابوك يسىء الظن بى ولا يصدق قولى كما فعلت انت . فلا فائدة من سماع كلامى »

فاستغرب ابن الفضل تعريضه به وعلم انه يشير الى ذهابه للبحث عن ميمونة فى المدائن بعد أن اكد له سعدون أنها خرجت منها . ولكنه تجاهل وقال ما هذا التعريض والتلميح ؟ متى اسأت الظن بك ؟ »

قال : « اظنك تحملت المشقة فى الذهاب الى المدائن لانك صدقت قولى انها خرجت منها ؟ . هل وجدتها هناك ؟ »

فخجل ابن الفضل وغلب علي حجته ولكنه غير الحديث وقال : « سنعود الى هذا الشأن فى فرصة اخرى . . والآن تعال الى ابى فانه سيسألك عن امر مهم يتعلق بالدولة والخلافة »

ففهم من هذه العبارة على سذاجة قائلها ما يغنيه عن بحث طويل وقال : « انى رهين اشارة الوزير . اين هو الآن ؟ »

قال : « هو فى قاعة صاحب الشرطة بهذا القصر »

فمشي سعدون الى نعاله وشدها بقدميه وتابط كتابه وقبض على عكازه وخرج فى اثر الفضل وهو يفكر فيما عساه ان يسمع من الأسئلة ، وان كان قد ادرك ان الغرض الأول هو السؤال عن بهزاد . استنتاجا من قرائن الاحوال ومما سمعه من ابن الفضل من ان اباه سيسأله عن امر يتعلق بالدولة . وكان سلمان يحذر الفضل ويخاف فراسته ودهاءه ، ولا سيما بعد ان رآه مطلعا على امر بهزاد ومجيئه الى بغداد ، وبعد امره بالقبض عليه وان فشل فى ذلك . فسار فى اثر ابن الفضل مطرقا يتمتم . ولم يكن يخاف ابن ماهان صاحب الشرطة لعلمه بضعفه وغروره

فلما وصلا الى مجلس صاحب الشرطة دخل ابن الفضل بلا استئذان ، وظل الملفان سعدون واقفا حتى ناداه ابن الفضل ، فلما دخل راى الفضل متكئا فى صدر القاعة على وسادة كبيرة وقد قطب حاجبيه وظهر الاهتمام فى وجهه ، وبيده مذبة يذب بها الهواء عن وجهه وكتفيه ، اذ لم يكن هناك ما يذبه ، ولكنه كان يتشاغل بذلك لما تزاحم فى خاطره من الأفكار . ووجد ماهان جالسا بجانبه على وسادة وقد أرسل لحيته على صدره وبالغ فى صبغها بالحناء فبدت شديدة الحمرة ، وكان مع وهن عظمه ما زال يغالب الشيخوخة فجلس القرفصاء مع ان فى وسعه ان يتكىء بين يدى الفضل فى غير كلفة ، وانما خاف ان يعد ذلك عجزا وهرما

☐

فلما دخل ابن الفضل لم يتحرك ابوه من متكئه وانما وجه بصره الى سلمان وقال : « هذا هو الملفان سعدون ! اظننى رايته بالأمس هنا ؟ »

فقال ابنه : « نعم يا ابت . وهو رئيس المنجمين فى دار مولانا الأمين »

فاشار الفضل الى سلمان ان يقعد ، فاطرق هذا متظاهرا بالسذاجة وقلبه يخفق تهيبا من الفضل بعد تلك المقابلة (ويكاد المريب يقول خذونى) . على انه تجلد وهدأ روعه وتشاغل بتسوية المنديل الحريرى حول كتابه

المعهود . وما كاد يأخذ مجلسه حتى ساله الفضل : « انت رئيس المنجمين ؟ »
فقال : « هكذا يقولون يا مولاى ولكنى لا أستحق هذا اللقب »
قال : « يظهر انك أهل لأكثر من ذلك فقد سمعت الكثير من صاحب الشرطة وابنى هذا عن مقدرتك العجيبة فى استطلاع المخبآت ! »
قال : « ان الفضل فى هذا يرجع الى هذا الكتاب ، والى ما تلقيته من القواعد التى يستعان بها فى كشف الغوامض . فأنا اقول ما يظهر لى أو يلقى الى ، وقد اتلو العبارة وأنا لا افهم معناها »
فالتفت الفضل الى ابن ماهان كأنه يستطلع رايه فى ذلك ، فأجابه هذا باشارة من حاجبيه مصدقا لما قيل كل التصديق . فابتسم الفضل ابتسامة تشف عن ارتياب وقال : وقال : « عند الامتحان يكرم المرء او يهان . هل تجيب عما اسألك عنه ؟ »
فرفع الملفان راسه نحو الفضل وبصره متجه الى المذبة يتحرك بحركتها كأنه يظهر التهيب من النظر الى وجهه وقال : « اسأل ما تريد ، وما العلم الا من عند الله فاذا فتح على بشىء قلته والا اعترفت بعجزى فهذه هى عادتى »
فلما قال ذلك هز ابن ماهان وابن الفضل راسيهما موافقين ، لأنهما خبرا ذلك فيه . فاعتدل الفضل فى مقعده وقال : « انى اسألك عن امر مهم يتعلق بالخلافة فأصدقنى خبره كما تراه . ولا تظننى اسألك عن امر اجهله فانى انما اختبر معرفتك ! »
فابتسم سلمان ابتسام الاستعطاف وقال : « اذا كنت فى ريب من صدقى فالأولى اطلاق سبيلى ، فانى . . »
فقال الفضل مقاطعا : « لا . . لا اطلق سبيلك قبل ان اختبر صدقك او خداعك . . فاذا كنت من اهل العلم الصحيح فقل لى عما اضمره »
فلما ادرك سلمان جفاءه عمد الى الملاينة وقال : « الأمر لمولاى فى ذلك ، وله أن يطلق سراحى أو يقيدنى أو يقتلنى او يفعل بى ما يشاء بلا اختبار »
وشعر ابن ماهان بأن سعدون قد استاء من تلك العبارة فقال : « لا يريد الوزير بك الا خيرا ، ولكنه تعود ان يرى فى بلاط الخليفة جماعة من المنجمين الدجالين ، ولما ذكر له عملك وفضلك أحب اختبارك . فقل ما يبدو لك من أمر الخلافة »
ففتح سلمان الكتاب واخذ يقلب فيه ويتمتم مطرقا وهم سكوت ينتظرون مايبدو منه ثم وجه خطابه الى ابن ماهان فقال : « الم اخبرك عن امر الخلافة قبل أن يعرف احد بخبرها ؟ »
قال : « بلى ولكن المراد ان نعرف أعداءنا وما عساه ان يكون من امرهم ؟ »

فعاد الى التفتيش فى الكتاب وهو يقرأ حتى بدا التعب فى وجهه وتصبب العرق من جبينه ، فاخرج من كمه قطعة بخور مضغها فى فيه وطلب قدحا فيه ماء ووعاء فيه نار ، فاتوه بموقد صغير من النحاس كالمبخرة وضعوه بين يديه ، فالقى قطعة البخور فى النار وتناول القدح واخذ يتفرس فى الماء تفرس الخائف من امر يفاجئه ثم صاح بغتة قائلا : « الى المدائن . فى قصر سابور ؟ »

وكرر التفرس فى الماء جيدا وهو يقول : « اليس هذا قصر سابور ؟ . ومن سكن فيه ؟ » . وسكت وهو يسترق النظر الى سامعيه ليرى هل يضمرون السؤال عن بهزاد كما استنتج ، فراى ابن ماهان يشير بالاعجاب ، فعلم أنه اصاب ولكنه تظاهر بالتعب فالقى القدح من يده وتناول منديله واخذ يمسح العرق من جبينه وهو ساكت ، فقال له الفضل : « ماذا جرى فى ذلك القصر ؟ »

فالقى فى النار بخورا ثم اعاد النظر فى القدح وقال : « انى ارى جندا وعيارين نزلوا من المراكب الى البر مسرعين ، ودخلوا ذلك القصر »

فقال الفضل : « ثم ماذا ؟ »

قال : « ذهب سعيهم سدى يا مولاى لانهم لم يجدوه فى البيت ! »

فابرقت أسرة الفضل ولكنه بقى يظهر الجد وقال : « بارك الله فيك قد عرفت ما فى نفسى ، فاعلم انى اطلب الرجل الذى كان يقيم بذلك القصر ، هل تعرف اسمه ؟ »

فاطرق وتمتم كأنه يتلو شيئا القى اليه ، ثم قال : « يسمونه بهزاد الطبيب الخراسانى ! »

فاظهر الفضل اعجابه وقال : « هذا طلبتى ، فاين هو الآن ؟ . ابحث لنا عن مكانه ! »

فعاد سلمان الى الكتاب وقلبه ، ونظر فى القدح قليلا ، ثم وضع القدح وصفق وقال وهو يشير بيده الى خارج بغداد : « هو خارج بغداد على جواده فى صحراء بعيدة وعليه لباس السفر »

فصاح الفضل : « هرب ؟ !. هرب الخراسانى الملعون ؟ . هل رايت خادمه ؟ »

فاعاد نظره الى القدح وقال : « لا ارى معه احدا »

فقال : « وهل عرفت بالتنجيم شيئا عن خادمه او رفيقه ؟ »

فعلم سلمان انه يعنيه هو ، لأن الذى اطلع الفضل على خبر بهزاد ذكر ان معه رفيقا وانهما جاءا معا لمهمة سرية من خراسان فلما عادا الى بغداد امر بالقبض عليهما فلم يظفر بهما . وقد علم سلمان باطلاع الفضل على

خبرهما وارساله الجند للقبض عليهما ، فسارع الى انقاذ بهزاد كما تقدم ، فلما ساله الفضل عن رفيق بهزاد تجاهل وقال : « علمت ان له رفيقا يسمونه سلمان ؟ »

قال : نعم سلمان . اين هو الآن . . ؟ »

فاضطربت جوارحه ولكنه تجلد وقال وهو ينظر فى القدح ثم يتلفت يمنة ويسرة : « انه فى بغداد واظنه فى مدينة المنصور ولكننى اراه مستترا وقد اقام بينه وبين المنجمين سترا كثيفا وقد أتغلب عليه واكشفه فى فرصة اخرى »

فقال الفضل : « ان بقاء سلمان هذا فى بغداد غنيمة كبرى تعوضنا عن فرار رفيقه ، وقد بلغنى أن سلمان هذا يتزيى كل يوم بزى جديد »

فقال : « ولهذا ظهر لى فى المندل مستترا ، ولكنه لا يخفى على الملفان سعدون ولو تمنطق بالنجوم وتعمم بالشمس وانتعل القمر . والأمور مرهونة بأوقاتها »

ثم راى ان يغتنم هذه الفرصة لنيل البغية التى يسعى اليها اعداء العباسيين فقال : « وهل يظن مولاى ان فرار بهزاد خير له من بقائه هنا ؟ »

قال : « ان فراره ينجيه من أيدينا ، هل ترى غير ذلك ؟ »

ففتح الكتاب وقلب صفحتين وقرأ ثم قال : « لكنه ذاهب لنصرة رجل كبير فى خراسان »

فادرك الفضل انه يعنى المأمون فقال : « لا فائدة من نصرته وهو بعيد ؟ »

قال : « أرى ذلك الرجل الكبير صاحب سلطان خوله اياه امير المؤمنين ، وقد يحاربه لأجله ان لم يتلاف أمره ويقص جناحيه » . وقد اراد سلمان أن يحرض الفضل على خلع المأمون من ولايته على خراسان ليتسع الخرق بين الأخوين فتسنح الفرصة للطامعين

☐

والتفت الفضل الى ابن ماهان فرآه ينظر اليه مستفهما ، وفى نظرته دليل الموافقة على تحريض الأمين على خلع أخيه ، وكان الفضل اكثر رغبة فى ذلك لما يعلمه من حقد المأمون عليه لمساعيه ضده ، ولكنه تجاهل واراد تغيير الحديث فقال : « بورك فيك يا ملفان » . ثم التفت الى ابنه وقال : « لقد اسأنا الى رئيس المنجمين اذ اسأنا الظن به ، واخشى ان نكون قد فرطنا فى الأمر ! »

فقال ابن الفضل : « كنت واثقا بالملفان ، ولكنك حملتنى على الشك فيه حتى فعلنا ما فعلناه »

ولم يكن الملفان عالما بما فعله الفضل من ارساله الى دنانير يطلب ميمونة فنظر الى الفضل وقال : « ارجو الا يكون فيما فعلتموه ضرر »

فقال ابن الفضل : « انما اسات بك الظن لما رايته من انكارك المكان الذى تقيم به الفتـــاة ، ثم علمنا من جواسيسنا انها فى قصر المامون فكتبت الى قهرمانته اطلب ارسالها الينا فاساءت الجواب وردت الرسول خائبا ، فارسلنا اليها جندا يأتون بها قهرا ! »

فشق على سلمان ما قد يصيب الفتاة من الاذى ولكنه تجاهل وقال : « اننى لم اخف على مولانا (واشار الى ابن الفضل) مكانها ، ولكننى ذكرت له انها خرجت من المدائن ، ولم تكن نزلت ذلك بالقصر المامونى بعد ، ولو سألنى بعد نزولها لاخبرته بمكانها . وكنت عازما على ان احملهـــا اليـــه بالحسنى مستعينا بهذا الـكتاب ، فليته لم يعجل بالامر » . قال ذلك وقد ساءه ما تصوره من الغلظة التى يأتونها فى هذا السبيل »

فقال الفضل : « ان قهرمانة القصر اساءت الادب فى رد الشاكرى ، ولعلها لا تعلم ان الفتاة مغضوب عليها وعلى كل اهلها ، وانما اردنا تشريفها واستبقاء حياتها لأنها وقعت من ولدى هذا موقع الاستحسان »

ميمونة والأمين

وفيما هم في ذلك جاء الحاجب وقال : « ان رسول الوزير بالباب »
فقال : « يدخل » . والتفت الى الحضور وقال : « هـذا رسولنا مع الجند الى قصر المأمون ، فلنسمع ما جاء به »
ثم دخل الغلام ، وهو من الشاكرية ، فالقى التحية وتأدب . فقال له الفضل : « ما وراءك » . قال : « هل أقول ؟ » . قال : « قل... هل اتيتم بالفتاة ؟ »
قال : « نعم ولكنها لم تأت وحدها » . قال : « ومن جاء معها ؟ »
قال : « جاءت معها مولاتنا ام حبيبة بنت ولى العهد »
فاجفل الفضل وقال : « اعوذ بالله ! وكيف أتيتم بها ؟ ومن قال لـكم ذلك ؟ »
قال : « لم يقل احد ولا نحن رضينا بمجيئها ولكنها جاءت رغم ارادتنا ، اذ تعلقت بالفتاة وابت الا ان ناخذها معها ! »
قال : « انا لله وانا اليه راجعون !. الم يكن في وسعكم اجتناب مجيئها ؟ »
قال : « كلا يا مولاى لانها تعلقت بالفتاة ولم تبال أقوالنا وتهديدنا حتى لقد حدثتنا أنفسنا أن نتركهما معا ، وقد جاءت معهمـا ايضا القهرمانة دنانير ، اذ عرضت نفسها للقتل وذكرت انها تؤثر الموت على تسليم الفتاة ، فأتينا بالثلاث معا »
فقال : « واين هن الآن ؟ »
قال : « هنا في دار النساء وام حبيبة تطلب أن ترى عمها الخليفة »
فاكفهر وجه الفضل عند ذلك لبلوغ المسألة الى هذا الحد ، ولكنه كان واثقا بسلطانه على الأمين ، ولا سيما اذا اطلعه على سر الفتاة وانها بنت جعفر البرمكى ، وانه انما اراد القبض عليها ليقدمها له فيرى رايه فيها . فنهض وهم بالخروج . ثم التفت الى ابن ماهان وقال : « صدق من قال : (ان في العجلة ندامة) . فلو اطعنا الملفان ما وصلنا الى هذه المشكلة ولكن لابأس » . ثم التفت الى سلمان واشـار مودعا وكان هذا قد وقف وحيى شاكرا ، وقد اطمان على ميمونة لمجيء ام حبيبة معها وطلبها مقابلة الأمين ، فلا شك في انه يحتفظ بالفتاة اكراما لبنت أخيه فتنجو من ابن الفضل .

ثم خرج من المجلس وقد غابت الشمس واضيئت الشموع الكبيرة المشهورة بشموع الأمين

وكان الأمين ساعتئذ فى مجلس غناء امر باعداده ، وحشد له المغنين والندماء . فأعد فى ايوان كبير بين قاعات القصر ، فى وسطه بركة يتدفق فيها الماء من انابيب على هيئة رؤوس الثعابين ، وحولها اغراس الرياحين ومقاعد الجلساء والمغنين . وكان الوصفاء من الخصيان يقومون بخدمته هناك وفيهم السقاة عليهم الألبسة الثمينة الباهرة وهم فى زى الجوارى ، وقد ارسلوا شعورهم جدائل مفردة ومزدوجة ، وفى ايدى بعضهم الدفوف او المزاهر او العيدان يدقون ويغنون . والى جوانبهم الجوارى الحسان فى زى الغلمان وهن هدية الى الأمين من امه زبيدة

وكان الامين يغالى فى اقتناء الجوارى من اقاصي البلاد وينفق فى استجلابهن الأموال . وقد ارتدى فى ذلك المجلس لباس المنادمة ، وهو غلالة صفراء مصقولة صقلا شديدا ، وعلى راسه عمامة خفيفة وجلس على سرير من الآبنوس المنزل بالعاج ، وبين يديه مائدة عليها انواع الأطعمة والأشربة والرياحين ، وقد فاحت رائحة المسك وغيره من الأطياب حتى ملأت الفضاء

وبينما هو فى مجلسه هذا . جاءه الحاجب وقال : « مولاتى زينب ام حبيبة بالباب » . فبغت الأمين وظن بخبره واهما فاستفهمه قائلا : « ابنة أخى ؟ »

قال : « نعم يا مولاى »

فتحير فى أمره ولم يدر بماذا يجيب ، اذ اكبر ان تقابله ابنة اخيه وهو فى مجلس الشراب على تلك الصورة . ولم يكن سلطانه وقوة بطشه ليمنعا خجله من فتاة صغيرة يسترضيها الناس بتفاحة أو لعبة . لأن سلطان الأدب والحشمة اغلب فى النفس من سلطان السياسة والشدة ، ولذلك كان الأدب قوة ، ولأدب النفس هيبة يجلها العقلاء وغير العقلاء ، وصاحب الرذيلة مهما يعظم سلطانه وان استغرق فى المنكرات لايزال فى ضميره بقية من احترام الفضيلة واهلها . الا ترى ارباب المعاصي وان تساهلوا فى ارتكابها يستنكفون من ان ينتسبوا اليها او يقال انهم من اهلها فهم اذلاء وان عزوا ، ويغلب عليهم الجبن فى موقف الانسانية وان كانوا ابطالا فى مواقف القتال . ان مرتكب المعصية محكوم عليه بالمذلة والضعة من عند نفسه لاعتقاده انه يخالف السنن الادبية فضلا عن الدينية وقد يكون سيدا مطلقا لا سلطان عليه ولا يخشى حكما ولا قصاصا ، وربما كان معطلا لا يخاف عقابا ولا يرجو ثوابا ، ولكنه يخاف شيئا لا صورة له فى الوجود ، ويخاف ما قيل عنه وما يقال له . وقد لا يضره ذلك ولا ينفعه ولكنه فطر علي التماس حسن الاحدوثة او « الشهرة » . ولولا هذا لكان الناس كالبهائم يأكلون وينامون

فهذا الأمين مع تهتكه وسكره وعلمه بانتهاكه حرمة الشرع والعرف

وصمه الأذن عن النصح لم يسمعه الا ان خجل ان يقابل فى مجلس لهوه فتاة صغيرة . وما ذلك الا حرصا على كرامته ، ولعلمه بطهارة قلبها وصفاء سريرتها

فلما انبىء باستئذانها عليه تردد فى الاذن واكبر ان يظهر خجله من مجلسه هـذا فينهض لمقابلتها فى غرفة اخرى وهو الخليفة صاحب السلطان الاكبر مالك رقاب العباد . ولم يستطع ردها اذ لا عذر له فى ذلك ، فغلب عليه اعتزازه بالاثم فقال : « تدخل ابنة اخينا »

وكان القدح بيده فوضعه على المائدة ، واصطنع الوقار على قدر ما يستطيع ، فلما راى جلاسه ذلك جنحوا الى التهيب وتولاهم السكوت ، والقوا ادوات الشراب من ايديهم . واشار الأمين الى الغلمان والجوارى فتباعدوا ، واستولت الحشمة على الجلسة ، وسكت القوم كأن على رؤوسهم الطير

فدخلت زينب وعليها مطرف من خز قد التفت به ، وخمار مزركش يكسو راسها الا بعض وجهها . وقد اشرق ذلك الوجه حياة وتجلت فيه الطهارة وسلامة القلب . وفى طهارة الاطفال رونق للناظر وهيبة للمتامل وعظة للعاقل ــ ويستدل علماء الاخلاق من ذلك على ما فطر عليه الانسان من الميل الى الخير وانه انما يساق الى الشر بما يعرض له من اسباب المطامع او يمارسه من اختلاف المشارب . واذا اتى شرا فانما ياتيه للدفاع عن نفسه او ماله ــ وقد يظهر انه مهاجم متعد ولو فحصت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرايت أساس ذلك التهجم هو الدفاع عن نفسه

فالأطفال مثال للفطرة الساذجة ، لا يعرفون الكذب او التملق او الخداع. يقولون ما يعتقدون لا يخافون ولا يحاذرون ، ولا سيما اذا ربوا كما ربيت زينب على أيدى دنانير ، حيث تثقفت واستنار عقلها على قدر ما تسمح به سنها ، واعتادت ان لا ترد كلمتها . فلما رات الجند يخالفونها ويلحون فى اخذ ميمونة شق عليها الأمر واكبرته ، ولما زجرت ارادتها بكت وجاءت معهم كما تقدم فدخلت لساعتها على عمها وقد ابرقت عيناها وفيهما أثر البكاء

فلما رآها الأمين رحب بها ونهض لاستقبالها ، فلم يبق احد من الحضور الا وقف تهيبا . ولم يروا بدا من اخلاء المجلس للخليفة وابنة اخيه ، فخرجوا وغادروا المائدة واباريقها واقداحها وزهورها ورياحينها وقد تبعثرت الفاكهة واقداح الشراب ومنثور الأزهار واضاءت منائر الشمع فى جوانب الايوان ، وود الأمين لو تنطفىء لتخفى تهتكه

فلما دنت زينب من عمها ترامت على ذراعيه وغلب عليها البكاء ، فضمها الى صدره وقبلها وقال : « لا بأس عليك يا ابنة اخى ماذا اصابك ؟ »

اما هى فلما شمت رائحة الخمر فى فيه نظرت الى ما حولها مستغربة ،

فأراد أن يلهيها عن الاستفهام فقال : « ما بالك يا ام حبيبة ماذا تريدين ؟ لماذا لم تدخلي دار النساء ؟ »

فقالت : « قد كنت هناك واحببت أن اراك ولم أكن اعلم انك على مائدة الطعام ».

فسره أنها تحسبه على مائدة الطعام فقال : « هل من حاجة نقضيها لك ؟ »

قالت : « نعم لي حاجة ... » . والتفتت الى الباب وقالت : « نعم لي حاجة .. أين دنانير ؟.. هي تقص عليك خبري »

فتجلد الأمين وهو يحسب لهذا المجيء الف حساب ، لما يعلمه من اساءته الى ابيها . ولكنه استبعد أن تطلع هي على شيء من ذلك فتجاهل وقال : « هل القهرمانة معك ؟ »

قالت : نعم كانت معي في دار النساء ، وقد أرادت الا افاجئك في هذا المجلس » . ثم نظرت فيما على الارض من الأدوات وقالت : « أرى مائدتك يا عماه تختلف عن مائدتنا ، لعل مائدة الخلفاء هكذا » . قالت ذلك بسذاجة واخلاص فأصاب قولها قلب الأمين لما حواه من التوبيخ الصريح عفوا ، فقال : « انها مائدة بعض الأضياف كانوا عندنا الليلة . هلم بنا الى دار النساء » . قال ذلك ولم يعد يصبر على البقاء هناك ، فنهض واخذ بيدها وهي تتوكأ عليه حتى دخلا قاعة في دار النساء مفروشة بالبسط والنمارق ليس فيها احد ، واجلسها بجانبه وهو مشتاق الى سماع شكواها ليطلع على جلية الخبر . ثم صفق فجاءه غلام فقال : « ادع القهرمانة دنانير »

وبعد قليل دخلت دنانير وهي مطرقة وقد غطت راسها بالنقاب وهمت بتقبيل يده ثم وقفت متأدبة فقال : « ما الذي جاء بكما يا دنانير ؟ »

قالت : « يسوؤنا اننا ازعجنا امير المؤمنين وكدرنا عليه مجلسه ، ولكن سيدتي ام حبيبة أبت الا ان تجيء الليلة ولم استطع منعها »

فقال : « وما الخبر ؟ » . قالت : « الم ترسل الينا في طلب ضيفتنا ؟ »

قال : « واي ضيفة تعنين ؟ » . قالت : « ضيفتنا ميمونة »

قال : « لم افهم مرادك افصحي »

فادركت دنانير ان الفضل فعل ذلك من عند نفسه فقالت : « نزلت عندنا منذ يومين فتاة غريبة اسمها ميمونة ، الفتها سيدتي زينب واحبتها ، فجاءني كتاب من الفضل وزيرك يطلبها باسمك ، فاعتذرت من تسليمها لانها ضيفة ولها حق الجوار ، فارسل الينا جندا لياخذوها قسرا . فلما رات مولاتي اصرارهم على اخذها تعلقت بها وابت الا ان تأتي معها ، فلم استطع التخلي عنها فجئت معها »

فاطرق الامين وقد اكبر انتحال الفضل اسمه بغير اذنه ، ولكنه تجلد

وقال : « من هي ميمونة هذه ؟ . لعلها من موالينا ؟ »

قالت : « هي فتاة يتيمة لا ملجأ لها ولا معين ، وقد يكون في قصر أمير المؤمنين عشرات أو مئات مثلها »

قال : « واين هي الآن ؟ »

قالت : « في هذه الدار يا مولاي »

قال : « على بها لأراها »

فلما خرجت دنانير وضع الأمين يده على كتف زينب وضمها اليه تحببا وقال : « تحملت المشقة لأجل هذه الجارية ؟ »

قالت : « اني احبها يا عماه ، لأنها لطيفة وحلوة ، وستراها الآن وقد قلت للجند ان يتركوها فابوا . . الا تريد ان تعطيني اياها ؟ »

فاستلطف الأمين سذاجتها ولطف تعبيرها وقال : « سأفعل ما تريدين . طيبي نفسا » . وبعد قليل عادت دنانير وميمونة تتبعها مطأطئة رأسها تذللا ، وقد توردت وجنتاها وتكسرت أهداب عينيها من البكاء

فلما أقبلت عليه ترامت على قدميه وصاحت : « انيجارية أمير المؤمنين »

فلما رأى الأمين جمالها اعجب بها ورق لبكائها فأمرها بالنهوض وقال : « لا بأس عليك يا بنية طالما كنت في ضيافة بنت اخينا ولك هذه المنزلة عندها . قومي » . والتفت الى دنانير وقال : « خذيها الى دار النساء وامكثا الليلة عندنا ريثما انظر في امرها . وانت يا زينب ضيفتنا الليلة . واطمئني اننا لا نرد لك طلبا »

فاستأنست الفتاة بعمها وهي في معزل عن السياسة لا تعلم شيئا مما جرى بعد وفاة جدها بين ابنيه ، ولما رأت عمها يضمها ويبش لها تذكرت اباها فقالت : « متى يأتي أبي يا عماه ؟ »

فلما سمع سؤالها انقبضت نفسه وقال : « قريبا ان شاء الله » . ولم يزد

وكأنها شعرت برغبته عن التوسع في هذا الموضوع ، فأمسكت ونظرت في الارض وهي لا تستطيع التعبير عن شعورها . وهو شأن النساء في احكامهن فانها مبنية على الاحساس بقطع النظر عن الحكم العقلي ، فان المرأة اذا سألتها عن عمل انت عازم على الشروع فيه هل هي تتوسم فيه النجاح أو تخاف الفشل اجابتك عن رأيها ، واذا طالبتها بالدليل على صحته ذكرت أنها لا تستطيع ذلك ولكنها تشعر به شعورا قويا . ويغلب ان يصدق شعور المرأة كما يصدق عقل الرجل ، على تفاوت في شعور النساء وعقول الرجال. فكما تتفاوت عقول الرجال من حيث قوة الاستنتاج واستنباط الأحكام وتمييز الصحيح من الفاسد ، يتفاوت شعور النساء باختلاف ما فطرت عليه كل منهن من دقة الاحساس وسلامة الذوق . ولا يكون هذا الشعور

مستقلا عن العقل ، ولكنه يغلب في المراة كما يغلب العقل في الرجل . والرجل اذا جرد من ذلك الشعور كان ضربة على الانسانية لأن الانسان يعامل عملاءه بالعقل ويعاشر أصدقاءه واهله بالاحساس . ويتفاوت الاحساس في الناس ، فمن قل احساسه ساءت عشرته واستثقل الناس روحه وان كان راجح العقل قوى الارادة . ولذلك ترى بين جماعة من الأذكياء المجتهدين من يستثقلهم الناس ويتجنبون معاشرتهم ، فيكون ذلك عثرة في سبيل نجاحهم ، لأن الانسان يحتاج في اكتساب ثقة الناس الى شعور حي يجتذب قلوبهم بحسن العشرة ووضع الشيء موضعه

وكانت زينب بنت المأمون — على صغر سنها — كبيرة العقل رقيقة الشعور ، فما أن سمعت تلك الاجابة الجافة من عمها الأمين حتى شعرت بانقباض وامتنعت عن الخوض في ذلك الحديث . وكأنما ادرك هو ذلك فصفق يدعو غلامه ، فلما جاءه قال له : « ادع لنا قيمة الجواري » . ولما جاءت هذه قال لها : « خذي ابنة اخينا الى قصرنا ، واكرمي مثواها واحتفظي بالجارية ميمونة وعامليها معاملة جوارينا » . ثم التفت الى زينب وقال لها : « اظنك تحتاجين الى الراحة والطعام ، ولن يكون الا ما تريدين ، فاطمئني » . وربت على كتفها ووقف ، فوقفت ومضت مع القهرمانة الى دار النساء

فلما خلا الأمين الى نفسه عاد الى التفكير فيما سمعه عن الفضل وكتابه الى بنت اخيه في شأن تلك الفتاة ، واحب أن يستقدمه ليسأله عن حقيقة الخبر ، على أنه تذكر ما كان فيه من الانس قبل مجيء زينب ، فعاد الى مجلسه . ولم يكد يستقر فيه حتى عاد اليه من كانوا فيه واستأنفوا الغناء والشرب والمنادمة والغلمان والجواري في خدمتهم كما كانوا

تركنا الفضل خارجا من مجلسه وهو يستعيذ بالله مما آل اليه أمر تسرعه في طلب ميمونة ، واخذ يهيىء الاعذار للدفاع عن نفسه ، معتمدا على ما له من النفوذ والدالة لدى الأمين ، ولبث ينتظر أن يدعوه اليه

اما سعدون او سلمان فانه مع اسفه لوقوع ميمونة في يد الامين ، سر لنجاحه في اغراء الفضل وابن ماهان بتوسيع الخرق بين الامين واخيه . واصحاب المطامع السياسية لا يفهمون لغة القلوب ولا يبالون حركاتها وانما يهمهم الوصول الى الغرض الذي يسعون اليه ، فاذا اعترض طريقهم راس او قلب داسوه ، على ان سلمان كان يعرف منزلة الفتاة عند بهزاد ، وقد اوصاه هذا بها خيرا ، فلم يسعه الا أن يهتم لأمرها ويعمل على سلامتها

وفي صباح اليوم التالي بعث الأمين الى الفضل ، فلما وافاه في داره الخاصة

اجلسه الى جانبه ، ثم تلطف فى الاستفهام عن امر الفتاة . فقال الفضل : « لعل امير المؤمنين اكبر اقدامى على طلب هذه الفتاة باسمه من بيت اخيه ، ولكن لم افعل ذلك الا اضطرارا واخلاصا فى خدمة الدولة . هل عرف امير المؤمنين من هى هذه الفتاة ؟ »

فقال : « لم اعرف الا انها غريبة وفدت على بيت اخى المامون »

قال : « لو ان مولاى تاملها لراى صورة ابيها فيها . انها بنت جعفر بن يحيى الذى قتله امير المؤمنين الرشيد جزاء خيانته ! »

فبغت الامين ونظر الى الفضل مشدوها وقال : « ابنة جعفر بن يحيى ؟ اظنك واهما »

قال : « كلا يامولاى ولو سالتها لاعترفت . وقدعلمت بنزولها بيت مولانا المامون صباح امس ، فكتبت الى قهرمانة القصر ان ترسلها لان امير المؤمنين يريد ان يراها ، فأجابت رسولى الشاكرى جوابا شديدا . ولم يسعنى غيرة على كرامة مولاى الا ان شددت فى طلبها ، ولم اكن احسب العلائق وطيدة الى هذا الحد بين طرائد امير المؤمنين وبين بيت اخيه . فالاجدر بأهل هذا البيت ان يكونوا عونا لنا على امثال هؤلاء . نعم انها فتاة لاخوف منها ، ولكن ماضر ان نستفهمها وهناك اسباب للظن . لاننى » . وسكت كانه يكتم شيئا يخشى ابداءه ، فابتدره الامين قائلا : « ولكن ماذا ؟ . قل »

فقال : « ان امير المؤمنين ادرى منى بما يحاك فى الخفاء ، ولا احب ان ادخل بينه وبين اخيه ، ولكننى لا استطيع السكوت عما يمس الدولة وحقوق المسلمين . فما معنى ان تأوى الى بيت مولانا المامون بنت جعفر عدو الخلافة الذى قتل جزاء دسه وخيانته واطماعه المامون فى ولاية العهد بعد ان كانت لامير المؤمنين وحده ، وهل لم يقنع المامون بولاية العهد ، فامتد طمعه الى الخلافة ؟ »

فلما سمع الامين ذلك اجفل وحدق فى الفضل تحديقا شديدا . ولولم يكن الفضل قد تعوده لهاب منظره ، لانه كان شديد الهيبة قوى البدن يلقى الاسد ولا يبالى . فاستدرك الفضل قائلا : « لا اعنى ان مولانا المامون يطلب الخلافة لنفسه ، ولكننى اخشى اذا طال حلم امير المؤمنين عليه ان يغريه بعض خاصته بطلبها »

فانصرف ذهن الامين عن ميمونة الى الخلافة واخيه ، وانما جره الفضل الى ذلك عمدا ليشغله عن لومه فى طلبها باسمه ، وليتدرج الى اغرائه بخلع المامون تأمينا لنفسه ، لعلمه ان المامون اذا افضت الخلافة اليه فلن يبقى عليه ولا على اهله وربما نكل بهم ، فلا نجاة له ولهم الا بخلعه عن خراسان ليتفرق مريدوه عنه ويضعف امره

فقال الامين : « ان هؤلاء الفرس اصل بلائنا ، فانهم ما زالو من زمن ابى

مسلم يناوئوننا ويمنون علينا بأنهم ساعدونا فى نيل الخلافة مع انهم لم ينالوا شيئاً الا باسمنا . وهم الآن يغرون اخى بأن يستأثر بها دونى »

فقال الفضل : « اذا كان امير المؤمنين فى شك مما اقول ، فهذا رئيس المنجمين فليسأله عن الرجل الخراسانى الذى اشرت بالقبض عليه يوم وصولى ان هذا الرجل رسول حزب الخراسانيين انصار المامون ، وقد ارسلوه ليدس الدسائس ويوقظ الفتنة ، وعلمت بأمره يوم كنت فى طوس فلما قدمت الى بغداد ارسلت فى طلبه فلم يجده العيارون فى منزله . ثم لقيت الملفان سعدون رئيس المنجمين امس ، وتحدثت معه فى ذلك ، وكان صاحب الشرطة معنا ، فعرف الملفان الرجل وقال : (انه هرب من بغداد الى احزابه الطامعين فى ارجاع الامر الى الفرس) . ولاريب فى انهم يتخذون اسم مولانا المامون وسيلة الى تحقيق مطامعهم ، فاذا بلغوا ماربهم فما اظنهم يستبقون احدا ولا المامون نفسه . لاتغضب يامولاى اذا صرحت بما يجول بخاطرى فان صالح الدولة يقتضى ذلك ، وها هو ذا ابن ماهان صاحب الشرطة يؤيد قولى . والرأى لأمير المؤمنين »

وكان الفضل يتكلم منفعلا متظاهرا بالغيرة على الدولة ، والامين يصغى له بكل جوارحه . وقد اهمه الامر فامسك عن التصريح برايه حتى يشاور ابن ماهان ، وعاد الى الكلام عن ميمونة فقال : « سننظر فى ذلك ، واما ميمونة التى ذكرت انها ابنة جعفر البرمكى ، فانها فى قصرنا بين جوارينا . ولا ارى ان نسىء اليها الا اذا ظهر لنا مايوجب ذلك ، وقد ترفقت بها لأجل بنت اخى»

فقال الفضل : « الرأى لأمير المؤمنين » . ولم يهمه امر الفتاة مثلما اهمه خلع المامون ، وان كان ابنه يؤثر ميمونة على كل الدولة لأنه شاب ربى فى مهد الرخاء ولم يعان السياسة وقضى ما مر من عمره متكلا على ابيه ، وقد علق بميمونة وما كان يريد بها الا خيرا ، ولولا ماسبق من حبها بهزاد وحقدها على الفضل ، لما كان ثمة ما يمنعها من قبوله

ورأى الفضل ان الامين يشير بفض الجلسة ، فنهض وخرج وظل الامين وحده يفكر حائرا فيما وعد به ابنة اخيه من اطلاق سراح ميمونة ، ويرى فى اطلاقها خطرا خوفه الفضل منه . ثم نهض وسار الى دار النساء ، وسأل عن مقر بنت اخيه فدلوه عليه

وكانت ميمونة قد شعرت عند دخولها قصر الخلافة بانقباض شديد ، وقام بذهنها انها اضاعت آمالها ، لعلمها بما ينويه حبيبها من الكيد للأمين ، فلم تجف لها دمعة رغم ماحاولته دنانير من التخفيف عنها . وكانت زينب تزداد شفقة عليها ورغبة فى انقاذها ، وقد بشرتها بما وعدها به عمها من اطلاق سراحها . فانقضت الليلة وميمونة يائسة لعلمها بأن الفضل لايسكت عن كشف حقيقتها للأمين حتى ينجو من اللوم

وفى صباح اليوم التالى جاءتها دنانير وزينب ، وادارتا الحديث معها للترفيه عنها ، ولكنها ظلت منقبضة النفس لايفرج كربتها غير البكاء ، ولاسيما أن جدتها ليست معها ، وأنها لاتعرف اين سلمان . فمكثت صامتة ودموعها تتساقط على خديها وقد ظهر عليها الذل والانكسار . وزاد هذا زينب انعطافا نحوها ، وكانت واثقة من وعد عمها . وبينما هن فى ذلك سمعن حركة وهرجا بين خدم القصر ، ثم جاءت بعض الجوارى تقول : « ان امير المؤمنين قادم ليرى ابنة أخيه »

فنهضت زينب للقائه بالباب ، ووقفت دنانير وميمونة احتراما . ثم دخل الامين وقعد على وسادة هناك ، واجلس زينب الى جانبه وسألها : « أفى شوق انت الى قصرك يا زينب ؟ »

فقالت : « كما يشاء أمير المؤمنين »

فاستحسن تأدبها على صغر سنها وقال : « لقد امرت القهرمانة باعداد هودج يحملك وحاضنتك الى دجلة ، ثم تركبان الحراقة الى القصر »

فنظرت اليه زينب نظر المدل الطامع وقالت : « وميمونة ؟ »

فقال وهو يضاحكها : « تبقى فى ضيافتنا يوما او يومين ، ثم نبعث بها معززة مكرمة » . قالت : « الست وعدتنى بأن ترسلها معى ؟ »

قال : « نعم ، ولكني رأيت ان تبقي عندنا ضيفة كما كانت عندك . وما اظنها ترفض الضيافة فى قصر الخلافة »

ورفعت زينب بصرها الى دنانير كأنها تستغيث بها ، فنظر الامين الى دنانير وقال : « قولى لمولاتك ان ميمونة ستبقى عندنا ضيفة مكرمة ثم نرسلها »

فعلمت دنانير انه مصر على استبقائها عنده ، وادركت سبب ابقائها لأنها تنسمت من اخبار القصر انه اجتمع فى الصباح بالفضل . فوقعت فى حيرة وقالت « ان امير المؤمنين لايرد امره ، وبقاء جاريته فى قصره شرف لها »

فلما تحققت ميمونة انها باقية سكتت والدمع ينحدر على خديها ، فوقع نظر الامين عليها فرق لها وكاد يأمر باطلاق سبيلها . ولكنه تذكر كلام الفضل فامسك ونهض قائلا لزينب : « سيرى فى حراسة الله يا ابنة أخى » . ثم اوصى بها دنانير خيرا ، والتفت الى ميمونة وقال : « لابأس عليك يا بنية » . وخرج فأمر قيمة الدار ان تعد ما يلزم لنقل زينب وحاضنتها الى قصر المأمون . فأرادت زينب أن تتعلق بميمونة وتمتنع عن الذهاب ، فامسكتها دنانير وافهمتها أن أمر الخليفة لايرد ولابأس على ميمونة . فلما خلت ميمونة الى زينب ودنانير بعد خروج الامين اطلقت لنفسها عنان البكاء حتى كاد يغمى عليها ، فأخذت دنانير تهون عليها ووعدتها بأن تخبر سلمان بخبرها ليسعى فى انقاذها ، كما وعدت بتوسيط سواه اذا اقتضى الامر ذلك

بين زبيدة وعبادة

عادت دنانير الى قصر المأمون فرأت عبادة أم جعفر في انتظارها على المسناة ، وكانت قد شاهدت ما أصاب حفيدتها من القسوة والاهانة حين اخذها الى الأمين ، وحدثتها نفسها بأن تصحبها الى هناك لكنها خافت أن يكون ذهابها سببا لزيادة النقمة عليها فامتثلت لمشورة دنانير عليها بالبقاء في القصر واعدة بارجاع ميمونة معها . فقضت بقية ذلك اليوم وطول ليله ساهرة وقد أخذ القلق منها مأخذا عظيما،وأصبحت فياليوم التالي فجلست على المسناة ترقب السفن النازلة حتى رات حراقة عرفت من شكلها أنها من سفن الأمين . فلما وصلت ولم تر ميمونة فيها صاحت : « أين ميمونة ؟ »

فأخذتها دنانير بيدها وقصت عليها الخبر، ومنتها بقرب رجوعها فقالت : « لا . لن ترجع . ان الأمين اذا عرفها لابد أن يوقع الأذى بها . ويلي ! لماذا لم أذهب معها فيصيبني ما يصيبها ؟ . لقد أضعت تعبي في خدمتها ! »

وجعلت تندب سوء حظها وتبكي بكاء الثكلى ، فأخذت دنانير تهون عليها حتى سكن روعها ، ففكرت فيما تستطيعه فيسبيل انقاذ حفيدتها ، ووقعت يدها على حق الزمرد الذى تحمله فخطر لها أن تستخدمه في هذا السبيل . وكان الناسيتحدثون منذ أيام بمجيء زبيدة أم جعفر والدة الأمين من الرقة ومعها خزائن الرشيد،فقالت في نفسها : «.لعلي اذا سرت اليها واستعطفتها باسم زوجها أن أثير عاطفتها بما في هذا الحق من آثار الرشيد فتتوسط عند ابنها لاطلاق سراح حفيدتي » . ولما خطر لها ذلك شعرت براحة وطمأنينة ، واستشارت دنانير في الأمر فاستحسنت رأيها.وقالت : « لم يبق لنا باب نطرقه غير هذا ، ولعل هذه المرأة اذا رأت آثار زوجها وسمعت ما أصابك من البلاء تنسى حقدها . سيري على بركة الله »

فخرجت عبادة في ظهر ذلك اليوم تقصد الى دار القرار قصر زبيدة ، وكان الأمر صعبا عليها ولكنها استسهلتكل صعب فيسبيل انقاذ ميمونة

وركبت من قصر المأمون حراقة أوصلتها الى قرب دار القرار ، فهبطت هناك ومشت بثوبها الاسود تتوكأ على عكازها وقد بدا الانكسار في محياها، والانكسار يبدو في الشيوخ مضاعفا

وبلغت باب القصر عند الأصيل ، فرأت عنده جماعة من الشاكرية وقوفا بأسلحتهم ، فوقفت وحيتهم فلم ينتبه اليها أحد ، فاقتربت من أحدهم

وقالت : « لعل مولاتنا أم جعفر في القصر ؟ »
فأجابها بقوله : « ماذا تريدين منها ؟ »
قالت : « أريد أن أراها وأتبرك بلثم ثوبها »
قال : « انها لا تأذن لأحد الآن ، واذاكنت تلتمسين احسانا فليس اليوم موعده »
قالت : « كلا يا ولدى ، لا أريد شيئا من ذلك ولكن لدى حديثا أريد أن أقصه عليها »
قال : « وما هو حديثك يا خالة ؟ »
قالت : « انه حديث خاص بها ، فأدخلني عليها اذا شئت »
فاستخف الرجل بقولها والتفت الى رفقائه وكانوا وقوفا يسمعون ما دار بينهما ، فتقدم شاكرى آخر وقال لها « أتريدين المثول بين يدى مولاتنا أم الخليفة نفسها ؟ »
قالت : « نعم أطلب الدخول على أم الخليفة السيدة زبيدة . وأرجو أن تستأذن لى فى ذلك ولا تماطلنى ، فقد أتعبنى طول الطريق ولا صبر لى على الوقوف ! »
فقال : « أراك مسكينة وسأطلب لك احسانا من قيمة القصر وأكفيك مؤونة الدخول على مولاتنا أم جعفر لأنها يندر أن ترى أحدا »
فأثر كلامه فى نفسها ، وتذكرت سابق أيامها وكيف أصبح حالها لا يدل على غير الاستجداء فقالت وهى تكاد تشرق بدموعها : « لست أطلب احسانا يا بنى ، ولكن لدى أمرا يهم مولاتنا أم جعفر أريد عرضه عليها ، فاستأذن لى ولك الفضل »
فلما رأى الشاكرى بكاءها رق لها ودخل للاستئذان ، وظلت هى بالباب وقد تعبت فقعدت على حجر . وبعد هنيهة عاد الشاكرى وهو يقول : «سألتنى عن اسمك »
فتحيرت بماذا تجيب وفكرت قليلا ثم قالت : « اسمى أم الرشيد »
فأجفل الجميع وأخذوا يتفرسون فيها وهم لا يعرفونها ، واستغربوا هذا الاسم فقال أحدهم : « اسمك أم الرشيد ؟ وأى رشيد تعنين ؟ »
قالت : « ألم تسألنى عن اسمى ؟ قل لها ان أم الرشيد بالباب تلتمس الدخول »
فعاد الشاكرى ومكثت هى فى انتظاره وقد سرها أن تتقدم الى زبيدة بهذا الاسم فلعله يكون فألا حسنا . وما عتم الشاكرى أن عاد وهو يقول : « تفضلى يا خالة ادخلى »
فدخلت فى أثر الشاكرى وهى تتوكأ على عكازها حتى تجاوزت الحديقة

لى باب القصر ، ونزعت نعالها ودخلت في الدهليز فانتهت منه الى غرف يستطرق بعضها الى بعض ، والجوارى القدودات يخطرن بين يديها وهن ينظرن اليها ويعجبن من حالها • أما هى فظلت تمشى مطرقة حتى وصلت الى قاعة كبيرة فاحت منها رائحة الطيب ، فلما أطلت على القاعة رأت سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل ، مكسوة بالوشي والسمور وأنواع الحرير بالوانه الزاهية ، ويتدلى على جدرانها ستائر مطرزة بأبيات من الشعر ، معلقة بكلاليب من الذهب • وفى أرض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه من الوسائد والكراسي ما يبهر النظر ولكنه لم يبهر عبادة لأنها ألفت مثله في قصر ابنها أيام نعيمها واقبال سعدها ، وانما كان همها اليوم أن تنال رضى زبيدة لتنقذ حفيدتها

فلما وصلت الى الباب رأت زبيدة في صدر القاعة متكئة على وسادة من الحرير الموشى فوق سرير من الآبنوس المرصع،فتركت عصاها خارجا والقت التحية باحترام ونظرت الىزبيدة ووقفت تنتظر أمرها بالدخول أو الجلوس• وكانت زبيدة مرتدية ثوبا سماوى اللون يأخذ بالأبصار ، وقد تعصبت بعصابة مرصعة بشكل الطاوس من الحجارة الكريمة على غير عادتها كأنها فعلت ذلك لتزيد في النكاية بعبادة المسكينة • فظلت هذه واقفة وزبيدة تلهو بجام من العاج فيه فتات المسك ، وتساقط بعضه فأخذت في التقاطه فظنت عبادة أنها لم تنتبه اليها وسعلت ، فرفعت زبيدة بصرها اليها شزرا وقالت : « من هذا ؟ »

فاستأنست بالسؤال ومشت نحوها وقالت : « أمتك عبادة » • ولما وصلت الى وسط القاعة نظرت اليها زبيدة وقلبت شفتها السفلى ورفعت حاجبيها استخفافا وقالت : « عبادة ؟• قيل لى ان أم الرشيد تطلب الدخول على ؟! »

قالت : « هى نفسها جاريتك يا مولاتى • انظرى الى وجهى فعسى شحوبه لا ينسيك صاحبته »

فضحكت زبيدة وقالت : «عرفتك يا عبادة!•ألا تزالين على قيد الحياة؟!»

فاستغلظت عبادة هذا السؤال لما فيه من الاحتقار ، ولكنها كظمت وقالت : « نعم لا أزال حية لسوء حظى »

فقهقهت زبيدة وقالت : « ذلك جزاء العقوق يا عبادة • اجلسى »

فجلست وهى ترتجف من الغيظ ، وندمت على مجيئها ولكنها تذكرت ميمونة وانها جاءت لانقاذها فهان عليها الأمر وقالت :« لم أنكر جميلا يا مولاتى ، ولكن لله الأمر ، يفعل ما يشاء »

قالت : « صدقت ، لله الأمر ، وهو يجزى كل نفس بما قدمت • أرأيت عاقبة سعيك وسعى زوجك وأولادك فى نزع الخلافة منا ؟• أرأيت عاقبة

العدر ؟ . أرأيت عاقبة الجرأة على مولاكم ؟ . أرأيت كيف رد الله كيدكم فى نحركم ؟ . لقد كنت أحسبك قضيت كمدا من الثكل فاذا أنت حية تسعين!»

وكانت عبادة تسمع كلام زبيدة مطرقة ، فلما انتهت قالت لهـا : « انما جئت الآن يا مولاتي مستعطفة ، فانك والدة وتعرفين انعطاف الوالدات ، وقد صرت جدة وتعرفين انعطاف الجدات »

فقطعت كلامها وقالت : « لشد ما أبطأ حنو الوالدة والجدة ؟ . أين كان ذلك الحنو لما أراد ابنك المقتول أن يخلع ابنى من ولاية العهد ليجعلها لابن مراجل » . تعنى المأمون

فقالت وقد جاشت أحزانها في صدرها وكاد الكظم يخنقها : « قلت لك يا مولاتي انما جئتك مستعطفة . ولا أستعطفك بحسنة أتيتها وانما أتقدم اليك مستشفعة بصاحب هـذه الآثار » . وأخرجت حق الزمرد ومفتاحه الذهب من جيبهـا ، ونهضت ومدت يدها نحوها لتعطيها اياه . فتباطأت زبيدة فى تناوله مبالغة في الازدراء ، تاركة يد عبادة ممدودة كأنها سـائل يستعطى . وأخيرا قالت لها زبيدة : « وما الذى يحويه من الآثار ؟ »

فأخذت عبادة تعالجه بالمفتاح ويداها ترتعشـان من ضعف الشيخوخة وشدة التأثر وتقدمت به الى زبيدة فاذا فى الحق خصلة من شـعر زوجها وبضع أسنان من أسنانه وقد فاحت منها رائحة المسك فقالت : « ما هـذا الشعر والأسنان ؟ »

قالت : « انها شعر مولانا الرشيد وأسنان طفولته . ألم أكن ظئره ؟ . ألم أرضعه ؟ ألم يكن يدعونى أم الرشيد ؟ بهذه الآثار أتوسل اليك أن تسمعى شكواى وترحمى ضعفى ليس من أجلى أنا بل من أجل فتـاة بريئة من كل ذنب ، وكانت في عهد تلك الأحداث طفلة ناشئة فى مهاد الرغد والرخاء ، وهي الآن يتيمة طريدة لا ملجأ لها ولا نصير ، وحياتها أو موتها بين شفتيك . بالله اعطفى عليها بكلمة تنقـذها من الموت » . قالت ذلك وشرقت بدموعها وناهيك بعجوز تبكى وتستعطف

فلما سمعت زبيدة كلامها ورأت ثنايا زوجها وشعره كاد الحنو يغلب على عواطفها ، فسكتت هنيهة وعبادة تراقب حركاتها ولم تشك فى انها أصغت الى ندائها

على أن زبيدة أغلقت الحق وقالت لها : «ألم تتقدمى بهذه الآثار الى الرشيد فى حياته ؟ »

قالت : « بلى فعلت »

قالت : « ولماذا تقدمت بها اليه ؟ »

قالت : « تقدمت اليه بها ليعفو عن زوجى يحيى »

قالت : « وماذا كان جوابه ؟ »

فحارت في الجواب ولكنها لم تر بدا من الصدق فقالت : «انه ردني خائبة يا مولاتي »

قالت : « وهل ينبغي أن أكون أنا أعرف منه لحقك يا عبادة ؟ »

قالت : « اني تقدمت الى الرشيد أطلب حقا كنت أحسبه لي عليه ، وأما الآن فاني أستعطفك وألتمس رحمتك ولا حق لي ٠ أطلب احسانك على فتاة لا شأن لها في أمرنا ٠ أما أنا فاذا ظننت اني أذنبت اليك فهـذا عنقي بين يديك ولا آسف على حياتي »

فقالت : « وأي فتاة تعنين ؟ »

فاستبشرت بسؤالها وقالت : « أعني فتـاة هي بقية ذلك القتيل السيء الطالع ، ساقها شقاؤها الى الفرار مما أصاب أباها وأعمامها وجدها فبقيت على قيد الحياة وظللت أنا حية لأعولها وأتولى تربيتها ، فقضينا السنين ونحن نتستر ونعيش عيش المتسولين وقبلنا حكم القضاء فينا،فساقت لنا الأقدار اناسا وشوا بنا الى أمير المؤمنين وحملوا الفتاة المسكينة الى قصره ، فخفت أن يغروه بقتلها ولم أجد لي بابا أطلب الفرج منه ســـواك فأتيتك بهذه الآثار لعلها تعطفك على تلك المسكينة ، وعسى كلمة يكون لها فيها الحياة فيأمر أمير المؤمنين باخراجها فأذهب بها وأقضي بقية الحياة معها في كوخ حقير أو أغادر هذه البلاد الى حيث تأمرين ٠ بالله ترفقي ٠ أسألك برأس ابنك وبحنـوك عليه الا أصغيت لتذللي ٠ وأنت تعلمين أني لم أستعطف أحدا في عمري حتى ولا الرشيد رحمه الله » ٠ ولم تعد تستطع امساك نفسها عن البكاء

وكانت عبادة تتوقع أن تسمع منها كلمة عطف فاذا هي تسألها : « وما اسم الفتاة ؟ »

قالت : « ميمونة يا مولاتي »

فابتسمت وحـول مبسمها هالة من الحقد والنقمة وقالت : « ميمونة ؟! جئت تطلبين النجاة لميمونة ؟ لماذا لم ينجها حبيبها الخراساني شاهر سيف النقمة على آل عباس ؟ ٠ هذا الذي لو أتيح له أن يشرب دمنا لشربه ! »

فلما سمعت قولها أرتج عليها ودهشت لاطلاعها عـلى سر كانت تحسبه مكتوما عن كل انسان ، وقد فاتها تفشي الجاسوسية في ذلك العصر وأن لكل انسان جاسوسا على صاحبه ، حتى الأب يتجسس على ابنه والابن يتجسس على أبيه ٠ وكان لزبيدة عيون في بيت المأمون يأتونها بالأخبـار عن كل حركة فيه ، وقد علمت بخبر الخراساني بالأمس ، وعزمت على أن تخبر ابنها به ولم تعلم أنه غادر بغدادا ونجا من حبائلها

أما عبادة فجمد الدم في عروقها ولم تحر جوابا ٠ فظلت ساكتة ثم خافت أن يعد سكوتها موضعا للتهمة فأرادت التنصل منها على قدر الامكان فقالت: « لم أفهم مرادك يا مولاتي ٠ من هو ذلك الخراساني وما شأننا والدسائس

ونحن لا نكاد نملأ جوفنا طعاما ؟ · بالله اقبلي رجائي فقدصغرت نفسي وهانت علي، وكل ما أطلب منك اخراج هذه الفتاة من قصر أمير المؤمنين ومهما تامري بعد ذلك أفعل »

فحولت زبيدة وجهها عنها ومدت يدها بالحق اليها وقالت : « كفي ياعبادة · خذي هذا الحق لعله ينفعك في غير هـذا السبيل · واذا كنت في حاجة الى عطاء من مال أو طعام أعطيناك »

فأيقنت عبادة الا خير يرجي من زبيدة وأنها تريد أن تصرفها فتنـاولت الحق وقالت : « كنت أقبل عطيتك يا سيدتي لو كان لي مطمع في الحيـاة ، فأستغفر لذنبي على ما بدا من جسارتي ، وأرجو أن يديم الله سعدك ويؤيد عرش ابنك » · قالت ذلك وتحولت تهم بالخـروج وهي تتوقع أن يلين قلب زبيدة بما سمعته فوصلت الى باب القاعة ولم تسمع صوتها ولا رأتها تحركت من مكانها · فأكبرت أن تخرج من بين يديها ذليلة مغلوبة على أمرها · فعادت اليها أنفتها وتذكرت حالها على عهد ابنها وما أصابها من المصـائب بسبب زبيدة وما رأته من قساوة قلبها وشماتتها بذلهـا · فالتفتت اليها فاذا هي لا تزال جالسة على السرير وعيناها على الوسادة تتشـاغل بالتقاط فتات المسك عنها وحول شفتيها ابتسـامة تغني عن شرح عواطفها اذ جمعت بين الاستخفاف وعز الانتصار وأنفة الكبراء وشماتة الحاقدين

وكانت زبيدة تريد رجوع عبادة لأنها لم تشف كل غليلها منها ولم تجبها ساعة الوداع رغبة في رجوعها وقد لذ لها الحديث مع امرأة ساعدتها الأقدار عليها حتي سحقتها سحقا بعد أن قتلت ابنها وأذلت زوجها وسـائر أهلها وشتتت شملهم واستباحت أموالهم وضياعهم وأصبح اسمهم فزعة يخافها المنتمون اليهم · وكان الرشيد قد نكب البرامكة برأي زبيدة وتحريضها ، فلذ لها النصر ، وليس ألذ لقلب الانسان من النصر · ولو حللت أسـباب السعادة تحليلا دقيقا لرأيتها ترجع الى النصر أو ما في معناه · فالمنتصر في الحرب يتمتع بالنصر على أبسط معانيـه ، وناهيك بلذة القائد عند ما يرى جيشه ظافرا وجيش عدوه مدحورا · وطلاب المال لا يجمعونه خوف الجوع فان الانسان يشبعه مالا يعجز أفقر الفقراء عن الحصول عليه ، وانما يجمع المال ليستعين به في تنفيذ أغراضـه أو تقوية نفوذه في الدولة أو الهيئة الاجتماعية ، وذلك هو النصر أو الفوز · وطلاب الشهرة على اختلاف وجوهها انما يطلبونها التماسا لمثل هذه اللذة ، فطالب الشهرة من طريق السياسة يشعر اذا مدحه الناس على عمل أعجبوا به أنه تغلب على آرائهم بقوة عقله ، وأن اعجابهم به انما هو اقرار بتقصيرهم عنه في ذلك السبيل · وطالبها من طريق العلم أو الشعر أو غيرهما من المهن القلمية يلذ له اعجـاب النـاس بنفثات يراعه أو بنات أفكاره مثل شعور القائد بانتصاره على أعدائه ، فلا عجب اذا لذ لزبيدة انتصارها الكبير على البرامكة، وخاب رجاء عبادة وتذللها

لديها لاستغراقها في تلك اللذة حتى نسيت عاطفة الشفقة أو تناستهـا أو لعلها أبعدت تلك العاطفة عمدا

فلما التفتت عبادة اليها ظلت هي مشتغلة بالتقاط المسك عن الوسـادة وقلبها يخفق توقعا لما عساه يبدو من تلك الوالدة المقهورة المغلوبة على أمرها، فاذا هي تقول لها : « أأخرج من بين يديك ولم أنل جوابا منك غير الشماتة والاستخفاف ، وقد تقدمت اليك بحرمة زوجك المدفون في طوس فاكتفيت بقولك ان الله انما أوصلنا الى هذه الحال جزاء ما جنته أيدينا٠٠؟ وقد سرني انك تعرفين ذلك وان الله قادر على مثله في كل زمان ومكان »

فنظرت زبيدة اليها فاذا هي قد تغيرت سحنتها من الاستعطاف والتذلل الى الغضب والنفور واحمرت عيناها وجف دمعهما وارتجفت شفتاها وارتعشت يداها ورجلاها حتى كادت تقع على الأرض لولا تجلدها٠وكانت قد تناولت عكازتها فتوكأت عليها ولم تزد على ما قالته وأخذت تبحث عن نعلها لتلبسها وتخرج فصاحت بها زبيدة : « عبادة ! »٠فتغافلت وظلت سائرة في الدهليز فصاحت بها ثانية : « عبادة يا أم الرشيد ! »

فلما سمعتها تناديها بهـذه الكنية استبشرت وتراجعت وكظمت ما في نفسها لعلها تستطيع أن تنفع ميمونة ، فالتفتت واحدى يديها على العكازة والأخرى على خصرها كأنها تتماسك من الضعف فوقعت عيناها على عيني زبيدة وهي ترجو أن تقرأ شيئا جديدا يشف عن انعطاف أو حنو فرأتهـا لا تزال تبتسم ابتسامتها المعهودة وقد زاده رهبة ما بدا في عينيها من دلائل الغضب ، فظلت عبادة بضع لحظات تتفرس في عيني زبيدة وتقرأ الغضب فيهما ، ولكنها غالطت نفسها رغبة في انقاذ ميمونة ، واذا بزبيـدة تقول بصوت مختنق : « أتدعين على ابني بالقتل ؟ »

قالت : « معاذ الله يا سيدتي ! أطلب اليه تعالى ألا يريك مكروها فيـه ٠ بل أتوسل اليه أن يحفظ كل أبناء الناس لعل حفيدتي المسكينة أن تصيب طرفا من عنايته » ٠ ثم تغير صوتها واختنق

فقطعت زبيدة كلامها وقالت : « أكنت تطلبين ذلك من قبل ؟ »

فأدركت عبادة أنها تشير الى أيام عزها قبل مقتل ابنها فقالت : « كنت أرجو ذلك ليبقى ابني ولكنني لم أكن أقوله بحرارة قلب ولهفة كما أفعـل الآن لأني لم أكن جربت الذل بعد٠كنت مثلك يا مولاتي لا أعرف من الدنيا الا نعيمها وراحتها ، وكنت أحسب الدهر يدوم لي فاذا هو قد أذاقني ما لم يسمع بمثله في الأرض »

فأدركت زبيـدة انها تعرض بما تخافه عليهـا من النكبة ، فكرهت أن تسمع شيئا يكدرها اذا هي أطالت الحديث معها ، فوقفت وأخذت تتشاغل باصلاح عقدها والعصابة التي حول رأسها كأنها تتأهب للخروج ٠ فاكتفت عبادة بما قالته وتحولت وخرجت الى قصر المأمون

الفضل بن سهل

فلنترك أهل بغـداد على ما هم عليـه لنرى ما كان من أمر بهزاد بعد رحيله ، فقد ذكر في كتابه الى ميمونة انه مســافر الى خراسـان ، وانه أوصى سلمان بما عليه أن يصنعه في أثناء غيابه • فغادر بغداد على فرسـه وقد شد ذلك الصندوق الى السرج ، وسلك أقرب الطرق وكان اذا بات في خان أو نزل به ادعى انه طبيب معه صندوق العقاقير • وبعـد أيام قطع في أثنائها جبالا وسهولا وأودية وأنهارا ، أشرف على مدينة « مرو الشاهجان » عاصمة خراسان في ذلك العهد•وهي في منبسط من الأرض ، حولها سور مربع الشكل ، وفي وسطها قلعة ضخمة يقال لها في اصطلاحهم « القهندز » تظهر للمطل على مرو من بعيد فيحسبها بلدا ، وكانوا يغرسون على سطحها الأشجار والمباقل كأنها بستان على رأس جبل • ولم يكن ذلك المنظر ليثير بهزاد فانه نشأ في هذه المدينة وشب فيها ، فدخل توا يلتمس منزل الفضل ابن سهل

وكان الفضل بن سهل منسرخس ، وقد نشأ مجوسيا ودرس علم النجوم ثم أدخله يحيي البرمكي في خدمة الدولة فيأيام الرشيد ولم يسلم الا سنة ١٩٠ هـ على مذهب الشيعة • وانما أسلم رغبة في نصرة الفرس بخراسان• وتعهده يحيي برعايته لحتى صار من خاصته ثم جعله قهرمانا له • ثم توسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلا فتوقع أن تصير الخلافة اليـه فلزمه وخدمه وتقرب منه • وكان المأمون يجله ويقدمه • فأصبح الفضل لا يطمع في أقل من الوزارة

ويحكى أن مؤدب المأمون قبلالخلافة لما رأى جميل رأيه في الفضلواكرامه اياه نقل ذلك الى الفضل وقال له : « لا أستبعد أن يحصل لك منه ألفألف درهم » • فاغتاظ الفضل وقال : : « والله ما صحبته لأكتسب منه مالا قل أو جل ، ولكني صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب ! »

وكان الرشيد لما بايع لولديه بولاية العهد جعل للأمين العراق والشـام الى آخر المغرب على أن يكون الخليفة بعده ، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق على أن يتولى الخلافة بعد أخيه الأمين • وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب الشيعة وفي جملتهم الفضل بن سهل • ولما أراد الرشيد سـنة

١٩٢ هـ ان يسير الى خراسان أمر ابنه المأمون أن يبقى في بغداد حتى يعود. وكان الرشيد مريضا فخاف الفضل أن يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه سدى . فجاء الى المأمون وقال له : « لست تدرى ما يحدث للرشيد ، وخراسان ولايتك ، ومحمد الأمين مقدم عليك ، وليس مستبعدا أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها كما تعلم . فاطلب الى أمير المؤمنين أن تسير معه » . فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولا ثم أجاب . فسار المأمون مع أبيه ومعهما الفضل ، وكان اهتمام الفضل منصرفا أثناء الطريق الى تأييد أمر المأمون فأخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم ، وأقر له الرشيد بجميع ما معه من الأموال. ثم نزل المأمون « مرو » قصبة خراسان ، واشتد المرض على الرشيد وهو في « طوس » والأمين في بغداد وله عيون مع الرشيد أشدهم غيرة عليه الفضل ابن الربيع وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على أبيه بعث الى ابن الربيع وغيره يحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر وحرضهم على اللحاق بالأمين فأطاعوه رغبة في الرجوع الى أهلهم في بغداد ، وأغفلوا العهود التي أخذت عليهم للمأمون ، وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الأمين وتمت له البيعة

فلما بلغ المأمون موت أبيه ورجوع رجاله الى أخيه بالأحمال والأموال وقد نكثوا عهده ، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو ، وشاورهم في الأمر مظهرا لهم ضعفه وأنه لا يقوى على أخيه . فنشطوه ووعدوه خيرا . ولبث الفضل يترقب الفرص لنيل بغيته التي أسلم لأجلها. وكان من جملة مساعيه قبل موت الرشيد أنه أنفذ بهزاد طبيبا الى بيت المأمون ، ومعه سلمان خادما له وهو من رجال الخرمية أيضا . وكانت المراسلات السرية دائرة بين بهزاد والفضل فلما مات الرشيد واستأثر الأمين بالخلافة وآن العمل في خراسان ركب بهزاد اليها ليكون مع الفضل

وكان الفضل يوم وصول بهزاد الى مرو جالسا في قصره مع أخيه الحسن، فجاءه الحاجب بأن بهزاد بالباب فأمر بادخاله ، فدخل وهو لا يزال بلباس السفر وفي يده الصندوق ، فوضعه بالباب وسلم ، فرحب به الفضل والحسن وأجلساه في صدر القاعة . وكان الفضل صفراوى المزاج رقيق البدن أصفر الوجه مع صحة ونشاط ، وهو يومئذ في حدود الكهولة اذا نظرت الى عينيه رأيتهما ينطقان بما في صدره من المطامع وما يضمره من المكايد وما يفكر في نصبه من الحبائل بهدوء ورباطة جأش . ولم يكن أخوه الحسن في مثل مزاجه ودهائه وكان أقرب الى اظهار ما في نفسه وتجلى أغراضه في وجهه . فلما جلس بهزاد أخذ الفضل وأخوه يسألانه عما وراءه، فقص عليهما ما جرى . فأعجبا بشجاعته وغيرته ، ثم سأله الفضل رأيه في

حزب الخرمية ببغداد،فأجاب بقوله : « انهم على دعوتنا لا يدخرون فيسبيلها مالا ولا نفسا »

قال : « وكيف فارقت ذلك الغلام ؟ » • يريد محمدا الأمين

قال : « فارقته بين الكأس والطاس والجواري والغلمان »

فقال الحسن : « ان دولته ذاهبة لا محالة ولكن •• »

فقال بهزاد على الفور : « ولكن ذلك لا ينفعنا الا اذا أذهبناها نحن »

فضحك الفضل ضحك الظافر وقال : « وانا لفاعلون ان شاء الله ، انما ينقصنا أن يستحكم الخلاف بين الأخوين حتى يستنصرنا هذا على ذاك فنشترط شرطنا

قال بهزاد : « لا تلبثون أن تسمعوا بذلك قريبا بفضل صاحبنا سلمان، والا ذهب اسلامك عبثا ! »

فشق هذا التصريح على الفضل لأنه مع اشتهار ذلك عنه واشتراك بهزاد معه فيه ، لم يكن يرضى أن يقال عنه انه أسلم رغبة في الدنيا ، أو لعله بعد أن أسلم احتيالا أصبح يرى الاسلام حقا • ولكنه سكت لأنه كان يريد أن يثبت قدم بهزاد في العمل معه لما أظهره من الكفاءة ، ثم نظر الى أخيه الحسن كأنه يكتم أمرا يتردد في التصريح به ففهم غرضه وابتسم ونظر الى بهزاد وبقي هذا ساكتا ، فابتدره الحسن بالكلام قائلا : « اننا نرى لك فضلا كبيرا في نصرة الفرس ، وسيأتي يوم تنال فيه نصيبك من الفوز »

فقطع الفضل كلامه قائلا : «بل يناله اليوم•فهل نجد آكفأ منه لبوران»• يعني بوران بنت الحسن بن سهل ، وكانت بارعة في الجمال يتحدث أهل خراسان بجمالها وتعقلها

فلما سمع بهزاد اسمها أجفل،لأنه مقيد القلب • ولكنه لم يكن يستطيع رفضا • وكاد الاضطراب يظهر في وجهه ولكنه تجلد وحنى رأسه شاكرا وقال : « انها نعمة لا أستحقها ، ولم أعمل عملا يخولني هذا الانعام ، ونحن لا نزال في أوائل الطريق ! »

فاستحسن الفضل عذره ولم يخطر له ببال أنه يتجنب الزواج ببوران وليس في كبراء خراسان واحد لا يتمنى رضاها وقال : «وتكون قد تدرجت في مناصب الدولة »

فقال بهزاد : « اعذرني يا سيدي واعفني من المناصب فأنا أخدم أمتي من طريق آخر » • ثم تحفز للوقوف وقال : « واستأذن الآن في الذهاب الى منزلي»•قال ذلك ومشي الى الباب وتناول الصندوق وهم بالخروج فاستوقفه الفضل قائلا : « ما هذا الصندوق ؟ »

قال : « انه صندوق العقاقير يا مولاي »

وخرج من القصر فركب فرسه وأوغل في المدينة مخترقا أزقتها الضيقة حتى بلغ الى بعض أطرافها وهو غارق في بحار التأمل ، وقد ساءه ما ذكره الفضل عن بوران لعلمه بأن الفضل يعني تزويجه بها ، وقد فاته انه انما قال ذلك ترغيبا له في مناهضة العباسيين ، ولو علم الفضل حقيقة بهزاد لرآه أرغب أهل فارس في مناهضتهم

فهاجت أشجانه ، وتذكر ميمونة وكيف تركها في بغداد والعداء لا يلبث أن يستحكم بين الأخوين وتنشب الحرب بين البلدين . ولكنه اطمأن لاقامتها بقصر المأمون . وأنسته هذه الهواجس طريقه فانتبه فاذا به قد جاوز المكان الذي يقصد اليه ، فدار حتى أتى زقاقا انتهى منه الى باب ترجل عنده ، ووقف والصندوق بيده وقرع الباب قرعا خاصا ولبث واقفا ، ففتح الباب وخرج منه عبد طويل جاوز مراحل الشباب ، فلما وقع نظره على بهزاد ترامى على يديه وأخذ يقبلهما ويقول : « سيدي .. سيدي . أنت جئت ؟ لقد طال غيابك ! » . قال ذلك وأراد أن يأخذ الصندوق منه فأباه عليه ومشى ، فأدخل العبد الفرس الاسطبل وأقفل الباب وسار بين يدي بهزاد مهرولا فرحا حتى وصلا في آخر الدهليز الى فناء واسع ، فتحولا من بعض جوانبه الى غرفة في صدرها عجوز طاعنة في السن قد شاب شعرها وتغضن جبينها وطال حاجباها حتى غطيا عينيها وقد تزملت بمطرف وجلست الاربعاء ، فلما أطل العبد عليها صاح : « مولاتي ، جاء سيدي . جاء سيدي »

فبغتت وصاحت : « جاء ؟ أين هو ؟ » . وكان بهزاد قد وصل اليها فجثا عند قدميها وقبل يدها ، فرفعت بصرها اليه وعانقته وضمته الى صدرها وأخذت تقبله وهي تبكي وتقول بصوت مختنق : « أهلا بولدي وحبيبي . أهلا بك . أنت جئت يا كيفر . لقد طال انتظاري يا بني وخفت أن أموت قبل أن أراك وأفي بنذري » . قالت ذلك وخنقتها العبرات

أما هو فتجلد وقال : « ما الذي يبكيك يا سيدتي ؟ فلنحمد الله على اللقاء »

فتراجعت وأمسكت عن البكاء وقالت : « اني أحمد الله حمدا كثيرا يا بني على رجوعك سالما . من أين أنت آت الآن ؟ » . قال : « من بغداد »

قالت : « وهل وفقت الى ما تريد ؟ » . قال : « وفقت وجئت بما تطلبين »

قالت وقد دهشت : « جئت برأسه ؟ » . قال : « نعم يا سيدتي »

قالت : « أين هو ؟ » . فأشار الى الصندوق وقال : « هنا »

فمدت يدها لتتناول الصندوق وقد نشطت كأنها استعادت شبابها وقالت : « في هذا الصندوق ؟ افتحه . أرني رأس مولاي . أرني اياه لأتمتع برؤيته قبل انقضاء أجلي ! »

فاعتدل في مجلسه ، والتفت الى العبد فانصرف من الغرفة . فلما خلا الى العجوز أخذ يعالج الصندوق حتى فتحه وأخرج جمجمة وضعها بين يديها

وقد فاحت منها رائحة التراب المتعفن ، فنظرت الى الجمجمة بعينين محلقتين وصاحت : « هذا هو راس أبى مسلم · هـذا هو رأس أبى · انك أحييتـه يا بني » · وأخذت تقبل الرأس وقد شرقت بدموعها

أما هو فكاد يبكى معها ولكنه تجلد وقال : « وستفرحين يا سيدتى متى انتقمت له ! »

قالت وقد ملكت أمرها رغم ما بدا من ارتعاش أناملها : « نعم يجب أن تنتقم له ، وأنا انما دعوتك «كيفر » رغبة فى ذلك · ان اسمك يا بنى معناه الانتقام · انك ستنتقم لهذا المقتول ظلما · وكيف عثرت عليـه وقد بلغنـا أنهم رموه في دجلة ؟ »

قال : « كنت أظن ذلك ، ولكننى عرفت شيخا كان حاضرا مصرعه فدلني على مدفنه فى المدائن وأعانني على اخراجه·هذا هو رأس أبى مسلم بلا ريب تفرسى فيه جيدا »

فأعادت النظر الى الرأس وعينـاها تغشاهما الدموع وقالت : « نعم هو بعينه ، يدلني على ذلك خفقان قلبى·وهل يخفي على رأس أبى ؟ نعم الرجل أنت ياكيفر ! · انك ستنتقم له ·· هل آن وقت الانتقام ؟ »

قال : « قد آن يا سـيدتى · وآن أن تقصى عـلى خبر نسبى وتمنحينى الوديعة التي وعدتنى بأن أستخدمها فى الانتقام »

قالت : « انها حاضرة يا ولداه ، تمهل قليـــلا · لابد من أن أقص عليك خبرها أولا ·· اجلس ·· ألا تتناول طعاما ! »

قال : « كلا يا سيدتى »

❑

نهضت العجـوز من مكانها منتصبة القامة كأنها فى عنفوان الشـبـاب ، وضغطت كتف بهزاد لتمنعه من النهوض معهـا ، ثم مشت الى خـزانة في جانب الغرفة وأخرجت من جيبها مفتاحا عالجت الخزانة به حتى فتحتها وهو ينظر اليهـا بلهفة ، فأخرجت لفافة مستطيلة من الخز ورجعت بها فوضعتها بين يدى بهزاد وقعدت وقالت : « أنت تعلم انى فاطمة بنت أبى مســـلم الخراسانى ؟ » · قال : « نعم »

قالت : « ويعتقد النـاس وأنت منهم أنك ربيت فى حجرى · لا تـعـرف أبويك ولا يعرفهما أحد سواى »

قال : « صدقت »

قالت : « ان جماعة الخرمية يكرمونني لأنى من دم أبى مسلم ، ولكنهم لا يعلمون أنك أنت من دمه أيضا »

فصاح قائلا : « أنا من دم أبي مسلم ؟ وكيف ذلك ؟ »
قالت وهي تبتسم : « لأنك ابني »
قال وقد أخذته الدهشة : « ابنك ؟ أنا ابنك ؟ »
قالت : « نعم يا ولدي . انك حشاشة كبدي » . وضمته الى صدرها وقبلته
فقبل يدها وقال : « وكيف ؟ »
قالت : « لأني تزوجت ولا يعلم الناس أني وضعت ولدا من أبيك فيزعمون انك غلام فقير احتضنتك وربيتك »
فاضطرب بهزاد والتبس عليه الأمر فقال : « وكيف اذن ؟ كيف أنا ابنك ؟ »
قالت : « لا تعجب . ان أباك محرز بن ابراهيم توفاه الله وأنا فيما يقرب من سن اليأس وظننتني عاقرا ، ولكنني لما توفي كنت حاملا بك ، وعند الوضع أخفيت خبرك حينا ثم أظهرت اني احتضنتك وربيتك . ولما كبرت غرست حب جدك أبي مسلم في قلبك وسميتك (كيفر) أى الانتقام . لأن أولئك الظالمين حرقوا قلبي بقتل جدك غدرا تلك القتلة الشنعاء . وما زلت منذ تزوجت وأنا أعد نفسي بولد أكرس حياته للانتقام لأبي ، اذ انه لم يخلف ابنا ينتقم له ، وطال انتظاري كما سمعت ، ثم جئت أنت فنذرتك لهذا الغرض . وقد حفظت من أثر جدك خنجرا لم يخنه قط ، وكان النصر مصباحا له طالما تقلده » . قالت ذلك وحلت اللفافة وأخرجت منها خنجرا استلته فلمع فرنده كالبرق ، ودفعته اليه وقالت : « انتقم لأبي مسلم بهذا الخنجر »
فتناول بهزاد الخنجر وقلبه بين يديه ثم قبله وأغمده وخبأه في جيبه وقال وهو يحسب نفسه في منام : « اني اذن حفيد أبي مسلم الخراساني . قد كنت أسعى للانتقام منه متأثرا بما ربيتني عليه ، أما الآن فأنتقم له لأنه جدي ! » . ولما قال ذلك أبرقت عيناه وثارت الحمية في رأسه وتذكر ميمونة، كما تذكر رأسا آخر فمد يده الى الصندوق وهو يقول : « وهنا رأس آخر نحن ناقمون على قاتله » . وأخرج يده وهو قابض على ذلك الرأس من شعرات في ناصيته يبس الدم عليها وقد جف جلد الوجه واسود والتصق بالعظم حتى يحسبه الناظر اليه عظما أسود
فنظرت فاطمة الى ذلك الرأس فلم تعرفه فقالت : « رأس من هذا ؟ »
قال : « تفرسي فيه . ألم تعرفيه ؟ »
فتفرست فيه وقالت : « لا .. لم أعرفه »
قال : « رأس جعفر القتيل الثاني »

فصاحت : « رأس جعفر ؟ جعفر بن يحيى ؟ »

قال : « نعم يا أماه . انه راس جعفر المقتول غدرا » . وحدثته نفسه أن يبـوح لأمه بحبه لميمونة ، ثم أطرق وهو يراجع فى ذهنه ما سـمعه من الغرائب فى تلك الساعة

قالت : « وكيف عثرت عليه يا بنى ؟ »

قال : « ألم تعلمى أن الرشيد غدر به وقتله ولم يكتف بقتله بل قطع بدنه قطعتين نصب كلا منهما على جسر من جسور بغداد ونصب الرأس على جسر ثالث . معرضة للحر والبرد والشمس والمطر سنتين ، حتى سافر الرشيد الى الرى وعند رجوعه عزم على الاقامة بالرقة فمر ببغداد وأمر أن تنزل جثة جعفر وتحرق وكنت أثناء نصب الجثة قد وكلت الى سلمان أن يسـعى فى الحصول على الرأس فلما أنزلوا الجثة احتال على الموكل بالاحراق وأخذ منه الرأس فحفظته فى هذا الصندوق حتى جمعت اليه رأس جدى »

فأعجبت فاطمة بما أتاه ولدها ، فقبلته وقالت : « ضع هذين الراسين فى الصندوق ، وضـع الخنجر معهما ، حتى يأتى وقت تجريده فتتقلده وأنت فائز باذن الله . ولكن اكتم ما ذكرته لك عن كل انسان ، وسيأتى يوم تتقلد فيه هذا الخنجر وتقتل به عدوك ، تقتل به بعض أبناء قاتل جدك .. ولكن احذر يا بنى أن تظهر للملأ ما تعمله فاذا دعيت الى الحرب فلا تكن قائدا أو أميرا »

فقال : « ذلك ما عزمت عليه . فانه لا أرب لى الا فى الانتقام »

فتنهدت وقالت : « هل أرى ذلك اليوم وأشفى غليلى ؟ »

قال : « أرجو أن تريه وتفرحى بى »

قالت : « وستجتمع بالخرمية . فكن لديهم على ما يحبون . فهم يعدونك زعيمهم لأنك ربيبى ، فابق معهم على هذه الحال لئلا يفسد عليك تدبيرك »

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وأعد الطعـام فنهضا وأكلا . وبات بهزاد (أو كيفر) ليله وقد أحس بنشاط جديد كأن روح أبى مسلم دبت فيه وتذكر ما يعلمه عن حال الخلافة فى بغداد وضعف أمرها فتوقع أن تسنح الفرصة للانتقام عند ما يخلع الأمين أخاه وكان واثقا من ذلك وعالما بما دبره سلمان فى هذا الشأن

ونهض فى اليوم التالى فسار الى حيث اجتمع ببعض كبار الخرميـة فى خلوتهم السرية ، فشجعهم وأبلغهم ما شاهده من اسـتعداد أنصارهم فى بغـداد لنصرتهم بما يملكون ، وتباحثـوا فى تدبير الأمور والتربص ريثما يأتى الوقت للانتقام . وكان ينتظر ما يأتيه من أخبار سلمان ببغداد

قضى فى ذلك أياما دون أن يجتمع بالفضـل ، ثم أصبح ذات يوم فاذا

بهجان جاءه بكتاب خبأه في نعاله حذرا من أن يراه أحد ، فتناول الكتاب وعلم من خاتمه انه من سلمان ، ففضه وقرأه فاذا فيه :

« من سلمان خادم الخرمية الى رئيسهم ومقدامهم بهزاد

« أما بعد ، فقد علمت ما نحن ساعون فيه وقد وفقنا الى ذلك بالأمس فان الفضل بن الربيع لما قدم من العراق بعد أن نكث بعهد المأمون ، أصبح خائفا على نفسه منه اذا ولى الخلافة ، وراح يعمل على تجنب هذا الخطر ، وقد حنه رئيس المنجمين على اغراء الخليفة بخلع أخيه من ولاية العهد ليختص بها موسى بن الأمين ، وشاور الأمين في ذلك ابن ماهان ، وهو كثير الثقة بهذا الشيخ المغرور ، فأشار عليه بالمبادرة الى تنفيذه ٠ فقبل مشورته ، وجعله شيخ الدعوة ونائب الدولة ، ولا يبعد أن يوليه قيادة الجيش٠٠ولئن نشبت الحرب لتكونن قيادته شؤما على الخليفة ، فابن ماهان مغرور لا ينفع ٠ وقد علمت هذا الصباح أن الأمين كتب الى عماله بالدعاء لابنه موسى بالامارة ، وأظنه يبعث الى المأمون في خراسان يطلب اليه أن يخلع نفسه ٠ فافعلوا ما ترونه ، ونحن هنا في خير والسلام »

فلما أتى على آخر الكتاب انشرح صدره وشعر أنه تقدم خطوة كبرى نحو الغرض المطلوب ، وكان وقتئذ في منزل أمه فأطلعها على الكتاب فاستبشرت وقالت : « قد دنا الوقت يا بني ولا أظن الفضل بن سهل يجهل ما يجب عليه في مثل هذه الحال ، واذا جهله فهل تجهله أنت أيضا ؟ »

قال : « ارشديني برأيك يا أماه »

قالت : « اذا استفحل الأمر بين الأخوين فعلى الفرس أن ينصروا المأمون فينصرهم ويرعى حقهم ، ولكنهم اذا أرادوا بعد ذلك أن يتخلصوا من المأمون، ليستأثروا بالسلطان لأنفسهم بلا خلافة . فلا شك في أن سعيهم يذهب عبثا لأن العامة لا يحكمون الا بالدين »

قال : « ولكن معنا خليفة هو المأمون نحكم الناس به »

قالت : « وهل يخلد المأمون ؟ انه اذا مات انتقل الأمر الى بعض أهله ، وقد يكون خليفته راضيا عنا وقد يكون ناقما علينا كما كان الرشيد فينتقم منا شر انتقام ! »

فوقع قولها من نفسه موقعا عظيما ، وأعجب بدهائها وتذكر ما دار بينه وبين كبار الخرمية ليلة الايوان في المدائن وقال : « وما الرأي اذن ؟ »

قالت : « الرأي أن تهيئوا منذ الآن مستقبلا ثابتا لأعقابكم ٠ فاذا لم يكن بد من وجود خليفة عربي فالعلويون أقرب مودة لنا من سائر العرب فاشترطوا على المأمون اذا نصرتموه أن يجعل الخلافة بعده لبعض العلويين

(الشيعة) فيتم لكم ما تريدون · فاعرض هذا الرأى على الفضل بن سهل، وانظر ماذا يرى »

فلما سمع نصيحتها هم بيدها فقبلها ، واستأذنها في الذهاب الى الفضل ليطلعه على كتاب سلمان ويباحثه في الأمر· ثم خرج وتوجه الى القصر فبلغه عند الضحى ، ودخل دون أن يعترضه الحاجب لعلمه بمنزلته عند مولاه ، فمر في الحديقة وسار توا الى مجلس الفضل وأخيه وكانا يقيمان معا بذلك القصر فرأى في طريقه قبة وسط الحديقة ، يقف ببابها غلام · فأيقن أن الفضل جالس تحتها ، واتجه اليها محاولا الدخول ، فاذا بفتاة خارجة منها في غير كلفة لأنها لا تعلم بوجود أحد غريب هناك ، فوقف بهزاد ذاهلا ووقع نظرها عليه فأجفلت وبدت البغتة في محياها وتوردت وجنتاها خجلا،ووقفت لحظة كأنها صنم لا يتحرك ، وارتبكت في أمرها لا تدرى : أترجع الى القبة وفي رجوعها ضعف ؟ أو تقابل القادم وتحييه ؟

وكانت بملابس البيت ، وعلى رأسها نقاب خفيف اذا أسدلته على وجهها لم يغط الا بعضه ، فلما وقع نظر بهزاد عليها أعجب برونق جمالها واشراق محياها وبريق عينيها بما يتجلى فيهما من الذكاء والحياء ، فخجل لما سببه لها عفوا من الانزعاج ، وابتدرها قائلا : « العفو يا مولاتى · أظنني أزعجتك ؟ وانني أريد مولانا الفضل وقد حسبته في هذه القبة على عادته »

فقالت وهي تنظر اليه نظر السذاجه وصفاء النية : « ان عمى الفضل خرج مع أبى هذا الصباح للاجتماع بالمأمون · وليس في قدومك أى ازعاج، واذا صدق ظني فأنت صديقهما بهزاد ؟ » · وسكتت كأنها تنتظر جوابه فابتدرها قائلا : « نعم يا سيدتى يسموننى بهزاد »

فقالت : « ان والدى وعمي معجبان بك ولو كانا هنا لفرحا بقدومك · اجلس اذا شئت »

فأعجب بهزاد بظرف الفتاة وذكائها على صغر سنها ، وعلم أنها بوران بنت الحسن بن سهل ، وتذكر تلميح عمها في شأنها فرأى أنها جديرة أفضل الرجال ، ولو لم يكن قلبه مشغولا لكانت نصيبا حسنا · فأجابها بقوله : « أشكرك يا سيدتى على تلطفك ، وكنت أود البقاء هنا ولكنى أرانى مضطرا الى الذهاب الى مجلس المأمون أيضا » · قال ذلك وتحول يطلب قصر المأمون ، وهو قصر الامارة لأن المأمون كان يومئذ أميرا على خراسان

المامون

كان المامون فى خراسان حينما مات ابوه الرشيد ، فلما بلغه ما فعله الفضل بن الربيع من نقض بيعته والعودة بالأموال من طوس الى بغداد ، جمع اصحابه من الفرس فى مرو ــ وكبيرهم يومئذ الفضل بن سهل ــ واستشارهم ، فأشار اكثرهم عليه بأن يدرك ابن الربيع واصحابه «بجريدة» فيردهم . ولكن الفضل بن سهل حذره من ان يترك خراسان وقال له : « ان فعلت ذلك جعلوك هدية لأخيك . والراى ان تكتب اليهم كتابا وتوجه رسولا يذكرهم بالبيعة ويسألهم الوفاء »

فعمل المامون برايه ولم يجد فى ذلك نفعا اول الأمر ، فقلق وخاف العاقبة، ولكن الفضل اخذ يطمئنه وقال له : « انت نازل فى اخوالك ، وبيعتك فى اعناقهم . فاصبر وانا اضمن لك الخلافة » . واشار عليه بأن يلزم التقوى لأن العامة لا تحكم بشىء حكمها بالدين . وكان المامون عاقلا حكيما لطيفا ودبعا رقيق الجانب يحب العلم وقد تفرغ له لما اقام بخراسان وفيها جماعة من العلماء ، فكان يقضى نهاره فى مجالستهم ومباحثتهم حتى اطلع على علوم القدماء ولا سيما الفلسفة . وكان ربعة فى الرجال ، ابيض جيلا ، طويل اللحية خفيف الشعر ، ضيق ما بين الحاجبين ، فى خده خال اسود ، وفى عينيه ذكاء ولطف اشتهر بهما حتى ضرب به المثل وقد تربى على مذهب الشيعة واحبهم ، لانه شب فى حجر البرامكة ثم الفضل بن سهل

ولبث المامون فى خراسان ينتظر مايكون من اخيه الامين ، حتي جاءه منه يوما وفد يكلفه ان يبايع لموسى بن الامين ويقدم اسمه فى الخطبة ، ويدعوه الى بغداد بحجة انه قد استوحش لبعده . فارتاب المامون وبعث الى الفضل يستشيره فى الامر ، فجاءه هذا الى قصر الامارة وخلا اليه فى مجلس خاص لم يحضره الا خواص الأمراء وفى مقدمتهم اخوه الحسن

فقال المامون : « جاءنا من اخينا وفد يطلبون الى ان اقدم ابنه موسى على ويدعوننى ان اذهب اليه » . فقال الفضل : « اما تقديم ابنه ففيه نكث للبيعة ، والله على الباغى . واما خروجك من خراسان فان عزمت عليه فأنت صاحب الامر ، ولكنك تفقد كل امل فى الدفاع عنك . وليس هذا قولى فقط بل هو قول الخراسانيين جميعا . وهذا هشام كبير وجهاء خراسان فليسأله مولاى »

وبعث المأمون الى هشام ، فلما جاءه واستشاره ، قال : « انما بايعناك على الا تخرج من خراسان . فاذا خرجت منها فلا بيعة لك فى اعناقنا . ومتى هممت بالمسير تعلقت بك بيميني ، فاذا قطعت تعلقت بيسارى ، فاذا قطعت تعلقت بلسانى ، فاذا ضربت عنقى كنت قد اديت ما على ! »

فلما سمع المأمون قوله تشجع ، والتفت الى الفضل فقال له « ذلك ما يراه كل الخراسانيين وهم اخوالك » . ثم اشار عليه باسقاط اسم الأمين من الخطبة والطراز ، وقطع البريد عنه ، ففعل وولاه الوزارة فى حالى الحرب والسلم وسماه ذا الرياستين

وفيما هم فى مجلسهم دخل الغلام يستاذن لبهزاد الطبيب ، فسأل المأمون عنه فقال الفضل : « هو طبيب قصركم فى بغداد » . فتذكره وقال : « يدخل »

فدخل بهزاد وحيى ، فأشار اليه المأمون بالجلوس فجلس ، ثم سأله المأمون : « كيف فارقت بغداد ؟ » . فقال : « فارقتها وهى تندب اهل الصلاح ، على ان اهل امير المؤمنين والحمد لله فى خير وعافية ، ولكن . . » . وسكت

فقال المأمون : « ولكن ماذا ؟ »

قال : « ولكن لا اعلم كيف يكون حالهم بعد ان استفحل امر اصحاب المطامع حتى نكثوا البيعة ، فاذا رأى امير المؤمنين ان يستقدم اهله اليه فعل ! »

فقال : « اصبت ايها الطبيب ، انى فاعل ذلك ان شاء الله »

وانما أشار بهزاد بذلك على المأمون رغبة فى استقدام ميمونة ونجاتها من أعدائها ، ولم يكن سلمان قد أخبره بشىء مما اصابها فى بيت الأمين

وسأله المأمون : « وكيف فارقت ام حبيبة ؟

فقال : « فارقتها بعافية وشوق الى أبيها »

فابتسم المأمون عند ذكر ابنته لأنه كان يحبها كثيرا ويعجب بذكائها وتعقلها على صغر سنها وتحقق أن بقاء اهل بيته فى بغداد لا يخلو من الخطر فعزم على استقدامهم ، فالتفت الى الفضل الجالس بجانبه وقال : « كيف ترى الطالع اليوم ؟ هل يستحسن ان نرسل فيه من يحمل الينا اهلنا ؟ »

فاخرج الفضل من جيبه اسطرلابا صغيرا من الذهب كان لا يفارقه ، واطل من بعض نوافذ القصر ونظر فيه وعاد فقال : « لا بأس بالذهاب اليوم يا سيدى ، ولكن الذهاب غدا افضل »

فعهد المأمون الى خادمه نوفل فى السفر الى بغداد لاستقدام اهل بيته ، ثم التفت الى الفضل وسأله : « وبماذا نجيب وفد الامين ؟ »

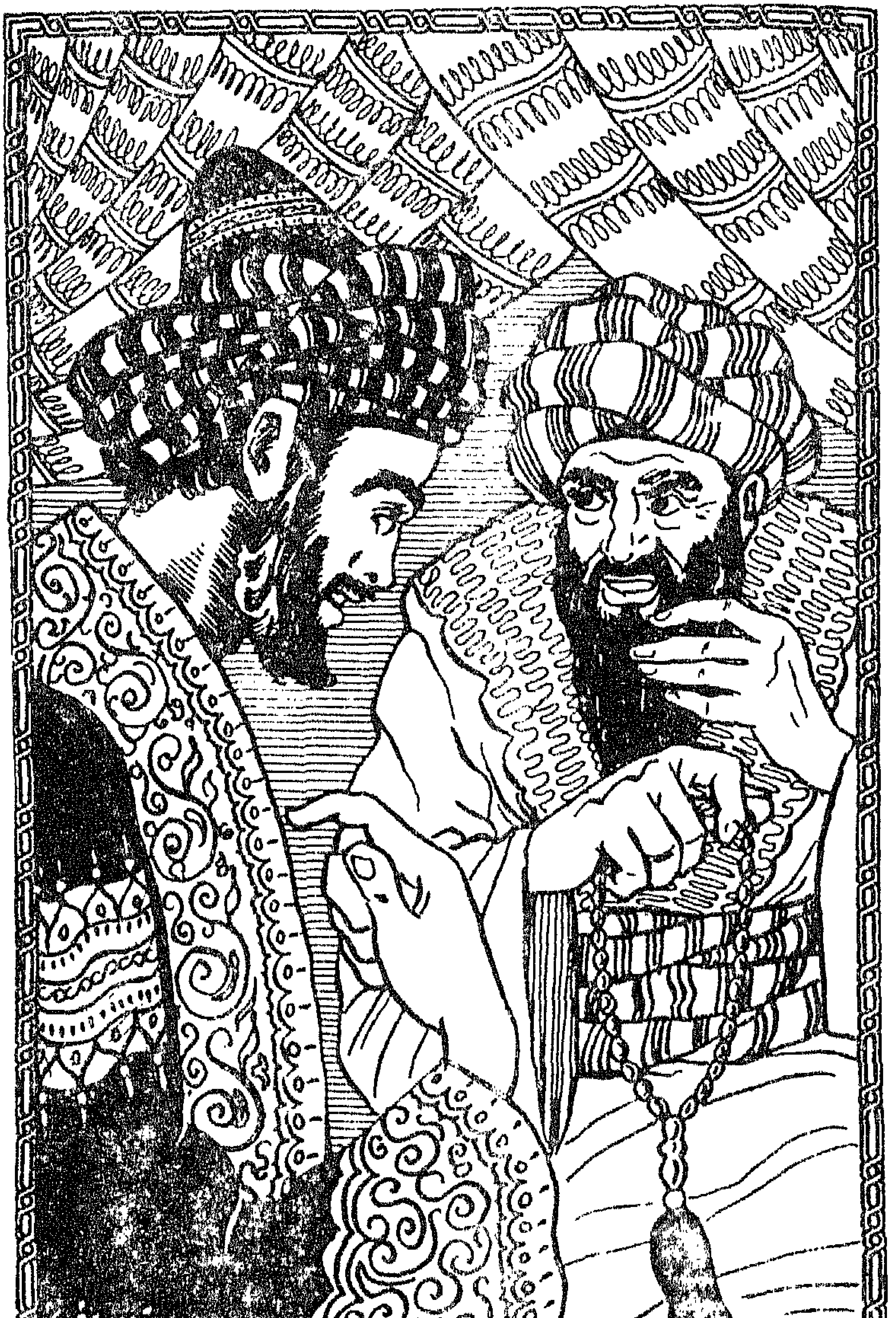

وقال المأمون لوزيره : « جاءنا من أذنة وفد يطلبون الى أن أقدم ابنه موسى على .. »

قال : « الراى لأمير المؤمنين ، واذا اذن فى ابداء رايى فارى أن ترد الوفد خائبا ،فانك بين اخوالك امنع عليه منك فى بغداد بين رجاله وكلهم يداجونه ويتملقونه . كما ارى أن تلاينه وتكتب اليه كتابا رقيقا لا تظهر فيه عزمك على مناواته ، بل تتلطف فى استعطافه فان ذلك اقرب الى الدهاء فى السياسة ! »

فاستحسن المأمون الراى وكتب الى اخيه الأمين كتابا قال فيه : « اما بعد فقد وصل الى كتاب امير المؤمنين ، وانما انا عامل من عماله ، وعون من اعوانه . وقد امرنى الرشيد بلزوم الثغر ، ولعمرى ان مقامى به لأعود بالفائدة على سلطان امير المؤمنين ، واعظم غناء للمسلمين . وان يكن فى شخوصى الى بغداد ما يحقق املى فى قرب امير المؤمنين والاغتباط بمشاهدة نعم الله عنده . فان راى أن يقرنى على عملى ويعفينى من الشخوص فعل ان شاء الله » . ودفع الكتاب الى رئيس الوفد

ثم تحرك المأمون ، فعلم اهل المجلس ان قد آن لهم ان ينصرفوا فنهضوا وبهزاد اكثرهم رغبة فى القيام ليبلغ الفضل راى امه فى البيعة لأحد العلويين على ان يجعل ذلك شرطا من شروط نصرة المأمون

فصبر بهزاد حتى رجع الفضل الى منزله فتعقبه وطلب الخلوة به ، فلما خلوا بدأ بهزاد فى الثناء على ما ابداه الفضل من الراى الصائب فى المجلس ، ثم مد يده ودفع اليه كتاب سلمان وقال : « اقرأ هذا الكتاب »

فقراه ولم يأت على آخره حتى غلب عليه الضحك وقال : « اذا صح ظن سلمان ، وعهد الأمين بقيادة جنده الى ابن ماهان . كان ذلك غاية توفيقنا . وهــذا ما كنت اتمناه واسعى اليــه ، لأن ابن ماهان ــ فضلا عن غروره وضعفه ــ تولى خراسان ايام الرشيد واساء السيرة فى اهلها وظلمهم ، فعزله الرشيد لذلك ونفر اهل هذه البلاد منه وابغضوه فاذا حاربوه يحاربونه وهم ناقمون عليه . وهو يظن اهل خراسان يحبونه لأن بعضهم خدعه بكتب بعثوا بها اليه يعدونه اذا جاءهم بأن يستسلموا اليه . وهذا ما كنت اتمناه منذ بدأ الخلاف بين الأخوين »

فقال بهزاد : « ماذا تعنى بتوفيقنا يا مولاى ؟ »

قال : « اعنى أن ننتصر على الأمين ونخلعه ونولى المأمون مكانه »

قال : « وما نفعنا من ذلك ، اليس كلاهما عباسيا عربيا ، وكلاهما ابن الرشيد قاتل جعفر وحفيد المنصور قاتل ابى مسلم ؟ »

قال : « ولكن المأمون ابن اختنا وعلى مذهب الشيعة مثلنا ، وهو صنيعتنا يعمل برأينا فيكون النفوذ لنا »

قال : « هل تضمن بقاءه على ولائنا ؟ واذا ضمنت ذلك فهل تضمن أن يكون خليفته مثله اذا توفى . . هل تأمن لبنى العباس بعد ما ظهر من غدرهم بنا وبغيرنا غير مرة ؟ »

وكان الفضل يسمع مطرقا كأنه افاق من رقاد ، فلما بلغ الى هنا رفع الفضل بصره اليه وقال : « صدقت يا بهزاد . وقد فهمت مرادك . انك اصبت كبد الحقيقة ولا بد ان نتدارك ذلك من اليوم » . وعاد الى الاطراق وهو يحك عثنونه ثم قال : « ان الخلافة لا بد منها للسيادة ، وهى لا تكون الا فى آل النبى من بنى هاشم . واقربهم مودة الينا العلويون ، وبين ظهرانينا منهم اليوم على موسى الرضا من اعقاب الحسين بن على بن أبى طالب ، وهو عاقل حكيم ، والمامون يحبه ويقدمه فارى ان نشترط على المامون من الآن ان يجعله ولى عهده فتنتقل الخلافة بعد موت المامون من العباسيين الى العلويين » . قال ذلك وأشرق وجهه فقال بهزاد : « انه الرأى الصواب يا سيدى . ونهض للخروج فقال له الفضل : « اذا اتتك رسالة مثل هذه من سلمان فأطلعنى عليها »

ورجع بهزاد الى منزل امه وما زال قلقـا على ميمونة . ولبث ينتظر وصول اهل المامون بفارغ الصبر ، لاعتقاده انها ستكون معهم

دخلت سنة ١٩٥ هـ وفيها جاهر الأمين بخلع اخيه ، واسقط نقودا كان قد ضربها المامون بخراسان باسمه وليس عليها اسم الأمين ، وأمر فدعى لابنه موسى على المنابر ، ولقبه بالناطق بالحق وقطع ذكر المـامون وبايع لابنه الآخر عبد الله ، ولقبه بالقائم بالحق

فاستشار المامون الفضـل فى امر التجنيـد ، فاغتنم الفضل الفرصة واشترط عليه مبايعة « على الرضا » ــ زعيم الشيعة فى خراسان بعده ــ فعظم ذلك على المامون ولكنه لم ير بدا من أن يطاوعه فوعده ان هو نجح فى حربه وفاز على اخيه ونال الخلافة بأن يبايع لعلى الرضا بولاية العهد. فأخذ الفضل ــ ذو الرياستين ــ فى التأهب للحرب والتجنيد ، وأعد جندا بقيادة طاهر بن الحسين ــ ذى اليمينين ــ وانفذه الى « الرى » لملاقاة جند الأمين اذا جاءوا قاصدين خراسان . وكان طاهر قائدا باسلا على صغر سنه اذا قيست بسن ابن ماهان

اما بهزاد فقد كان يترقب رجوع اهل المامون أو خبرا من سلمان. وعرض عليه الفضل أن يتولى قيادة الجند فأبى ، ثم جاءه كتاب من سلمان قال فيه :

« لقد صدق ظنى ونجح سعيى وتقلد ابن ماهان رياسة الجند الخارج لقتالكم ، وكتابى هـذا اليك وهو يغادر بغداد وقد شـيعه الامين نفسه . وذكر مشايخ بغداد انهم لم يروا عسكرا اكثر رجالا واوفر كراعا وأتم عدة وسلاحا من عسكره ، وهو يعتقد ان اهل خراسان يحبونه وقد أتته كتب يعدونه فيها بالطاعة اذا جاءهم . ولما علم أن طاهر بن الحسين ولى قيادة

جند المأمون استخف به وقال : (انما طاهر شوكة من اغصاني ، وما مثل طاهر يتولى الجيوش) ثم قال لأصحابه : (ما بينكم وبين ان ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصفة الا ان يبلغه عبورنا عقبة همدان ، فان السخال لا تقوى على النطاح ، والبغال لا صبر لها على لقاء الأسد ، وان اقام تعرض لحد السيف واسنة الرماح . واذا قاربنا الري ودنونا منهم فت ذلك في اعضادهم) . وقد اقطعه الامين بعد ان ولاه امرة الجند كور الجبل كلها ، وولاه جزيتها وخراجها ، واعطاه الاموال وحكمه في الخزائن ، وجهز معه خمسين الف فارس . وكتب الى ابي دلف العجلي وهلال الحضرمي بالانضمام اليه ، وامده بالاموال والرجال شيئا بعد شيء . وقد خرج ابن ماهان بحملته من هنا والناس يتوهمون انه ظافر لا محالة لكبر سنه . ولما ذهب لوداع زبيدة ام الأمين على العادة المتبعة أوصته بأن يرفق بالمأمون اذا قبض عليه فقالت له : (ان امير المؤمنين وان كان ولدى ، واليه انتهت شفقتي ، فاني على عبد الله المأمون لمتعطفة ، مشفقة مما يحدث له من مكروه واذى ، وانما ابني ملك نافسه اخوه في سلطانه الكريم فاضطر الى أن يأكل لحمه ، فاعرف لعبد الله حق ولادته واخوته ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست بنظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد ولا غل ، ولا تمنع عنه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ، ولا تساوه في المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه ، وان شتمك فاحتمل منه) . ثم دفعت اليه قيدا من فضة وقالت : (ان صار اليك فقيده بهذا القيد) . فوعدها بذلك . واوصاه الأمين ايضا بمثل هذه الوصية . وقد علمت ان مولانا المامون بعث في استقدام اهل بيته اليه ولا يلبثون أن يصلوا اليكم ، وانت تتوقع أن ترى ميمونة معهم فلا يشق عليك الا تراها فانها باقية هنا ، ولم اخبرك بذلك من قبل حتى لا تقلق . واما الآن فلا سبيل الى كتمان ذلك عنك لأنك ستعلمه من دنانير او غيرها . فهي مقيمة ببيت الخليفة ولا خوف عليها ، ولهذا قصة طويلة ستقصها عليك دنانير ، فلا يزعجك ذلك ما دمت في منصبي حريصا على سلامتها . والسلام »

فلما قرأ بهزاد الكتاب ، اسودت الدنيا في عينيه رغم ما حواه من الأخبار المبشرة بالنجاح ، لما جاش في صدره من الغيرة على ميمونة ، ونقم على سلمان كتمان امرها عنه . ووقع في حيرة لا يدري أيخرج من « مرو الشاهجان » لملاقاة ابن ماهان في الري ؟ ام يمكث حتى تأتي دنانير فيسمع منها خبر ميمونة ، فغلب عليه هواه — والمحب مغلوب على امره — ومكث ينتظر مجيء اهل المأمون ليطمئن على ميمونة قبل خروجه للقتال ، وعلمت أمه بذهاب الجند الى الري وعجبت لبقائه عندها فقالت له : « ان الخنجر في الصندوق ، فمتى انت ذاهب ؟ »

فخجل وتناول الصندوق وقال : «اني ذاهب الساعة وقد جئت لوداعك»

فكشفت عن صدرها وولت وجهها شطر السماء وبسطت ذراعيها وقالت : « ان الله عونك على القوم الظالمين الذين قتلوا جدك غدرا وسلبونا حقنا وحرمونا ثمار تعبنا » . ونهضت وضمته الى صدرها وقبلت عنقه ، وطال عناقها له واحس بدموعها تنحدر على عنقه فأثر فيه ذلك كثيرا وكاد يبكى معها ولكنه تجلد وقال : « لماذا تبكين يا اماه ؟ »

فرفعت راسها وقد تكسرت اهدابها من البكاء وبان الحزن والكآبة فى وجهها وقالت : ابكي يا ولدى لانى لا أدرى أاراك ثانية ام لا ؟ »

قال : « أرجو ان اعود سالما ظافرا واراك فى صحة وعافية وتفرحى بما اصبناه من الانتقام لجدى »

قال ذلك وقبل يديها ، ثم تناول الصندوق فاخرج الخنجر منه فتقلده ، ولبس ثياب السفر والتف بالعباءة فوق القباء والسراويل ، وتلثم بالكوفية فوق القلنسوة ، وجيء اليه بفرسه فركبه واراد ان يأخذ الصندوق معه فامسكت به امه وقالت : « دع هذا الصندوق هنا وفيه راسان عزيزان فاما ان تشفعهما براس او اكثر من رؤوس اعدائنا قتلة جدك ، واما ان يبقى الراسان هنا فنستانف البكاء حتى نموت »

فاثر قولها فى نفسه وقال : « بل ارجو الا تستانفوا البكاء يا اماه » . وترك الصندوق عندها ، وحول شكيمة جواده ومضى . ولم يسر الا قليلا حتى انتبه لنفسه وراى انه سيق الى ذلك الرحيل خجلا من امه بينما قلبه لا يطاوعه على ترك مرو قبل مشاهدة دنانير واستطلاع حال ميمونة ، ونقم على سلمان لأنه لم يبسط خبرها فى كتابه . وما زال سائرا فى اسواق مرو والجواد دليله حتى خرج من المدينة ، فلما صار خارجها اخذ يعلل نفسه بملاقاة اهل بيت المامون قادمين بقافلتهم فى طريقه

وقضى فى ذلك اياما ، وكلما راى قافلة او جماعة او فارسا ظن اهل بيت المامون قادمين ، حتى صار على بضع مراحل من مدينة الرى حيث يقيم عسكر طاهر بن الحسين

واصبح ذات يوم فراى قافلة عرف عن بعد انها تحمل نساء من اهل البيوتات ، لما فيها من الهوادج واحمال الثياب والخيام ، وما فى خدمتها من الغلمان والعبيد ، فدنا منها وسأل مقدمها فاخبره انها تحمل بعض اهل المامون . فطلب مشاهدة دنانير فاخذوه اليها . فلما راته امرت القوم باناخة الاحمال قليلا فاناخوها ، وقصت على بهزاد خبر ميمونة كما وقع منذ جاءها الشاكرى الى ان عادت هى وزينب من عند الأمين دونها . فقال : « وماذا جرى لها بعد ذاك ؟ » . فقالت : « لا باس عليها فى بيت الخليفة ، فقد وعد مولاتى ام حبيبة بالا يمسها ضر ، وسلمان خادمك حريص على

راحتها » . فقال : « وهل تعلمين اين سلمان ؟ »

قالت : « لا أدرى من امر هذا الرجل شيئا ، فهو يغيب اشهرا ثم يظهر بغتة ، وقد رأيته قبل سفرنا واوصانى بأن اطمئنك على ميمونة ، ولعله كتب اليك فوصل كتابه قبلنا لأن الكتاب يرسل على هجين ونحن نسير بالاحمال والاثقال »

فقال : « وهل رايتم جنود الامين ؟ »

قالت : « رأيناها ورافقناها فى معظم الطريق »

قال : « واين هى الآن ؟ »

قالت : « على عشرة فراسخ من الرى وبلغنى ان قائدها ابن ماهان مغرور بقوته معتز بكثرة جنده واذا كان ما بلغنى صحيحا كان طاهر فى خطر »

قال : « وما ذلك ؟ »

قالت : « بلغنى أن جنـد ابن ماهان يزيد على خمسين الف مقاتل بينما لايزيد جند طاهر على أربعة آلاف »

فاطرق بهزاد ثم قال : « ليست الغلبة للكثرة وانما هى للشجاعة والصبر »

قالت : « مع ان الغلبة للشجاعة ولكن كيف يقف اربعة آلاف فى وجه خمسين الفا ؟ . وعلمت ايضا ان طاهرا خرج بجنده القليل من مدينة الرى وعسكر على خمسة فراسخ منها . ولو بقى فى المدينة لكان له فى حصونهـا ما يعصمه من الهزيمة »

قال : « قد احسن ابن الحسين لانه يخاف اهل الرى اذا انهزم مثل خوفه جنود الامين . واذا احسن الراى بادر الى الحرب قبل ان تعرف قلة جنده »

فقالت : « يلوح لى انه عازم على ذلك وكنت احسب عمله خطأ فلم اصدق الخبر وذلك ان بعض اصحابه قال له : (ان جندك القليل قد هابوا هذا الجيش الكثير فلو اخرت القتال الى ان يعجم اصحابك عودهم ، ويعرفوا وجه المأخذ من قتالهم) . فقال : (انى لا اوتى من قلة تجربة وحزم . ان اصحابى قليل والقوم عظيم سـوادهم كثير عددهم فان اخرت القتـال اطلعوا على قلتنـا واستمالوا من معى برغبة ورهبة فيخذلنى اهل الصبر والحفاظ ، ولكنى الف الرجال بالرجال واقحم الخيل على الخيل واعتمد على الطاعة والوفاء واصبر صبر محتسب للخير حريص على الفوز بالشهادة ، فان نصرنا الله فذلك الذى نريده ونرجوه ، وان تكن الاخرى فلست باول من قاتل وقتل ، وما عند الله اجزل وافضل) .. »

فاعجب بهزاد ببسالة طاهر وحزمه واحب ان ينهى الحديث فقال : « كنت اود لولا العجلة ، ان ارى ام حبيبة فاهديها سلامى » . وودعها ومضى

ساحة الحرب

سار بهزاد على فرسه وقد التف بالعباءة وتلثم بالكوفية وتقلد الخنجر تحت العباءة بجانب السيف ، ومر بالرى فى الضحى فعلم من أحاديث القوم ان طاهرا ينوى المبادرة الى القتال قبل أن يطلع عدوه على قلة رجاله . وما لبث أن سمع قرع الطبول للحرب وقد علت الضوضاء وتصاعد الغبار ، فصعد الى أكمة أشرف منها على سهل،فرأى الجيشان يتأهبان للقتال والفرق بينهما كبير ، فأوجس خيفة على جند طاهر ، وصمم على ألا يبرح المكان حتى يرى النصر لجند المأمون ولو كلفه ذلك حياته

وكان ماهان قد عبأ جنده ميمنة وميسرة وقلبا ، وعبأ عشر رايات مع كل راية مائة رجل ، وقدمها راية راية ، وجعل بين كل رايتين غلوة سهم ، وأمر أمراءها اذا قاتلت الراية الأولى وطال قتالها أن يتقدموا برايتهم ليحلوا محلها حتى تستريح . ثم وقف بنفسه يشرف على القتال

أما طاهر فانه عبأ أصحابه كراديس ، كل كردوس كتيبة بصفوفها ، وجعل كردوسه في الوسط ، ومشي بجنده على هذا النظام وهو يحرضهم على الثبات والصبر . ولحظ بهزاد أن جماعة من رجال طاهر فروا الى ابن ماهان فشق ذلك عليه ولكنه ما لبث أن علم ان ابن ماهان ـ بدلا من أن يكرم أولئك الفارين ليرغب غيرهم فى المسير اليه ـ أمر بجلدهم واهانتهم وتعذيبهم مما أغضب الباقين عليه . وظل بهزاد واقفا وعيناه شائعتان وقلبه يخفق رغبة في الاشتراك فى تلك المعركة ولكنه لبث يترقب الفرصة السانحة

وبينا هو هكذا اذا بطاهر بن الحسين قد خرج من جنده على فرسه حتى أشرف على جند ابن ماهان وبيده رمح أشرعه ، وعلى رأس الرمح رق علم انه صورة بيعة المأمون . فوقف طاهر بين الصفين وطلب الأمان من ابن ماهان حتى يتكلم ، فلما أمنه رفع الرمح بيده والبيعة معلقة به وقال : « ألا تتقى الله عز وجل ؟ . ان هذه البيعة قد أخذتها أنت بنفسك فاتق الله فقد بلغت باب قبرك »

فغضب ابن ماهان لهذه الاهانة وأمر بالقبض على طاهر فلم يستطع أحد ذلك . ولم يسمع بهزاد شيئا من كلام طاهر لبعده عنه ولكنه فهم فحواه . وما عتم أن رأى الجيشين يتحركان للالتحام ، فهجمت ميمنة ابن ماهان على ميسرة طاهر فانهزمت هذه هزيمة منكرة ، وفعلت ميسرة ابن ماهان مثل

هذا فى ميمنة طاهر فازالوها عن مكانها فخاف بهزاد وتحركت حميته وأوشك أن يسوق جواده الى وسط المعركة لينصر طاهرا ولكنه تجلد ليرى له مدخلا نافعا. وما فتىء يستجمع الهاربين ويردهم ويحرضهم على القتال وهو يجول على جواده ملثما ويخاطب الفارين بالفارسية يعيرهم بالفرار ويحقر ابن ماهان ورجاله فى أعينهم ، فكان لكلامه وقع شديد على نفوسهم فأخذوا يرتدون الى صفوفهم

وكان طاهر من الجهة الاخرى يحرضهم على الثبات والصبر ، فاجتمعت قلوبهم وحملوا على عدوهم حملة شديدة فى القلب فهزموهم ، وأكثروا فيهم القتل ، ورجعت الرايات بعضها الى بعض فانتقضت ميمنة ابن ماهان، وكانت ميمنة طاهر وميسرته قد عادتا الى المعركة فتشدد قلب طاهر وقوى جنده كأن بهزاد بث فيهم روحا جديدة ، فتقهقر جند ابن ماهان بغير انتظام .

فلما رأى ابن ماهان تقهقر جنده أخذه الرعب وخاف الفشل فنهض بنفسه، وأقبل يحرض رجاله على الثبات ويعدهم بالمال ويقبح عمل طاهر ورجاله . فرأى بهزاد الفرصة قد آنت للعمل ، وأن هذا الانكسار لا يكون قاضيا الا اذا قتل القائد الكبير ، فكر بنفسه كالصاعقة ويده على خنجره لا يبالى بما يتساقط حوله من النبال أو يتكسر من الحراب ، حتى دنا من ابن ماهان وصاح فيه : « قف أيها القائد ولا تقل انى أخذتك غدرا »

فتحول ابن ماهان الى بهزاد ولم يعرفه من تحت اللثام ، لكنه استل سيفه وضربه فخلا بهزاد من الضربة ، واستل خنجره كالبرق الخاطف وطعنه فى صدره فخر قتيلا ، ورجع بهزاد من المعركة وقد اكتفى بما فعله ولم يعد يراه أحد . وشاع فى المعسكر أن ابن ماهان قتله أحد رجال طاهر بسهم ، ثم احتز بعضهم رأسه وحمله الى طاهر ، وشدت يداه الى رجليه كما يفعلون بالدواب ، وحمل على خشبة الى طاهر ، فأمر به فالقى فى بئر. وأعتق طاهر من كان عنده من غلمانه شكرا لله تعالى . وتمت الهزيمة على جند الأمين ووضع أصحاب طاهر فيهم السيوف وتبعوهم فرسخين واقعوهم فيها اثنى عشرة مرة انهزم فيها عسكر الأمين وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون حتى حال الليل بينهم وغنموا غنيمة عظيمة . ونادى طاهر : « من ألقى سلاحه فهو آمن » . فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم ورجع طاهر الى الرى وكتب الى المأمون وذى الرياستين : « بسم الله الرحمن الرحيم كتابى الى أمير المؤمنين ورأس على بن عيسى بن ماهان بين يدى وخاتمه فى أصبعى وجنده مصرفون تحت أمرى والسلام » . فورد الكتاب مع البريد فى ثلاثة أيام وبينهما نحو من خمسين ومائتى فرسخ . فدخل الفضل على المأمون فهنأه بالفتح ، وأمر الناس فدخلوا وسلموا عليه بالخلافة ، ثم وصل الرأس بعد الكتاب بيومين فطيف به فى خراسان

خلع المأمون

تركنا ميمونة في بيت الامين ببغداد كانها على الجمرلفرط حزنها ويأسها ، ولا سيما أنها لم تر سلمان ولا عرفت مقره حتى ظنته مات أو لحق بحبيبها بهزاد ، وكذلك أشتد شوقها الى جدتها واستوحشت لبعدها وجهلها مكانها. فكانت تقضي نهارها وحيدة تتظاهر بانحراف صحتها او دوار في راسها ، فاذا خلت الى نفسها اخرجت كتاب حبيبها وقبلته وكررت قراءته استئناسا بصاحبه . وكلما قررت ما قاله من عبارات النقمة على العباسيين وتهديده بالانتقام يختلج قلبها في صدرها حذرا من وقوع ذلك الكتاب في يد بعض اعدائها ، ولكنها كانت حريصة على اخفائه لا تثق بأحد ممن حولها من الجوارى أو الوصائف . ما عدا فريدة قهرمانة القصر ، لانها من صديقات دنانير المعجبات بتعقلها وحكمتها ، وقد اوصتها هذه بها خيرا . على انها مع ارتياحها لهاكانت تخافها ايضا على سرها وذلك لعلمها بتفشي الجاسوسية ، فلم تطلعها على شيء من امر الكتاب أو امر بهزاد الذى انقطعت اخباره عنها كما انقطعت اخبار سلمان ، ولم تكن تعلم انه في القصر على قاب قوسين منها ولكنه متنكر ، لا يعرف احد ممن في القصر عنه شيئا الا انه الملفان سعدون رئيس المنجمين !

قضت في ذلك اياما لا تدرى ما يصير اليه امرها ، ولا تبالي ما تراه من اشتغال جوارى القصر ونسائه باللهو والضحك ، او سماع الغناء او الضرب بالآلات ، أو غير ذلك ، فاذا راتهم في مجلس انس انفردت في غرفتها واخرجت كتاب بهزاد واخذت تقرؤه ، فاذا سمعت وقع خطوات او صوت متكلم اخفت الكتاب في جيبها. واتفق مرة انها احست بالوحشة وارادت الاستئناس بذلك الكتاب فأرادت ان تخرجه من جيبها فلم تجده ، فاحست كان قلبها سقط من مكانه واعادت البحث جيدا فلم تقف له على اثر ، فخافت خوفا شديدا وزادت وحشتها من الانفراد هناك . واحست بافتقارها الى رفيق يؤنسها فلم تجد خيرا من أن تدعو جدتها اليها ، فكتبت الى دنانير بطاقة شكت فيها استيحاشها وسالتها عن جدتها ثم عهدت الى القهرمانة في توصيل البطاقة الى دنانير في قصر المامون ، وكانت فريدة تتمنى القيام لدنانير بمثل هذه الخدمة ، فأسرعت في ارسال البطاقة اليها في الخفاء

فلما وصلت البطاقة الى دنانير ، سارعت الى ام جعفر واطلعتها عليها

فقالت هـذه لها : « ارسليني اليهـا ودعيني امت عندها فقـد كنت اظنهم سيطلقون سراحها بعد ايام فاذا هي باقية الى اجل غير مسمى »

فقالت دنانير : « هل تذهبين اليها متنكرة ؟ »

قالت : « اخاف اذا عرفوني ان يزيدوا في التضييق على ميمونة »

فقالت : « ارسلك الى صديقتي فريدة على انك مربية ميمونة ، واوصيها بان تقيمك معها ، ولا اظنها الا فاعلة »

فأثنت عبادة على غيرتها ولبست ثيابها وودعتها ، وركبت حمارا توجهت به الى مدينة المنصور ، ومعها رسول من دنانير الى القهرمانة . فلما وصلا الى قصر المنصور بعث الرسول بكتاب دنانير الى القهرمانة ، فادخلت عبادة القصر ، ولم تخف عليها حقيقة حالها ، كما انها لم تكن تجهل امر ميمونة ، لكنها تجاهلت في الحالين رغبة في اخفاء ذلك عن اهل القصر ، لانها كانت من جلة الذين غمرتهم نعم البرامكة واجبروا على كتمان شكرهم . ولا تسل عن سرور ميمونة بجدتها حتى اصبحت لا يهمها ان يطول احتباسها هناك . ولم تجد بدا من اطلاعها على ما دار بينها وبين بهزاد وما تبادلاه من عواطف المحبة حتى بلغت الى الكتاب فاخبرتها بضياعه . ولم تكن عبادة غافلة عما بين الحبيبين ولكنها كانت تتجاهل احيانا ، وقد ساءها ضياع الـكتاب في القصر ، واصبحت تخاف العقبى

اما سلمان فكان اثناء ذلك يغرى الأمين بخلع اخيه ، وكان يستعين على ذلك بالفضل بن الربيع وابن ماهان . وظل الفضل يلح على الأمين في ذلك مدفوعا بخوفه من انتقام المأمون منه اذا افضت الخلافة اليه . وكان الأمين يتردد في الأمر ان لم يكن خوفا من العواقب فحفظا للعهد او عملا برابطة الاخاء . فلما كثر الحاح الفضل عليه زايله التردد وبقي عليه أن يشاور امه زبيدة لانه كان يؤمن بسداد رأيها ، وكانت تقيم يومئذ بقصرها «دار القرار» بقرب قصر الخلد ، فتردد بين أن يركب اليها وبين أن يستقدمها اليه في قصر المنصور . وظل يفكر في ذلك حينا ، ثم غلب عليه حب اللهو فشغل بصيد السمك من بركة كبيرة في حديقة القصر فيها سمك مجلوب اليها فحمل قصبه وجعل يصطاد السمك من تلك البركة وحوله جماعات من الوصفاء الخصيان بالبسة النساء ، يجرون بين يديه في تهيئة الصنارة او تنفير السمك من بعض اطراف البركة الى حيث يلقى صنارته ، وبعضهم يحملون شباكا وآخرون يعدون القصب او الصنانير أو غير ذلك . وهو مشتغل بلهوه معجب بنشاطه يداعب الوصفاء اظهارا لقوة عضله فيلتقط احدهم بيده ويرفعه حتى يلقيه في الماء ، فيطرى الحاضرون قوته الخارقة ويعربون عن عجزهم عن الاتيان بمثل ذلك . وكان الأمين فيما يقال قوى العضل بحيث يصارع الأسد فيصرعه

وفيما هو فى لهوه جاء بعض الغلمان يقول : « ان موكب مولاتنا ام امير المؤمنين قادم »

فسر بقدومها لرغبته فى استشارتها ، فأمر قيم القصر بالاستعداد لاستقبالها ، وامر قيمة القصر بترتيب الوصائف والوصفاء صفوفا وفى جملتهم فرقة من الجوارى المقدودات الحسان كانت امه زبيدة قد اهدتهن اليه لما رات اشتغاله بالخدم والغلمان عن النساء ، فاتخذت هؤلاء الجوارى والبستهن لباس الغلمان فعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، والبستهن القراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن اليه فاستحسنهن واجتذبن قلبه وابرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فقلده بعضهم فى ذلك . فلما سمع بقدوم امه راى ان يسرها باشراك هؤلاء الجوارى فى استقبالها فأمر القيم بترتيب الغلمان صفوفا يراسها كوثر الذى اشتهر بافتتانه به ، فصفت فرق الخصيان والجوارى، وفرق الغلمان الجرادية ، والحبشان الغرابية ، وكل فرقة فى زى خاص واشكال والوان خاصة ، فهناك القصير من الملابس والطويل ، وهناك الاحمر والأزرق والسماوى والوردى والاصفر . وفيهم الغلمان بالبسة النساء ، والنساء بالبسة الغلمان ، يتخللهم العوادون واصحاب الطنابير والمزاهر

واصطفوا هكذا من باب القاعة الى باب القصر الخارجى ، وبين الصفوف غلمان بعضهم يحرق البخور وبعضهم يحملون الأزهار وآخرون ينشدون الأشعار . ومشى الأمين بين الصفين لاستقبال امه بباب القصر . وكانت فى قبة من خشب الصندل منزلة بالفضة ، والقبة قائمة على هودج يحمله بغلان عليهما سرجان من الفضة ، يقودهما غلمان عليهم اقبية من الديباج المزركش، وقد نقشت عليها شارة الدولة لأنهم من الجند . وفاحت رائحة المسك عن بعد

فلما وقف الهودج بباب القصر تنحى الواقفون الا كبير الخصيان فاعان السيدة زبيدة على نزولها ، ثم تقدم الأمين وقبل صدرها فقبلت راسه ، ومشت بخفين مرصعين بالجوهر وعلى راسها نقاب محاك بالذهب فى حاشيته صور مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويلوح من خلال النقاب عصابتها المرصعة وعقود الجوهر فى عنقها والقراطق فى اذنيها . وعلى كتفها مطرف ذهبى اللون التفت به فغطى منكبيها وجنبيها ، وظهر تحته ثوبها الحريرى الوردى يغطى قدميها من الخلف ولا يغطيهما من الامام لتظهر خفافها المرصعة . وهى أول من رصع الخفاف بعد الاسلام . على ان من يلقى زبيدة لا يشغله لباسها الفاخر الثمين عما فى محياها من الجمال الجاذب ، وما يتجلى فوق ذلك من ملامح السيادة ودلائل الابهة والجلال

ولم تطأ قدماها باب القصر حتى انتشر خبر قدومها ، فبلغ عبادة

فارتعدت فرائصها ، وخفق قلبها . وأحبت الانزواء لئلا يظهر ذلك عليها . اما ميمونة فكانت كثيرة الشوق لمشاهدة موكب أم الخليفة وقد طالما سمعت عنها وعن عظمتها فأطلت من كوى القصر الخفيــة فاعجبت بجمال زبيدة وجلالها

▭

ظل الأمين وامه سائرين الى قاعة خاصة عملا باشارتها ، لأنها كانت تريد ان تسر اليه أمرا . وقبل جلوسها جاءت المواشط فنزعن عنها بعض مايثقلها من الالبسة ، ووقف بعض الوصائف والغلمان بالمراوح والمذاب بين يديها ، واشتغل آخرون باعداد الشراب والطعام . ولكنها قالت للأمين « « أحب ان اراك يا محمد على انفراد ، ولا ارب لى فى الطعام »

فأشار الأمين فخرج الجميع ولم يبق غيرهما ، فجلست على السرير واشارت اليه أن يجلس بجانبها فجلس وقال : « ما اسعد هــذه الساعة يا اماه . كأنك جئت على موعد ، فقد كنت هذا الصباح اهم بالذهاب اليك أو استقدامك لأستشيرك فى بعض الشؤون فاذا بك تفاجئيننى فتفاءلت خيرا »

فابتسمت والغضب باد فى عينيها وقالت : « خيرا ان شاء الله ؟ . ولكنى جئتك لأمر آخر يهمنى ويهمك ! »

فاهتم الأمين وقال : « وما ذلك يا أماه ؟ »

قالت : « الا تزال تلك الفتاة الضالة عندك ؟ »

فقال : « أية فتاة ؟ » . قالت « اعنى ابنة عدونا الذى تعمد خلعك من ولاية العهد ،واغرى اباك الرشيد بمبايعة ابن مراجل »

فادرك انها تعنى ميمونة بنت جعفر فقال : « نعم يا سيدتى لا تزال بين جوارى القصر »

قالت : « وكيف ابقيتها ولم تخف شرها ؟ »

قال : « لانى وجدتها يتيمة مسكينة لا ضرر منها ، وقد أوصتنى ابنــة اخى بها خيرا بعد أن ابيت اطلاق سبيلها لأبقيها هنا اتقاء ما نخشاه منها »

قالت : « يتيمة مسكينة ؟ ! تبا لها من خائنة غادرة ! . واغرب من ذلك أن تقبل شفاعة ابنة أخيك ، واخوك اشد عداء لك من اعدائك ! . الم يستعن عليك بالخراسانيين ؟ واذا أتيح له أن يخلعك عن هذا العرش الا تظنه يفعل ؟ ومن أوجد هذا الغرور فى نفسه . أليس هو جعفر بن يحيى أبا هذه الفتاة ؟ لقد كان ابوك رحمه الله أدرى منك بأقدار الرجال فقتله شر قتلة ، ولو لم يبادر الى قتله ما جلست انت هذا المجلس . . فكيف تقول بعد ذلك انها

يتيمة مسكينة وان ابنة اخيك اوصتك بها خيرا ؟ ان اخاك قد غلب فيه دم الفرس على دم الهاشميين فأخذ من امه مراجل اكثر مما اخذ من ابيه الرشيد فتراه يستعين بأخواله علينا »

قالت ذلك وقد حمى غضبها وامتقع لونها وذهب احمرار شفتيها وتورد وجنتيها . ووافق ذلك ما يجول فى خاطره من خلع اخيه فأراد ان يجعل ذلك برايها فقال : « الم يكن ابى قد بايع لى ولأخى عبد الله بالخلافة بعهد علقه على الكعبة ؟ »

فقطعت كلامه وقالت وصوتها يخنقه الحنق : « لا قيمة لذلك العهد لأنه كتب باغراء الوزير الخائن رغبة فى اخراج الخلافة من بنى هاشم عن طريق اخيك هذا ، وهل يصلح ابناء الجوارى للخلافة اذا وجد ابناء الاحرار؟ أيقاس ابن الجارية مراجل بابن زبيدة بنت جعفر ؟ . اتعلم من هى مراجل وكيف اتصلت بأبيك حتى ولدت عبد الله ؟ »

قال : « لا » . قالت : « انا اقص عليك خبرها . كانت مراجل من جملة جوارى مثل مارية وفارسة وغيرهما ، فرايت اباك مشتغلا عنى بمغنية ليحيى وزيره اسمها ، وصار يقضى كثيرا من وقته عندها ، فشكوته الى اعمامه فاشاروا على بأن اشغله عنها بجوار اهديهن اليه ، فأهديته عشر جوار منهن مراجل هذه وهى فارسية . فلما ولدت له عبد الله رباه جعفر من صغره على حب الفرس حتى جرى ما نعلمه . فكيف يكون هذا صنوك . أما العهد الذى اشرت الى انه معلق فى الكعبة فابعث من يأتى به ومزقه لأنه كتب خداعا »

فسرى عن محمد وقال : « اذن انت ترين ان اخلع اخى عبد الله من ولاية العهد ؟ »

قالت : « اولم تخلعه بعد ؟ اخلعه قبل ان يخلعك »

فاعتدل فى مجلسه وقال : « قد كنت عازما على استطلاع رايك فى هذا ، فالحمد لله على أن وافق رايك راى الفضل »

فقالت : « اخلعه وبايع لابنك موسى وان كان صغيرا ، فتكون الخلافة اعرق فى بنى هاشم لأنه لم يولد لبنى العباس خليفة والداه هاشميان الا انت ، فأولادك اعرق فى النسب الهاشمى من سائر العباسيين »

فانبسطت سرائر الأمين وسكت واطرق فابتدرته قائلة : « ولنعد الى تلك الفتاة الخائنة ، فما اجدرك ان تقتلها وتتخلص منها »

قال : « اقتلها ؟ واى ذنب اتت ؟ وما الذى نخافه من بقائها حية ! »

قالت : « انك غافل يا محمد عما يجرى حولك ، وقد شغلك اللهو عن دسائس المملقين . اما انا فساهرة على شؤونك واعلم ما يجرى فى قصرك .

وقد تبينت ان بقاء هذه الفتاة فى قصرك اشد خطرا عليك من بقاء ولاية العهد لأخيك ، فاقتلها ! » . فاستغرب الأمين تشديدها وهو لم ير فى الفتاة ما يوجب ذلك فقال : « لا شيء علي اذا قتلتها ، ومثلها مئات بل الوف فى قصرى ، ولكننى وعدت أم حبيبة بأن احافظ عليها »

فأفلت جأش زبيدة من يدها عند سماعها قوله ، ونهضت وقالت : « انك لا تزال ساذجا تجوز عليك الالاعيب ، والا لادركت من شفاعة بنت عبد الله فيها ان هناك ما يبعث على الشك . اعلم ان ميمونة هذه مخطوبة لأكبر اعداء العباسيين ، وبينها وبينه مراسلة تشف عن تعمده الانتقام لأبى مسلم الخراسانى وجعفر بن يحيى ، وهو يعد العباسيين خائنين غادرين ، واذا كنت فى شك مما أقول فاقرأ هذا الكتاب » . قالت ذلك واعطته لفافة فيها كتاب بهزاد ، فاخذ الأمين الكتاب وطفق يقرؤه ولم يصل الى آخره حتى ارتجفت يداه وارتعشت اناملة لما حواه من الطعن فى العباسيين والنقمة عليهم وتهديدهم . فنظر الى امه وكانت قد قعدت واتكأت على الوسادة واخذ الغضب منها مأخذا عظيما ، فالتفتت اليه وقالت : « ارأيت هذه اليتيمة المسكينة ؟ هذا خطيبها يزعم اننا غلبنا بالغدر والخيانة وانه سينتقم لأبيها وذاهب الى خراسان لهذا ، فكيف تبقيها فى قصرك وبين جواريك تطلع على احوالك ومساعيك واسرارك ؟ ! »

فدهش الامين لسهر امه على شؤونه وقال : « كيف وصلت الى هذا الكتاب ومن اتاك به ؟ »

قالت : « اتيت به من وسط قصرك لانى ساهرة وانت نائم ! »

فاخذته العزة بالاثم وقال : « سآمر بالقائها فى قاع دجلة الساعة »

قالت : « اتلقيها فى دجلة بلا سؤال ولا جواب ؟ »

قال : « أليس الغرض ان نتخلص منها ؟ »

قالت : « ما اقل دهاءك ! . قبل أن تقتلها استطلعها ما تعلمه من احوال اعدائنا فلا ريب انها تعرف اسرارهم ، ومتى نلت مرادك منها فاقتلها او اغرقها كما تشاء ! »

قال : « ادعوها اليك الساعة ونسألها معا ؟ » . [illegible]

فصفق فجاءه احد الغلمان فقال له : « الى بالجارية [illegible]

وكانت ميمونة منزوية مع جدتها فى [illegible]
زبيدة . وعبادة تتوسل الى الله ان تر [illegible]
يدعو ميمونة الى امير المؤمنين . فلما [illegible]
وتحققت ان زبيدة اتت لتحرض ا[illegible]
فندمت على ذهابها اليها . ولم تجد [illegible]

اتى القاعة فدخل وقال : « الجارية بالباب يامولاى » . قال : « تدخل »

فدخلت مطرقة خجلا وركبتاها تصطكان من الخوف . فوقع نظرها على زبيدة وهى متكئة وقد زادها الغضب هيبة ورهبة ، والامين جالس بجانبها كأنه بعض غلمانها . فوقفت وحيث فابتدرها الامين قائلا: «تقدمى باميمونة»

فمشت نحوه وهى تنظر الى الارض وقد اخذتها الرعدة من الخوف ، فمد يده وفيها الكتاب وقال : « اتعلمين لمن هذا الكتاب ؟ »

فلما وقع نظرها على الكتاب عرفته وأيقنت بافتضاح سرها ؛ فلم تعد يدها تطاوعها على تسلمه من شدة الارتعاش . فتناولته واناملها ترتعد فسقط من يدها فانحنت لالتقاطه عن البساط فسقطت واهنة القوى ولم تعد تستطيع الوقوف وانحدرت دموعها على خديها ، وحاولت أن تنظر الى الكتاب فلم تستطع وغلب عليها البكاء فتربعت عند قدمى الامين تقبلهما وتبكى ولا تفوه بكلمة

فصاحت زبيدة فيها قائلة : « ويلك ما يبكيك ؟ أتظنين البكاء ينجيك ؟ . من هو بهزاد هذا ؟ . اليس حبيبك حامل سيف النقمة على العباسيين؟ . » . ثم رأت انها يجب ان تحتال فى كشف سرها فعمدت الى الملاينة فقالت : « لا تخافى انما ينجيك الصدق . قولى لنا أين حبيبك الآن ؟ . وما الذى تعرفينه من احوال الخراسانيين؟ . فاذا صدقتنا القول أطلقنا سراحك وأبقينا عليك ، والا فانك مقتولة لا محالة »

فقالت وصوتها يتقطع من البكاء : « ثقى ياسيدتى بأنى لا اعلم شيئا غير ما فى هذا الكتاب ؛ وقد تفهمين من تلاوته اننى لم أكن قبله أعرف هذا الشاب . واقسم براس امير المؤمنين انى لم أعد أعرف شيئا عنه بعد تلاوته»

فضحكت زبيدة مستخفة وقالت : « وتقسمين برأس أمير المؤمنين ؟ »
قالت : « أقسم به لأنى صادقة فى قسمى »

فقال الامين : « اصدقينا يا بنية ؛ ولا خوف عليك . واذا لم تقولى الصدق اتينا برئيس المنجمين فى هذه الساعة فيكشف مكنونات صدرك . فاذا اطلعنا على شيء تنكرينه كان جزاؤك العذاب الاليم »

قالت : « الأمر لأمير المؤمنين ، وليس عندى غير الذى قلته »

فصفق الامين وامر الغلام بأن يدعو رئيس المنجمين، فذهب الغلام. وكانت ميمونة قد وقفت ، فأمرها الامين بالجلوس فجلست ، ولم تكن تعلم أن رئيس المنجمين هو سلمان نفسه . وكانت تظن سلمان هرب أو مات لطول غيابه عنها . وبعد قليل أقبل الملفان سعدون بعمامته الكبيرة السوداء وجبته الطويلة وتحتها الثوب العسلى وقد تمنطق بزنار غرس فيه الدواة ، واصطنع لحية كثيفة مسترسلة دب فيها الشيب تتصل من الجانبين بسالفين كثيفين، وغم

ذلك من قيافة الحرانيين أهل الذمة وهي تخالف ما تعرفه عن سلمان ولو خامرها شك فيه لعرفته من عينيه وانفه

ودخل سعدون وحيي ووقف متأدبا وقد تابط الكتاب وعيناه تختلسان النظر الى اهل ذلك المجلس ، فرأى ميمونة وزبيدة ، ووقع بصره على كتاب بهزاد بين يدى الامين فعرفه لأنه هو الذى حمله الى ميمونة ، فادرك لأول وهلة سبب استقدامه . ثم امره الامين بالقعود بلا حجاب او ستر بينهما ، فقعد جاثيا وعيناه لاتتحولان عن الارض ، فابتدره الامين قائلا : « دعوناك ياملفان سعدون نطلب اليك أن تستطلع سر هذه الجارية ، فقد سألناها فأنكرت وهددناها باستطلاع سرها على يدك . فأصدقنا »

وكانت زبيدة جالسة تنظر الى المنجم ولا تتكلم حتى ترى علمه . وكانت قليلة الايمان بالمنجمين وانما رضيت باستدعاء المنجم ساعتئذ ارهابا لميمونة لعلها تعترف خوفا من العقاب . اما سعدون فاخرج كتابه والتمس أن يؤتى اليه بكانون فيه نار من خشب الزيتون زاعما ان المندل لايتم الا اذا كانت النار من ذلك الخشب ، فأتوه بالنار فى شبه مبخرة من الفضة وضعوها على طبق بين يديه ، وهو ماض فى القراءة والتمتمة . ثم أخرج من جيبه قطعة بخور القاها فى النار ، وطلب قدحا فيه ماء فأتوه به فأخذه بيساره بين الابهام والسبابة وتفرس فى الماء حينا ثم استأذن الخليفة فى أن تتقدم ميمونة نحوه وتضع يدها على كتابه فتقدمت وهي ترتعد خوفا ووضعت كفها على ذلك الكتاب . وتناول سعدون يدها الاخرى وقرأ اساريرها ثم رفع يدها عن الكتاب واجلسها وفتح الكتاب وقرأ همسا وهو يبتسم ابتسام الفائز ويهز راسه ثم نظر الى الامين قائلا : « ان لهذه الفتاة حديثا طويلا وان لها لشأنا »

فضحكت زبيدة استخفافا بهذه النبوءة لأنها لاتدل على معرفة ، فأدرك سعدون غرضها فنظر اليها وهو يتحاشى التفرس فى وجهها تأدبا وقال : « لا اقول ذلك تعمية او ابهاما ، ولكننى أعنى أنها ليست من عامة الناس بل من أصل عريق فى الكرامة والوجاهة وان كانت اليوم فى جملة الجوارى »

فقطعت زبيدة كلامه قائلة : « اذا كنت على ثقة مما تقول فانبئنا عن حقيقة حالها بصراحة »

قال : « واقول ذلك امامها ؟ » . فقالت : « قل »

فأعاد النظر الى القدح ثم نظر فى وجهها وقال : « انها بنت وزير مات مقتولا »

فلما قال ذلك اقشعر بدن الفتاة وامتقع لونها والتفت الامين الى امه لفتة ظافر فرآها لا تقل دهشة عنه ولكنها تجاهلت وقالت : « ربما كنت مصيبا فيما قلته » . ومدت يدها الى كتاب بهزاد وقبضت عليه بكفها وقالت : « وما الذى بيدى ؟ » . قال : « كتاب »

فقهقهت وقالت : « بورك فى مهارتك ، ان الاطفال يعرفون ذلك . فاذا كنت رئيس المنجمين كما يسمونك فقل ماذا فى هذا الكتاب »

قال : « يسوءني ياسيدتي استخفافك بعلمي ، وقد يجدر بي بعدماسمعته ان اسكت عما أعلمه . ولكنني اقول لك انك تقبضين على كتاب من نار بل النار اخف وطأة على هذه اليد اللطيفة مما فى هذا الكتاب . ان بيدك كتابا من رجل فارسى الى هذه الفتاة وفيه من نصرة الفرس والغض من مقام العباسيين ما يسوؤك ويسوء مولاى امير المؤمنين . واذا لم يقنعك هذا الاجمال فصلته تفصيلا . ان هذا العلم لم يكذبنى من قبل ، ولا أدرى اذا كان قد صدقنى الآن »

فبغتت زبيدة ولم تعد تستطيع اخفاء الاعجاب فقالت : « صدقت ايها الملفان ، واذ قد علمت سر الكتاب فاعلمنا عن صاحبه اين هو الآن ؟ »

قال : « هو بعيد ياسيدتي . انه فى خراسان »

قالت : « وما علاقة هذه الفتاة به ؟ »

قال : « انها علاقة قريبة العهد ، واذا ادعت غير ذلك فانها كاذبة . ولا تسأل عما حواه الكتاب من كلام التهديد او الانتقام لأنها كانت خالية الذهن منه حين وصوله اليها ، ثم لم تعد تعلم عن صاحبه شيئا »

وكانت ميمونة اكثر السامعين استغرابا ، لأن الرجل قرأ ما فى ضميرها ، ولو ارادت هي ان تترجم احساسها لم تستطع تبيانه بأوضح من ذلك ، فأشرق وجهها وبانت الطمانينة فى محياها ، ونظرت الى الامين نظر الاسترحام وظلت ساكتة »

اما زبيدة فخفت نقمتها على ميمونة ولم يخف كرهها فقالت لسعدون : « هل تعتقد ان هذه الجارية بريئة ؟ »

قال : « هذا ما اظهره لى المندل ، وعهدى به لايكذبنى . وعند امير المؤمنين الخبر اليقين عنه »

فأشارت الى ميمونة أن تخرج فخرجت وهى لا تصدق انها نجت . ثم التفتت زبيدة الى الملفان سعدون وقالت : « انى واثقة من علمك ايها الملفان ، ولكن قلبى لايحدثنى عنها خيرا »

قال : « لأنك تكرهينها ، ولا عجب فان اباها اساء اليك والى سيدى امير المؤمنين ، واذا رايت أن اعيد المندل فى فرصة اخرى فعلت . واذا اذن امير المؤمنين ان اجالسها مرة اخرى على انفراد زدته تفصيلا عن احوالها »

فقال الامين : « لك ذلك أيها الملفان » . ونظر الى امه نظرة فهمت غرضه [illegible] بينما سعدون يتشاغل بجمع ماتفرق بين يديه من ورق كتابه استعدادا [illegible] . فابتدرته زبيدة قائلة : « اما [illegible] قد بدا لنا منك هذا العلم الواسع

فى استطلاع الغيب فاخبرنا عما يجول فى خاطرى وخاطر امير المؤمنين »

فأدرك أن المامون أهم ما يمكن أن يجول فى خاطرهما وقتئذ فقال : « يجول فى خاطركما اشياء كثيرة اهمها يمس رجلا فى خراسان تحذرونه ويحذركم ، وقد تخافونه وهو اشد خوفا منكم »

فوافق قوله ما فى نفسها فقالت : « صدقت ، وماذا ترى بعد ذلك ؟ » . فأعاد النظر فى الكتاب طويلا حتى ظهر الاهتمام فى جبينه وتصبب العرق منه ثم رفع نظره اليها وقال : « لا إرى مناصا من تجريد السيوف »

قالت : «ومن يجردها » . قال : « انما يظفر السابق وعلم المستقبل عند الله »

فالتفتت الى الامين ولسان حالها يقول : « الم اقل لك بادر الى خلعه قبل ان يخلعك ؟ »

فقال الأمين : « وقد اشار وزيرنا الفضل بخلع عبد الله ، فاذا لم يذعن حملنا عليه بالجيوش ، فهل نغلب ؟ »

فتناول الكتاب ثانية وقلب عدة صفحات ثم قرأ ونظر الى السماء من نافذة فى تلك القاعة ، واخرج قلما من منطقته وغطسه فى المداد وكتب وحسب ثم قال : « قلت لمولاى ان علم المستقبل عند الله وليس لى . ولكن يظهر لى من هذا الحساب ان الفئة التى فيها الفضل هى الغالبة باذن الله »

فازداد الأمين اعتقادا بضرورة الخلع ، فأثنى خيرا على الملفان سعدون وأمر له بجائزة ، فعلم هذا أن قد آن له أن ينصرف فجمع أوراقه وأدواته واستأذن وخرج.

ثم نهضت زبيدة للذهاب ، فأتتها المواشط فألبسنها ما خلعته عند وصولها ، ولما ودعت ابنها نصحت له بأن يأتى للاقامة بقصر الخلد قريبا منها ، فوعدها بذلك فعادت بموكبها الى دار القرار

وأقر الأمين بعد ذهابها خلع أخيه وتولية ابنه موسى ، وبعث الى خراسان بذلك كما تقدم · ثم جند جندا أراد أن يجعل الفضل قائدا عليه ، ولكن هذا رغبه فى ابن ماهان ففعل ، وخرج الجند لمقاتلة طاهر بن الحسين فى الرى · وبعد ارسال الجند انتقل الأمين الى قصر الخلد ونقل معه بطانته · اما ميمونة وسعدون فأبقاهما وأمر بالاحتفاظ بهما

□

كانت ميمونة قد خرجت من حضرة الأمين وهى ترقص فرحا ودهشة ، حتى أتت جدتها وكانت تنتظرها على مثل الجمر ، فقصت عليها ما جرى وأثنت على مهارة رئيس المنجمين ، فاستغربت عبادة ما سمعته وقالت : « جزاه

الله خيرا ، ان الله سخره لانقاذنا من هذا الخطر العظيم ، ولولاه ما رضيت تلك الملكة الظالمة بغير قتلنا »

فقالت ميمونة : « وقد تخلى سلمان عنا فأرسل الله لنا من يأخذ بيدنا ، انه سبحانه لا يترك المظلوم حتى ينصره »

ومكثتا في ذلك القصر بعد انتقال الأمين الى قصر الخلد لا يعلمان شيئا مما يجرى من شؤون السياسية ، وفقدت ميمونة تسليتها بفقدها كتاب بهزاد . ولما طال غياب سلمان عنها كادت تنساه لولا ارتباط ذكره بذكر بهزاد . وكيف تنساه وهو خليفة بهزاد عليها وقد حمل اليها كتابه ؟ . وكانت في شوق كثير لمعرفة مكان حبيبها لتطلعه على حالها لعله يسعى في انقاذها . وأنى لها ذلك وهي محبوسة بين أربعة جدران لا تسمع خبرا ولا ترى رجلا . وكانت عبادة تحاول التخفيف عنها جهد طاقتها

وفيما هما جالستان ذات يوم جاءتهما قهرمانة القصر تقول : « ان رئيس المنجمين يطلب مشاهدة ميمونة » . فبغتت الفتاة وصعد الدم الى وجهها وقالت : « ما شأننا معه ؟ »

قالت : «ان أمير المؤمنين أوصى بألا يؤذن لأحد في مشاهدتك غير رئيس المنجمين متى شاء ، ولا بأس عليك منه »

فتحولت بغتتها الى سرور وقالت في نفسها : « سأسأله عن سلمان أو بهزاد اذا آنست منه عطفا لعله يهديني الى مكانهما » . ثم قالت للقهرمانة: « هل يأتي الينا أم نذهب نحن اليه ؟ »

قالت : « طلب أن يراك على انفراد في غرفته »

فأجفلت وقالت : « أنفرد به في غرفته ، وهو رجل غريب ؟! »

فقالت عبادة للقهرمانة : «هل تأذنين أن أكون أنا معها في تلك المقابلة»

قالت : « لا بأس »

فنهضتا وتنقبتا ، وأرسلت القهرمانة معهما غلاما أوصلهما الى غرفة الملفان سعدون في بعض أطراف القصر ، وقرع الغلام باب الحجرة وأنبأ بوصول ميمونة ورجع . ففتح سلمان الباب وهو بقيافته المعهودة ورحب بالفتاة وجدتها وأدخلهما الحجرة وأقفل الباب وراءهما . فلما وجدت ميمونة نفسها في ذلك المكان استوحشت وتلفتت فلم تجد حولها الا أدوات وأشياء لا تفهم لها معنى ، من أنابيب وأقداح مختلفة الأشكال والألوان ، وألواح عليها رسوم وخطوط بعضها يقرأ وبعضها طلاسم لا يقرأ . وكان قبل دخولهما قد نزع جبته وبقي بالازار (القفطان) العسلي وحوله الزنار وعلى رأسه عمامة صغيرة ، فأشار الى ميمونة وجدتها بالقعود على طنفسة بجانب طراحته فقعدتا وهما لا تتكلمان . فقعد هو بين يديهما وخاطب ميمونة قائلا : « هل تعلمين يا ميمونة أني أنقذتك من القتل ؟ »

فدهشت لما سمعته يذكر اسمها وقالت : «نعم يا سيدى ، وانى لا أنسى لك هذا الجميل جزاك الله خيرا »

قال : « انى لا أسالك على ذلك أجرا ، وأتقدم اليك أن تصـــدقينى فى سؤال ألقيه عليك : هل تفعلين ؟ »

قالت : « نعم وهل أستطيع غير ذلك وأنت تكشف مكنونات القلوب ؟ »

قال : « هل تحبين بهزاد كثيرا »

فتوردت وجنتاها فجأة ، وأطرقت حياء فابتـدرها قائلا : « لا ينبغى أن تستحيى منى • قولى »

فتنهـدت وظلت مطرقة ولم تجب ، فأجابت عبـادة عنها وقالت : « أظن رئيس المنجمين فهم جوابها دون أن تنطق به ؟ »

فوجه خطابه الى العجوز وقال : «وهل أنت لا تزالين تعرفين الحب ودلائله رغم ما مر بك من الأهوال ؟ »

فلم تستغرب عبادة اشارته الى حالها بعد ما بلغها من اعجازه فى كشف الضمائر فسكتت• فالتفت الى ميمونة ويده على لحيته يمشطها بأنامله وقال: « قد علمت أنك تحبين بهزاد ولكن هل هو يحبك ؟ »

فرفعت كتفيها وهى مطرقة كأنها تقول : « لا أعلم »

فابتدرها قائلا : « لو كان يحبك لم يتركك فى هذا القصر ويذهب ،وقد تبقين فيه العمر • وقد دبرت لك سبيلا للنجاة ، فاذا أطعتنى أفلحت »

قالت : « انى رهن أمرك يا سيدى »

قال : « انى أعرف شابا هو خير شبان بغـداد وأكبر وجيه فيهم يحبك حبا مبرحا وأنت لا تحبينه »•وتوقف عن الكلام ، فأدركت أنه يشير الى ابن الفضل فأظهرت الاشمئزاز والتفتت الى جدتها كأنها تكلفها أن تجيب عنها، فهمت عبادة بالكلام ، فقطع سـعدون كلامها قائلا : « انى أعرف الجواب ، ولكن رفضك لا ينفعك لأن الرجل صـاحب النفوذ الأكبر ، واذا طلب من أمير المؤمنين دفعك اليه فأجدر بك أن تقبلى راضية • وهـذه نصيحتى فان بهزاد بعيد ومن يدرى فقد لا ترينه بعد »

فضاق صدر ميمونة عند ذلك وانحبست عواطفها ولم تستطع أن تمسك عن البـكاء ، فنهضت عبـادة وقالت كمن يستغيث : « أما وقد اطلعت على سرنا وعرفت حقيقة حالنا ، فأتوسل اليك أن تكون عونا لنا لا علينا »

فأشار اليها أن تقعد وقال : « ماذا تريدين ؟ »

قالت : « لا نصيب فينا للفتى الذى تشير اليـه ، وأنت تعرف السبب ، والموت أيسر علينا من اجابة طلبه • وانما أتقدم اليك أن ترشدنا بعلمك الى أمر يهمنا » • قال : « وما ذلك ؟ »

قالت : «أضعنا عوناً كبيراً خلفه لنا بهزاد عند سفره ، وهو الذي أوصل كتابه الى ميمونة ، ثم لم نعد نراه ولا نعرف مكانه ، فهل تكشف لنا خبره بالمندل ؟ »

فضحك وقال : « أظنك تبحثين عن سلمان ؟ » . قالت : « نعم »

قال : « ان الوزير سألني عنه أيضا »

فقالت عبادة : « وهل هو في بغـداد ؟ » . قال : « نعم انه في هـــذا القصر »

فبغتت ميمونة وقالت : « في هذا القصر ؟ » . قال : «وفي هذه الغرفة»

وأحست عبادة عند ذلك كأن غشاوة انكشفت عن عينيها وتذكرت ميمونة صوت سلمان فصاحت : « سلمان ؟ سلمان ؟ »

فقال : « لا ترفعي صوتك ، نعم أنا سلمان ، أنا رئيس المنجمين ! »

ولم تستطع الامســاك عن الضحك وبان البشر في وجهها وخفق قلبها وأحست كأنها لقيت حبيبها بهزاد لأملها في الاطلاع على أخباره ، فلم تعد تعرف كيف تسأل سلمان أو تستفهمه ، وأرادت التكلم فتلجلجت فسبقها الى الكلام قائلا : « ستلومينني على اختفائي كل هذه المدة ، ولكنني لم أختف الا رغبة في خدمتك ، فلما رأيت منفعة لك في الظهور ظهــرت ، وأظنني أفدتك »

فقالت عبادة : « انك أنقذتنا من الموت جزاك الله خيرا و ... »

وقطعت ميمونة كلام جدتها فقالت : « وأين بهزاد الآن ؟ »

قال : « في بغداد أو حولها »

فصاحت : « في بغداد .. ؟ ألا يأتي الينا ؟ »

قال : « وهل تظنين ان ظهوره ســهل ؟ انه لا يظهر الا اذا آن الأوان . وقد تغيرت أحوال بغداد منذ وطيء ترابها ، لأن الأحزاب السرية عادت الى عملها بارشاده ، فكثرت العثرات في طريق هذا الغلام القابض على قضيب الخلافة »

فقالت : « بورك فيك يا ســلمان ، لله ما أكرم نفسك ! . بهزاد أتى من خراسان ؟ هل رأيته ؟ » . قال : « نعم رأيته وحادثته »

قالت : « أين شاهدته وكيف ؟ » . قال : « لنا مكان نلتقي فيه لا يعرفه أحد سوانا »

قالت وقد أشرق وجهها : « اذن هو هنا وسنراه ؟ ومتى يكون ذلك ؟ »

قال : « لكل شيء وقت لا تكوني لجوجة »

قالت : « حسنا ، كما تشاء ، والآن ما الذي ترى أن نصنع ؟ »

قال : « تبقيان كما كنتما ، وتكتمان ما رأيتما عن كل انسان ، حتى يأتي الوقت الموافق واظنكما تثقان بما أقوله »

فقالت عبادة : « مضى علينـا زمن لم نسمع فيه خبرا عن المأمون ولا عن الأمين ولا عن الحال بينهما »

قال : « أبشرك يا سيدتي بأن الله سينتقم لك ولنا. ان الأمين خلع أخاه المأمون من ولاية العهد ، فخلعه هذا أيضا،وقام الفرس لنصرة المأمون لأنهم أخواله ، وجردوا جيشا بقيادة طاهر بن الحسين ، وجرد الأمين جيشا بقيادة ابن ماهان صاحب الشرطة ، فالتقى الجيشان في الري فانتصر جيش المأمون وقتل ابن ماهان وتشتت جيشه ، ولما وصلت هذه الأخبار الى الأمين وقع في حيرة وبعث الى فذهبت اليه في قصر الخلد واستشارني ، فأشرت عليه بأن يرسل الفضل بن الربيع في الحملة الثانيـة ، وأنا أعلم أن الفضـل لا يذهب ، وجعلت نجاحه في الحرب مشروطا بارسال الفضل وابنه ، فآل ذلك الى اختفاء الفضل،ولم تفلح الحملة الثانية فضعف حال الأمين واستخف به رجال دولته حتى هموا بخلعه ، ولكنهم لم يستطيعوا لأن سلمان لم يكن معهم . ولو شئت لخلعوه ولكنني أردت اضعافه فقط »

فأعجبت ميمونة بدهاء سلمان ، وسرت بما دبره للفضل وابنه. ثم قال سلمان : « فامكثا في قصر المنصور هذا برعاية قهرمانته ، وربما ذهبت أنا الى الخليفة ومكثت في قصر الخلد أياما» .وصفق فأتي غلامه فقال له : «اذهب بهما الى القصر ، وقل للقهرمانة فريدة اني أحب أن أراها »

فمضى بهما . وهم سلمان بلبس ثيابه وأمر الغلام أن يعد له بغلته ليركب الى قصر الخلد ويمر في طريقه على القهرمانة ويوصيها بهما . ثم ركب ومر بالقهرمانة وأوصاها بأن تحتفظ بهما ، فأشارت مطيعة ، فتحول يطلب قصر الخلد والغلام في ركابه ، والناس ينظرون اليه ويوسعون له اعجابا بما اشتهر عنه من معجزات التنجيم

وصل سلمان الى قصر الخلد فوجد بالباب جماعة من العيارين يحرسونه بدلا من الجند ، وعرفه أحدهم فنهض وحياه ووسع له فدخـل على بغلته الى ردهة القصر ، ولقي الهرش رئيس العيارين خارجا على فرسه فلما وقع نظر هذا على الملفان سعدون أوقف فرسه وسلم عليه . فسأله عن سبب وجود رجاله بالباب بدلا من الجند فقال : « ان الجند غاضبون على أمير المؤمنين »

قال : « لماذا ؟ » . قال : « ان خبره يطول ولا أسـتطيع بسطه ونحن راكبان ، ولا أظنه يخفى عليك ولكنني أقول موجزا : ان طاهرا وأصحابه لما افلحوا في وقعة الري وقتل ابن ماهان ضعفت عزائم جنده وهربوا وتقدم طاهر فاستولى على أعمال الجبال ، فجند الأمين حملة أخرى فعادت خائبة ، وضعفت سـطوة الخليفة حتى حاول قواده خلعه ثم رجعوا عن ذلك ، وظل

طاهر يتقدم في جنده حتى أتى الأهواز ثم استولى على واسط فالمدائن ، ونزل أخيرا الى صرصر وهي على مقربة منا. وكان أمير المؤمنين يخرج الأموال ويفرقها في رجاله . وبلغ ذلك رجال طاهر فطمعوا في الأموال ، فجاء منهم جماعة الى الأمين فأعطاهم وغلف لحاهم بالغالية وأكرمهم كثيرا فغضب جنده لأنه لم يكرمهم مثل هذا الاكرام فتفرقوا عنه غاضبين ، فبعث الى أن آتي برجالي لنصرته »

فضحك سعدون وقطع كلام الهرش قائلا : « رب مصيبة أتت بنعمة .. لابد أن يكون الأمين قد بذل لكم الأموال فغنمتم ، وأنت تعلم أن ما يسرك يسرني وأنك أهل للعطاء أكثر من أولئك القواد الخائنين ومن الوزراء . فهذا الفضل بن الربيع لما رأى الأمر استفحل ترك مولاه واختفي وهو سبب هذا البلاء كله » . قال ذلك وودع الهرش وساق بغلته فاستوقفه الهرش قائلا: « انك داخل على الخليفة ومتى رأيته يزول عجبك مما بلغ اليه أمرك »

فلم يفهم سلمان قصده فلما نزل عن بغلته عند الباب الثالث من أبواب القصر ودخل الحديقة أدرك السر

وذلك أنه سلم البغلة لغلامه ومشى في الحديقة يتوكأ على عصاه وينظر ذات اليمين وذات الشمال ، فلا يرى الا غلمانا يركضون وبعضهم حفاة مكشوفو الرؤوس فأوجس خيفة من هذا المنظر. وظل ماشيا في بعض طرق الحديقة حتى أشرف على بركة كبيرة في وسط الحديقة وقد تكأكأ حولها الغلمان ونزع بعضهم ثيابه وغطس فيها وآخرون واقفون يحدقون في مائها . ثم رأى الأمين نفسه مقبلا كالواله وعليه ثياب المنادمة وقد ذهبت القلنسوة عن رأسه فظن سلمان أن دسيسة كشفت في القصر يراد بها قتل الأمين وان الغلمان يفتشون عن صاحبها وتوهموا انه نزل البركة التماسا للفرار الى دجلة . لأن البركة متصلة بقناة تمر من تحت السور فاذا أغلقت الأبواب على هارب وكان يحسن السباحة استطاع الخروج من القناة الى دجلة لا يعترضه الا شبكة كالمصفاة منصوبة عند مخترق القناة من السور لا يصعب عليه نزعها

ثم سمع الأمين يصيح قائلا : « أين مقرطتي أين ذهبت ؟. من أخذها ؟. يا سعيد .. يا جوهر .. يا كوثر .. يا .. تعالوا ، أظنها وقعت في البركة .. ابحثوا عنها .. ألقوا الشباك .. »

فلما سمع كلامه تذكر ما سمعه من الهرش ، وعرف ما يعنيه ، فقد كانت هذه الضجة كلها لأن الأمين أضاع مقرطته ، وهي سمكة كانت قد صيدت له صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، وكثيرا ما كان يلهو بها ، فاتفق أن تفقدها في هذه الساعة فلم يجدها ، وشغل أهل القصر بالتفتيش عنها . فلما رأى سعدون ذلك تنحى جانبا حتى يفرغ الأمين من لهوه أو يجد

مقرطته وقال في نفســـه : « كيف تستقيم أمور دولة هـذا شأن خليفتها فلا عجب اذا فاز أخوه الساهر على أمره ، ومعه جند يتفانون في نصرته ؟ وهذا انما يحيط به المتملقون طمعا في رفده »

وفيما هو كذلك رأى الأمين ينظر اليـه وقد تحول مجونه وتهتكه الى جد واهتمام ، وأشار اليه أن يتبعه . فمشى سعدون في أثره حتى اجتاز باب القصر الداخلي واتصل منه الى دهليز ينتهي بقبة يسمونها «طارمة» مصنوعة من خشب الصندل والعود ، مساحتها عشر أذرع في مثلها ، اتخذ لها فراشا مبطنا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الا برسيم ، ورأى رجالا وقوفا ببابها عليهم سيماء الوجاهة ، وقد وسـعوا للأمين عند دخوله ، ومنهم : ابراهيم بن المهدي عم الخليفة ، وسليمان بن جعفر المنصور من شيوخ بني هاشم . فلما دخل الأمين أشار الى سـعدون بالدخول وصرف الباقين ، فترك سـعدون عكازه ونعاله بالباب ودخـل . فجلس الأمين على دكة في صدر القبة وأشار اليه أن يقعد فقعد وهو يعجب لتغير حاله . ووقع نظره على آثار لمجلس شراب وغناء كان منعقدا هناك قبل مجيئه فرأى الأقداح مبعثرة والأباريق متفرقة بين فارغ ومملوء وأطباق الفاكهة مصـفوفة . ورأى بين يدي الأمين قدحا من بلور يسع شرابا يزن خمســة أرطال وقد قلب وانكسر . ورأى قدحين مثله بين وسادتين كان عليهما اثنان من خاصة الجلاس لعلهما سليمان بن المنصور وابراهيم بن المهـدي ، وهما أرفع مقاما من سائر جلاسه

فأدرك سعدون أن الأمين كان في مجلس طرب وعلم بضياع مقرطته فأسرع للبحث عنها . ولـكنه اسـتغرب انقلابه من اللهو الى الاهتمام فلبث ساكتا حتى يبدأ الأمين بالكلام . أما هذا فانه أزاح بقايا القدح المكسور بين يديه ونظر الى سعدون وتنهد وقال : « لم يبق لي صديق أودعه سري الا ك.فرجالي تفرقوا عني ولم أجد بينهم مخلصا لأنهم انما يطلبون مالي أما أنت فقد أعجبت بعلمك واطلاعك على الخفايا فأحببت أن أستشيرك . ويسوؤني أنك جئتني ورأيت اشتغالي بعبث الغلمان ثم دخلت هذا المجلس ورأيت ما فيه من آثار الندمان على ما نحن فيــه من أسباب القلق وبواعث الاهتمام » . ثم تنهد تنهدا عميقا وقال : « ولكنني أفعل ذلك لأذهب ما بي من اليأس ، فبعثت الى بعض أعمامي ، فجاءوا الى بالمغنيات والشراب فشربنا وســمعنا ، ولم يذهب شيء مما في نفسي بل زدت يأسا وكدرا لما سمعت الجواري ينشدن من أبيات الشؤم ، ولا أدري أفعلن ذلك عمدا أم اتفاقا كقول احداهن :

وهم قتـــلوه كي يكونوا مكانه　　　كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

واني لأخشى ممن حولي وهم مثــل مرازبة كسرى ليس فيهم من يهمه أمري ، حتى الفضل وزيري تخلى عني وتركني واختفى . وزادني تشاؤما

أن احدى المغنيات قامت لحاجة لها فعثرت بهذا القدح فكسرته ، وهو قدحي ما برحت أشرب به منذ أعوام لم يصبه عطب • فهل ألام اذا تطيرت ؟ » • قال ذلك وصوته يكاد يختنق

فقال سعدون : « لا بأس عليك يا مولاى »

فقطع الأمين كلامه قائلا : « حتى أنت لم تصدقني هذه المرة أو أن تنجيمك لم يصدق »

قال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « أتذكر حديثك في قصر المنصور لما سألتك عن القتال بيني وبين أخي فبشرتني بالنجاح ؟ »

فاطرق كأنه يفكر ثم قال : « لو راجع مولاى ما قلته يومئذ لتحقق صدق قولي • فقد قلت ان العلم يدلني على أن الفئة التي فيها الفضل هي الغالبة فهل ذهب الفضل في تلك الحملة ؟ »

فانتبه الأمين لذلك وقال : « نعم لم يذهب ، وقد أردت أن أرسله مع الحملة الثانية فتنصل ، ولما ألححت عليه خاف التبعة فاختفى ولم أعد أراه ولا أعلم أين هو »

فهز سلمان رأسه متعجبا ، ثم أطرق هنيهة وهو يحك جبينه بسبابته وقال : «بل أرى المندل قد صدقني أيضا فان وزير أخيك فيخراسان اسمه الفضل ، وهو أقوم على نصرته من قيام هذا الفضل على نصرة أمير المؤمنين• اني واثق من صحة ما أعلمه واذا ظهر خطأ فانما يكون في فهم ما يظهر لنا من النتائج »

فصدق الأمين قوله وزادت ثقته به وقال له : « والآن لا أخفي عليك اني ـد فرغت يدي من الرجال ، وخزائني من الأموال حتى ضربت ما في قصوري ـن آنية الذهب والفضة نقودا وأعطيتها لرجالي ، وبعت الآنية الثمينة وفرقتها فيهم ، وجمعت ما استطعت جمعه من أموال التجار لأسترضي جندي ولكن هذا كله لم يفدني شيئا وأصبحت كما ترى »• قال ذلك وغص بريقه• ورأى سعدون دمعتين تتلألآن في عينيه فلم تتحرك شفقته أو حنوه ، وان أظهر ذلك احتيالا للوصول الى غرضه • وكان يود استفحال الأمر بين الأخوين حتى لا تذهب مساعي الفرس عبثا ، فأبدى أسفه لما سمعه من حال الأمين وقال : « ألم تبحث عن المال في قصر أخيك ، فقد علمت بمال حفظه نوفل خادم القصر من أيام مولانا الرشيد ؟ »

فقطع الأمين كلامه قائلا : « كان عند نوفل هذا ألف ألف درهم أخذناها مع الضياع والغلات »

فاطرق سعدون وقد سره تضعضع الأمين ثم قال : « أنت تطلب المال

لارضاء الجند ، وفي بغداد جند يحارب بلا عطاء ويأخذ عطاءه مما يغنمه »

قال : « أظنك تعنى العيارين والشطار ؟ »

قال : « نعم فهؤلاء يحاربون عراة وسلاحهم المقاليع ومخالى الخوص يحملون بها الحصى يرمون بها الناس فتؤذيهم أكثر مما تؤذيهم السيوف والرماح ، وفي بغداد اليوم من هؤلاء نحو خمسين الفا فأمر زعيمهم ان يجندهم »

قال : « اتظنني غافلا عن ذلك ؟ . كان الهرش عندى الساعة وقد أمرته باعدادهم فوعدني بأن يفعل ، وأظنه سيجمع من تصل اليهم يده من باعة الطريق وأهل السجون والأوباش والطرارين وأهل السوق . وهؤلاء اذا قاموا خربت المدينة . ولكن » . وسكت

فأدرك سعدون أنه يكتم شيئا يخاف التصريح به ، فظل ساكتا ينتظر ما يبدو ، فعاد الأمين الى الكلام فقال : « اشار علي بعض خاصتي الباقين على ولائي بأن أخرج من بغداد بمن بقي من رجالي ، وهم سبعة آلاف فارس فأمر ليلا من أحد أبواب المدينة حتي آتى الجزيرة أو الشام فيفرضون الفروض ويجبون الخراج ويكون لي مملكة واسعة هناك ، وأترك بغداد لأصحابها حتى يقضى الله بما يشاء فما رأيك ؟ »

فلما سمع سعدون ذلك تحقق انه الرأى الصواب ، وخاف اذا عمل الأمين به أن يعرقل مساعى الفرس ، لأن بقاء الأمين حيا في مملكة أخرى يفسد عليهم سعيهم فقال : « هل يرى أمير المؤمنين فائدة من الفرار ؟ . ومن أى باب يخرج بسبعة آلاف فارس وبغداد محاطة بالأعداء من كل جانب شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . فاذا وقع في يد أعدائه ــ لا قدر الله ــ فانهم يستحلون منه ما لا يستحلونه في حال أخرى »

فقال الأمين : « ألا نجد لنا مخرجا من بغداد ؟ »

قال : « اذا شاء أمير المؤمنين صعدنا الى احدى المنائر العالية ، وأشرفنا على بغداد وأرباضها فنرى أماكن العدو رأى العين والأمر بعد ذلك له »

□

استحسن الأمين رأى سلمان ، ونهض وقال : « في هذا القصر منارة عالية هلم بنا اليها » . فنهض سعدون في أثره حتي صعدا المنارة وأطلا منها على بغداد وقصورها ، فالتفتا أولا نحو الشرق وقال سعدون : « أنظر يا مولاى ، هذه مضارب هرثمة بن أعين وراء دجلة ؟ . وهذه مضارب عبيد الله بن وضاح في الشماسية ومعه جند عظيم وقد حفظ الجسر الأعظم . وجند هرثمة يحرسون طريق خراسان. فلا سبيل الى الفرار من هذه الجهة؟ وأما جهة الغرب فهذا طاهر وجنده في البستان قرب باب الأنبار وكأنى

أراهم يقتربون بأعلامهم . أراهم دخلوا محلة الكرخ حول باب الكوفة وما يليها وسائر الأرباض الغربية الجنوبية ، وكادوا يحصروننا والعيارون يدفعونهم بالمقاليع ألا ترى الحصى يتطاير فوق البيوت ؟ »

وكان الأمين ينظر الى ذلك وقلبه يختلج وامتقع لونه ، وتحقق ضياع أمره ، فلم يجب ولكنه وجه نظره نحو الحربية فى الشمال فرأى النار قد لعبت فيها فصاح : « ويلاه ما هذا ؟ .. »

فقال سعدون : « أظن أوشاب السكان وأهل السجون اغتنموا فرصة اشتغال الناس بالقتال فألقوا النار في البيوت ليتمكنوا من السرقة والنهب. انزل يا سيدى الى قصرك فانك آمن فيه وهو حصن منيع »

فنزل الأمين وسعدون وراءه حتى بلغا الدار فرأيا أهلها فى هرج ومرج يركضون ذات اليمين وذات الشمال كأنهم يفتشون عن ضائع ، وحالما وقع بصرهم على الأمين أجفلوا وصاحوا : «هذا مولانا أمير المؤمنين . هو هنا» . وما عتم أن رأى أمه زبيدة تعدو نحوه حتى ضمته الى صدرها ودموعها تتساقط وهي تقول : « ولداه أين كنت .؟ لقد بلبلت بالى لغيابك هذه الساعة. وقيل لى انك كنت جالسا هنا ثم لم يجدوك وذكروا انك لم تخرج فطار صوابى لتغيبك فى مثل هذا الوقت »

فأثرت لهفة أمه تأثيرا شديدا فى نفسه ولم يتمالك عن البكاء ، ثم تجلد وأظهر رباطة الجأش وقال : « وما الذى يخيفك يا أماه ؟ » . اننا فى خير ان شاء الله . وانما كنت مع رئيس المنجمين . ما الذى جاء بك الآن ؟ »

فأمسكت بالأمين ودخلت به غرفة ودخل سعدون فى أثرهما وأقفلوا الباب وقالت : « جئت لأمر مهم . أنت تعلم انى لا أغفل عن التفكير فى أمرك ، وقلبي يدلني على خطر يهددنا من يد ذلك الخراساني بهزاد. وما زلت أبث العيون للبحث عنه حتى قيل لى انه فى بغداد ، ولكنني لم أقف على مسكنه ، وبينما أنا أتوقع الوقوف عليه حلمت حلما مزعجا لا أقصه على أحد بل أنا أريد نسيانه . على اننى لم أعد أستطيع صبرا على بهزاد هذا ، واذا استطعنا القبض عليه فكأننا هزمنا نصف الجيش لأنه منذ وطىء هذه الديار تغيرت حالنا وقوى جند طاهر ، وذلك لأن بهزاد زعيم كبير وله نفوذ على كبار البغداديين ، وقد ذكرت لك مرارا انه رئيس عصابات سرية أعضاؤها من أكبر تجار بغداد وأهل النفوذ فيها » . قالت ذلك وقعدت

فقعد الأمين وهو يشير الى سعدون أن يقعد ، وقال لأمه : « وأين هو ؟»

قالت : « لا أدرى أين هو .. ولكننى سأبعث الى هذه الفتاة أستقدمها الى لعلها تعترف بمكانه فيسهل علينا القبض عليه »

فالتفت الأمين الى سعدون كأنه يستطلع رأيه ثم قال : « مالنا ولتلك الفتاة ؟ هذا رئيس المنجمين عندنا »

فقالت وهي تعتدل في مجلسها على الوسادة بجانب ابنها « أخبرنا أيها الملفان عما يدلك عليه علمك عن ذلك الخراساني »

فأخرج كتابه وقرأ فيه على عجل ووضع قطعة من البخور في فمه ومضغها قليلا ثم قال : « انه في بغداد يا سيدتي » . قالت : « هل تعرف مكانه ؟ »

قال : « يلوح لي انه بين ماءين ، ولكن ليس في النهر . على أن تحقيق ذلك يحتاج الى وقت أوسع وجو أصفى ، أما تلك الفتاة فلا تعلم مكانه . وكيف يتأتى ذلك وهي محبوسة في قصر أمير المؤمنين لا يراها أحد ولا ترى أحدا ؟ »

فاطرقت زبيدة هنيهة وقالت : « علمت ان ابن الفضل يهواها وهي لا تريده ، ولولا اختفاء ابنه لزوجته بها برغم أنفها » . وسكتت ثم قالت : « والفضل هذا خاننا عند الحاجة اليه . انه أصل هذه المصائب وهو الذى حرض محمدا على خلع أخيه والتجريد عليه . لعنه الله من خائن ! »

وغصت زبيدة بريقها كأنها شعرت بالخطر المحدق بابنها . ثم استأنفت الكلام وبدا على وجهها الاهتمام وقالت : « ولكنني حسنة الظن بالفضل » . وأحس الأمين بما تضمره من الخوف عليه فأحب ان يصرف ذهنها عن هذا فتجلد وتكلف الابتسام وقال : « سوف يلقى الخائن جزاءه ، اذهبي يا أماه الى قصرك الآن واطمئني وادعي لنا بالنصر ، ولا يغرنك ما ترين من كثرة جند الأعداء فاننا غالبون باذن الله ، ولنا من العيارين أكبر معين »

فعلمت انه يريدها أن تنصرف ، فنهضت وهمت بالخروج فأحست بما يحبب اليها البقاء،ولم يطاوعها قلبها على فراق ابنها كأنه أنذرها بالخطر عليه، فأرادت أن تعود الى مقعدها فخافت أن تكدر ابنها فوقفت هنيهة تتردد ثم أكبت على الأمين وقبلته في عنقه قبلات حارة ، فأحس بسخونة الدمع فدفعها بلطف وقبل صدرها وهو يغالب عواطفه ويخاف أن تخونه دموعه . أما هي فأسرعت في الخروج وشعرت بأن قلبها خلع من صدرها وانصرفت في موكبها الى قصرها

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فقال سعدون : « هل يأمر لي مولاى بالانصراف ؟ »

فقال : « امكث .. لا تفارقني . اني سأحتاج اليك الليلة »

فتوقع سعدون من وراء ذلك نبأ جديدا فنظر الى وجه الأمين فرأى اضطرابا لم يعهده فيه من قبل ، فهم بالخروج الى بعض غرف الأضياف فأشار اليه الأمين أن يمكث ، ثم صفق فجاءه غلام فقال : « الي بالشراب وأنر الشموع ».فلما خرج الغلام نزع الأمين عمامته عن رأسه وزفر زفرة سمع لها دوى وقال : « يلومونني على الشراب ، وماذا يفعل اليائس في مثل هذه الحال؟ان الشراب ينفس الكرب ويذهب الغم حتى يقضي الله بما يشاء».

أما سعدون فجلس متأدبا محتشما ، ثم جاء الغلمان بمائدة الشراب والفاكهة وأناروا الشموع الكبيرة المعروفة باسم الأمين ، فصاح الأمين بالغلام قائلا: « هل عمي ابراهيم هنا ؟ » . يريد ابراهيم بن المهدي المغنى

قال : « كلا يا مولاى »

فاشار اليه أن يملأ له قدحا ، ثم أخذه وأشار اليه أن يملأ قدحا آخر وقال لسعدون « ألا تشرب يا ملفان »

قال : « اذا أمرني أمير المؤمنين أطعته ، ولكنني لم أذقها قبل الآن والشراب لا يتفق وصناعتي »

فقال الأمين للساقي : « دعه لا تسقه . اننا في حاجة الى علمه وصناعته الليلة واذا جاءنا رسول فاوص صاحب بابنا أن يوصله الينا حالا ولو في نصف الليل »

فازداد سلمان رغبة في استطلاع ما يضمره الأمين،ولبث ينتظر ما يبدو منه ، فشرب الأمين بضعة أقداح وسرى عنه . فالتفت الى سعدون وقال : « أتدرى لماذا استبقيتك هنا دون سواك ؟ » . قال « كلا يا سيدى »

قال : « لو أردت لكشفت سري لبعض خاصتي ، ولكنني أصبحت لا أثق بأحد من أهل بطانتي بعد ان تكشفوا لي عن أعداء في ثياب الاصدقاء ، وما منهم الا من يطمع في مالي . ويكفيك مثلا منهم وزيري سبب هذا الخصام بيني وبين أخي . فانه لما رأى اشتداد الأزمة خاف على حياته واختفى ولم يبال ما يهددني ، وهكذا فعل كل رجال دولتي فانهم بقوا معي حتى أنفقت أموالي وبعت جواهري وآنيتي ، فلما فرغت يدي تخلوا عني . وشدد الأعداء الحصار علينا فمنعوا الأقوات عنا » . وكأنه خاف أن تبدو جهشة بكائه فتناول قدحا وفاكهة يتشاغل بهما واعطى سعدون بعض الفاكهة وهو يقول : « ومن كان هذا شأنه مع رجال بطانته كيف يرجى فلاحه ؟ »

فاستبشر سعدون من شكواه وتحقق سقوط دولته ، ولكنه تظاهر بالاستغراب وقال : « لا ييأس أمير المؤمنين ان الله ناصره فليتوكل عليه »

فقال : « طالما خدعتني الآمال ، وصدقت المتملقين أهل الفساد حتى نزغ الشيطان بيني وبين أخي ، فرأيت رجاله أثبت من رجالي وقواده أكفأ من قوادي ورجعت الى رشدي ، فاذا أحببت أن أصالحه لا أجد من يتوسط بيني وبينه .. فها أنذا أطلعتك على سر ضننت به على أهل دولتي . وعلى أمي »

فقال سعدون : « اني عند ثقة مولاى » . فقال الأمين : « لا أخفي عليك أني لما فرغت يدي من الرجال والمال وامتنع على الخروج بعثت الى هرثمة في البر الشرقي أطلب الأمان وأنا في انتظار الجواب .. فهل أحسنت ؟ »

مقتل الأمين

أظهر سعدون الأسف للأمين ، ثم رفع حاجبيه ، وقال : « حسنا فعلت، وما فى الأمان عار لاسيما انك ستكون فى أمان أخيك والدم لا يتغير ولا يخون .. ولكن .. » . وسكت

وكان الأمين يصغى لكلام سعدون وبيده تفاحة يقشرها ، فلما رآه توقف قال : « ولكن ماذا ؟ »

قال : « لا أدرى الحكمة فى الاتصال بهرثمة دون طاهر ، وهو صاحب الجند المحاصر لهذا الشطر من بغداد »

فتنهد الأمين ورمى التفاحة من يده وقال : « لا .. لا أتصل بطاهر فانى أتطير منه وأكرهه ، وقد رأيت فى منامى كأنى واقف على حائط من آجر شاهق عريض الأساس لم أر مثله فى الطول والعرض ، وعلى سوادى ومنطقتى وسيفى وكان طاهر عند أساس الحائط فما زال يضربه حتى سقط وسقطت قلنسوتى عن رأسى فتشاءمت منه . أما هرثمة فانه من موالينا وهو بمثابة الأب لى »

فرقص قلب سعدون طربا لهذه البشرى وقال : « الأمر لمولانا »

وفيما هما فى الحديث جاء الغلام يقول : « ان رسول أمير المؤمنين بالباب »

فقال الأمين : « يدخل حالا »

فدخل الرجل متخفيا بثياب التجار ، فوقف الأمين وقال له : « قل ما وراءك ؟ »

قال : « أأقول كل شىء ؟ » . قال « قل ولا تخش شيئا »

قال : « لقيت هرثمة وعرضت عليه ما أمرتنى به فقال : (السمع والطاعة) ولكنه يرى أن يكون نزول أمير المؤمنين عنده فى الليلة القادمة وليس فى هذه الليلة و ... »

وكان الأمين مقبلا على سماع الرسول فلما سمع قوله أشار اليه أن يقعد وقال : « وماذا بعد ذلك ؟ قل ولا تخف . ما الذى بعثه على تأجيل الذهاب؟ »

فقعد الرجل وقال : « لأنه على ثقة من أن ذهاب أمير المؤمنين اليه يسوء طاهر بن الحسين ، وهو قريب من هذا القصر وانما شدد الحصار رجاء أن يختار أمير المؤمنين الخروج بأمانه اليه فيفتخر بالفوز على يديه وله عيون

مبثوثة في هذه الأطراف . وأخبرني هرثمة أنه شاهد على الشاطيء أمرا رابه فهو حريص على حياة أمير المؤمنين »

فأدرك الأمين ان طاهرا يهدده فقال : « بل أذهب الى هرثمة . ولابد من الذهاب الليلة لأني أصبحت وحيدا وقد تفرق عني الناس والموالى والحرس وغيرهم ، ولا آمن أن ينتهى الخبر الى طاهر فيدخل على فيأخذني »

ونهض وقد بانالانقباض في محياه،وأمر فجيء اليه بثياب بيض وطيلسان أسود فلبسها واعتم بعمامة خفيفة ثم أمر الغلام أن يأتيه بولديه . فوقف سعدون وسكت تهيبا واحتراما وقال للأمين : «أيأمر مولاى بخدمة أقضيها فان نفسى فداؤه »

قال : « لا تفارقني حتى أخرج انى أرى وحشة » . ثم جاءوه بولديه فضمهما اليه وودعهما وبكي وقال : « أستودعكما الله عز وجل » . ومسح عينيه بكمه ومشي الى بغلة أعدوها له فركبها ، وسعدون واقف الى جانبه ، فأشار اليه مودعا فقبل سعدون ركابه وقال : « سر في حراسة الله » . فأوصاه بأهله خيرا وخرجراكبا الىالشاطيء وكانت حراقة هرثمة فيانتظاره هناك فنزل فيها فحول ربانها الدفة نحو الشاطيء . وكان فيالحراقة هرثمة نفسه وجماعة من رجاله . فلما دخل الأمين قاموا له وجثا هرثمة على ركبتيه واعتذر اليه من نقرس في رجله ، واحتضنه وضمه اليه وجعله في حجره ليؤنسه . وكانت ليلة باردة ـ لأنه خرج في مساء الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ وهي توافق ٢٨ سبتمبر سنة ٨٦٣ ـ وأمر هرثمة النوتية أن يسرعوا في التجذيف فقد شاهد حركة على الشاطيء . واذا بزوارق لطاهر كانت راسية هناك قد أسرعت الى حراقة هرثمة ونقبوها ورموا فيها بالآجر والنشاب فدخل الماء الى الحراقة فغرقت وسقط هرثمة والأمين الى الماء فشق الأمين ثيابه وخرج الى الشاطيء ونجا هو وهرثمة . فأركبوا الآمين حمارا وساروا به يطلبون مخبأ وهم لا يصدقون أنهم نجوا

▭

كانسلمان بعد ذهاب الأمين قد جعلهمه أن يقتله ، لأن في بقائه علىقيد الحياة ما يجعل سبيلا الى الصلح مع أخيه فلا يستفيد الفرس شيئا . فنزع عنه ثياب التنجيم وسبق الأمين الى الشاطيء،وأخبر رجال طاهر بأن الأمين خارج الساعة الى حراقة هرثمة فترقبوا قدومه ، ولما رأوا الحراقة تتحرك أغرقوها كما تقدم . وكان سلمان معهم فنزل في جملة من نزل للبحث عن الأمين فرافق الذين فروا به الى المكان الذى خبأوه فيه ثم رجع الى بهزاد

وكان بهزاد منذ وصوله الى بغداد يحرض رجال الشيعة علىالأخذ بناصر

اخوانهم وفيهم جماعة الخرمية ، ولكنه لم يظهر لطاهر ، ولم يعلم طاهر به ، على أنه كان يغتنم الفرص لمساعدة الجند كما فعل في واقعة الري ، وكان نفوذه على الخرمية ببغداد عونا كبيرا لرجال المأمون حتى تضعضعت أحزاب الأمين وضعف أمره واضطر للتسليم · ولم يكن بهزاد يرى أن يأخذ الأمين أسيرا ، وانما كان همه أن يلتقي به في ساحة قتال ويبارزه ويقتله بخنجره ليتم وعده لأمه فيرجع اليها برأسه ظافرا غانما · وكان في أثناء اقامته ببغداد أو ضواحيها يجتمع بسلمان ويسأله عن ميمونة ، فيطمئنه هذا لئلا يشغله داعي الغرام عن اتمام مشروعه · واتمام هذا المشروع يهم سلمان كما يهم بهزاد ولكن غرضه ومطمح أمله في خراسان وليس في بغداد

قضى بهزاد مدة طويلة على هذه الحال حتى اشتد الحصار وبلغه حديث الناس عن الأمين ، فتوقع قرب استسلامه · وفيما هو ذات ليلة في منزل أحد الخرمية بالكرخ وقد انتصف الليل ونزع ثيابه وعلق سلاحه فوق رأسه ونام · جاءه أحد الغلمان ينبئه بقدوم سلمان ، فعلم أنه لا يأتيه في مثل ذلك الوقت الا لأمر مهم ، فنهض وأمر بادخاله ، فدخل سلمان وعليه ثياب لا هي لرئيس المنجمين ولا للخادم سلمان ، ودلائل التعب بادية في وجهه ، فصاح فيه : « ما وراءك يا سلمان »

قال : « أبشر بالنصر »

قال : « اني مستبشر به وواثق من الحصول عليه ، ولكن ماذا حدث ؟ »

فقص عليه الحديث كله الى أن قال : « فالأمين الآن مختبىء في بيت لبعض الناس على الجانب الشرقي ، وقد تركته عريان وليس عليه من الثياب الا السراويل والعمامة وعلى كتفيه خرقة خلقة ، ومعه احمد بن سلام صاحب المظالم لأنه لقيه في فراره عرضا · وسمعت الأمين يسأله عن اسمه فلما عرفه استأنس به وقال له : (ضمني اليك فاني أجد وحشة شديدة) · فضمه اليه وكانت عنده مبطنة القاها عليه · ثم سمعته يقول له : (يا أحمد ما فعل أخي ؟) · فقال له : (هو حي) · فقال : (قبح الله بريدهم كان يقول قد مات) · وأنا واثق بعلمه أنه حي ، ولكنه ما قال هذا الا استرضاء واعتذارا · فأجابه ابن سلام : (قبح الله وزراءك) · وسمعته يقول : (وما تراهم يصنعون بي ، أيقتلونني أم يفون لي بأمانهم ؟) · فقال له : (بل يفون لك) · وقد كذب فأله » · وتنحنح سلمان ، فأدرك بهزاد غرضه من ذلك فقال : « ماذا تعني يا سلمان ؟ · · أترى أن ننكث عهد الأمان ؟ »

قال : « وهل تريد أن يبقى هذا الرجل حيا · · ؟ فاذا حمل الى أخيه وقع الصلح فيذهب سعينا عبثا ؟ · لماذا حملت هذا الخنجر معك من خراسان ؟ · ألم تذكر أنك نذرت أن تنتقم به لأبي مسلم وجعفر ؟ · فكيف تنتقم لهما · ها قد سنحت لك الفرصة والرجل في قبضة يدنا وفي قتله ختام فوزنا · أنتركه يفلت منا ؟ »

قال بهزاد : « أنت تعلم أني أول ناقم على هذه الدولة وقد كرست حياتي لمناهضتها ونجحت في مسعاي والحمد لله · وأقصى رغبتي أن أقتل هـذا الخليفة بيدي وبخنجري لأضيف رأسه الى الرأسين اللذين تركتهما في مرو · نعم أريد أن أقتله في ساحة الوغى · أقتله متقلدا سلاحه بالمبارزة وليس غدرا وخلسة وهو أعزل خائف دخل في أماننا · أننكث ونحن انما نقمنا على هذه الدولة لانها نكثت العهود وغدرت ببعض رجالنا ؟ · والغادر تعود عاقبة غدره عليه » · قال ذلك وبانت الحماسة في عينيه · فتكدر سلمان من هذه الأريحية لأنه لم يكن يفهم مغزاها وانما هو رجل ماكر داهية يهمه تنفيذ مآربه لا يبالي ما يعترضه ولا يهمه ما يأتيه في سبيل ذلك من أسـاليب الكذب والمكر والغدر · لا يخاف ضميرا ولا يرعى ذماما ، ولذلك اختـاره صاحب الأمر بخراسان للعمل الذي تقتضيه هذه الخصال ، على خلاف بهزاد فانه رئيس شريف وكل أعماله تؤيد ما طبع عليه من الاريحية وصدق اللهجة والبسالة

فلما سمع سلمان اباءه لم يستغربه ولكنه ندم على تكليفه ذلك وتظاهر بأنه اقتنع وقال : « صدقت يا بهزاد بورك في بطن حملك » · وتناعس فنام ونام بهزاد وهو يفكر فيما انتهت اليه هذه المهمة وما عساه أن ينجم عنها · وبينا هو في رقاده في أواخر الليل اذ سمع خربشة فاستيقظ وفتح عينيه فرأى شبحا واقفا بجانب فراشه وهو يتطاول الى الحائط فنهض والتفت ولم يذعره ذلك وقال : « من هذا ؟ »

فرأى شيئا وقع من يد الرجـل على الفراش فتوسـمه فاذا هو خنجره والرجل سلمان فقال : « ماذا تفعل يا سلمان ؟ »

قال : « لا أفعل شيئا وقد فعلت ما أريده وهذا خنجرك خذه »

فمد يده الى الخنجر فرأى عليه أثر الدم فقال : « ماذا فعلت · هل قتلت الرجل ؟ »

قال : « قتلناه لا أقامه الله · · أكنت تريد أن يبقى عثرة في طريقنا ؟ · لقد مات واسترحنا منه »

فصاح به : « ويلك قتلته ؟ وبخنجري ؟ »

قال : « لأن خنجرك موجود لهذا الأمر كما قلت فأحببت أن أتحمل أنا ذنب القتل وأترك لك فضـل الاباء والنزاهة والأريحية وكبر النفس » · وهز رأسه استخفافا وقال : « تريدون انشاء دول لا نكث فيها ولا غدر، ولم نر صاحب دولة استغنى عن ذلك ولولا أن غدر أبو مسلم الخراسـاني ما غلب ، والمنصور لو لم يغدر به لم تثبت دولته ، والرشيد لو لم يغدر بجعفر لكان في خطر على خلافته · بل ارجع الى صدر الاسـلام تر عليا وابناءه لم يفشلوا في سياسـتهم الا لأنهم توخوا الحق والوفاء وبالغوا في البعد عن

الغدر والدهاء · ولو لم يمكر معاوية ويغدر لما استطاع أن ينشيء دولة ولا أقام سلطانا · وقد توارث العلويون حب الحق والتدقيق في الوفاء من على فكان حظهم الفشل مثل حظه · ما أحوجنا نحن الى الغدر الآن ، على انى لم أكلفك ارتكاب هذه الجريمة فتحملت الذنب وحدى »

فاعجبه اعتذاره وقال : « ومع ذلك فان الغادر تعود عاقبة غدره عليه والتاريخ أصدق شاهد » · وسكت وقد سره التخلص من الأمين على يده ودون أن يتحمل وزر دمه فقال : « وكيف فعلتم ؟ ·· كيف قتلتموه ؟ ·· قبحكم الله ! »

قال : « سرقت خنجرك وتزييت بزى جند الفرس ، وأسرعت الى المكان الذى تركت الأمين فيه وقد مضى نصف الليل والظلام شديد ، فلقيت ببابه بضعة رجال من العجم وسيوفهم مسلولة ، فاختلطت بهم ودخلت معهم على الأمين فوجدته قاعدا ولما رآنا نهض قائما وقد أخذ الرعب منه ماخذا عظيما وقال : « انا لله وانا اليه راجعون ذهبت والله نفسى فى سبيل الله ، أما من مغيث أما من أحد من الأبناء ؟ » · أما نحن فظللنا داخلين عليه وكان بيده وسادة تترس بها وهو يقول : «ويحكم أنا ابن عم رسول الله،أنا ابن هرون، أنا أخو المأمون ، الله الله فى دمى ! » · فخفت أن تدرك القوم رأفة فيفسد علينا أمرنا فالححت على رجل أمامى كان سيفه مسلولا بيده ، وقلت عليك به فضربه بالسيف على رأسه فرماه الأمين بالوسادة فتقدمت أنا وطعنته بهذا الخنجر فى خاصرته فكانت القاضية فصاح : (قتلنى قتلنى) · فدخل بقية القوم فذبحوه من قفاه وأخذوا رأسه ومضوا به الى طاهر وجئت أنا بالخنجر اليك · فان كنت ترى انى أستوجب القصاص فاحكم على »

قال : « يظهر أن الرجل كان مقتولا لا محالة ، ولكنك جعلت لخنجرى أثرا فى القتل حتى يصح النذر·رحم الله الأمين ، وهنيئا لنا فقد انتهت مهمتنا»

قال سلمان : « ونحن راجعون الى خراسان غدا اذا شئت »

قال : « ولماذا هذه العجلة ؟ »

فقال وهو ينظر اليه شزرا : « فرغت أنت من عملك وضمنت مستقبلك، وهذه ميمونة تحت أمرك لو مكثتما هنا أو فى غير هنا فأنت مطمئن · أما أنا فلى مأرب فى خراسان لم أتوثق منه بعد ، لذلك أحببت الرجوع »

قال بهزاد : « وميمونة ؟ ألا تخرجها من المكان الذى حبستها فيه ؟ »

فضحك وقال : « صدقت ، هى فى قصر المنصور ، وفى الغد أحملها اليك مع جدتها · ألا يكفيك ذلك ؟ »

قال : « بلى · وانى شاكر لك معروفك ، وقد آن لنا أن نكون كالأخوة فأنت أخى وصديقى منذ الآن ، وقد انقضى زمن الخدمة بانتهاء هذه المهمة »

فأثنى سلمان عليه ، وباتا بقية ذلك الليل ونهضا مبكرين فقال سلمان :

اني ذاهب لساعتي بلباس رئيس المنجمين حتى يسهل على الدخول الى قصر المنصور لاحضار ميمونة وأنت ماذا تفعل ؟ »

قال : «أسير في ظلك أو أنت تسير في ظلي حتى لا نضيع فرصة». قال : « حسنا »

▭

تزيي سلمان بزى رئيس المنجمين وركب بغلته ، وركب بهزاد جواده وعليه القباء والقلنسوة والسراويل كأنه أحد كبراء الفرس . فمرا بأسواق الكرخ وقد لاح الفجر ، وتحولا من ناحية باب الكوفة فهالهما ما شاهداه من ازدحام الأقدام ، واستغربا كثرة ما يتساقط عليهما من الحصى التي كان العيارون يرمونها من الأسوار . وقبل وصولهما الى الباب رأيا جماعات من الناس وفيهم أهل الأسواق فضلا عن الجند الخراساني يستبقون الى البستان الذى كان طاهر معسكرا فيه ، واذا برأس مرفوع على قناة فعلم سلمان أنه رأس الأمين جاء به طاهر وغرسه على برج فوق حائط البستان . ولما رآه الناس سقط في أيديهم وهلعت قلوبهم أو لعلهم فرحوا لانتهاء الحرب . ولما وقع نظر بهزاد على الرأس كبر واستعاذ بالله وقال : « سبحان الحي الباقي ، اليوم سقطت دولة وقامت دولة أخرى . اذا عرف الفضل بن سهل الانتفاع بهذا النصر »

فقال سلمان : « ماذا ترى طاهرا يفعل بهذا الرأس ؟ »

قال : «أظنه يرسله الى المأمون في خراسان ومعه البردة والخاتم والقضيب، لتطمئن القلوب ويتحققوا النصر ، ولينال طاهر جائزة كبيرة ويصبح المأمون الخليفة الوحيد »

أما قصر المنصور فكان سلمان قد غادره بالأمس وأهله غافلون عما يجرى في قصر الخلد وكانت القهرمانة فريدة مشتغلة بشؤنها فجاءها الحاجب يقول: « ان ابن الفضل بن الربيع بالباب يطلب أن يراك » . وكانت تعرف الفضل ومنزلته عند الأمين ، فظنت ابنه قادما بأمر مهم فاذنت في دخوله. وكان قد مضي عليه وقت طويل وهو مختف مع أبيه لكنهما لم يفارقا بغداد فكانا على بينة مما يجرى فيها ، فلما علم في ذلك المساء أن الأمر قد استفحل ولا تلبث بغداد أن تسقط في أيدى الخراسانيين . وكان يراقب حركات ميمونة ويعرف أمرها . أخذ يسعى جهده في الحصول عليها حتى ذهب الى زبيدة في صباح الأمس وأقنعها بأنه يستطيع أن يستعلم منها عن محل بهزاد ولمح انه يحبها فقالت : «اذا استطعت معرفة مكان الرجل فانها لك». فطلب منها أمرا للقهرمانة أن تاذن في مقابلتها . ولما رأى اضطراب الحال

أتى ببعض العيـــارين واستأجرهم لاختطاف ميمونة اذا لم تأذن القهرمانة بتسليمها وجاء الى قصر المنصور

فلما دخـل على القهرمانة قابلته أحسن مقابلة ، وسألته عما يريده فدفع اليها كتاب زبيدة فتذكرت أن سعدون كان قد أوصاها بألا تأذن لأحد في اخراجها ، فلم تر بأسا من أن يقابلها ابن الفضـل فدخلت عليها وأخبرتها ان ابن الفضل يريد مقابلتها وكانت جدتها عبـادة معها فقالت : « لا حاجة لنا به »

فقالت : « ولكنه جاءنى بأمر من مولاتنا زبيدة »

فلما سمعت عبادة ذلك الاسم اضطربت جوارحها وتشاءمت ، وتوسلت الى القهرمانة أن ترد عنهما هذا الشاب فلم تفعل

فاقبل ابن الفضـل على الغرفة وقد أنيرت بها الشموع وجلست ميمونة بثوبها الأسود وقد تغير لونها من توالى المصائب وأصابه شحوب زاده رقة ، فدخل وهو يبتسم ابتسامة الاستعطاف وفي وجهه أمارات الحب • فحـالما رأته اقشعر بدنها وظلت جالسة مطرقة فتقدم نحوها وحياها وقال : « ألا تعرفيننى يا ميمونة ؟ »

قالت بنفور وجفاء وهي تحول وجهها عنه : « كلا »

قال : «ألا تعرفين شابا يهواك الى حد التلف ؟ ألا تعرفين ابن الفضل ؟»

قالت : « سمعت بهذا الاسم وذكره يؤلمنى لأن أباه ألبسنى هذا الثوب »

فقال متلطفا : « وأنا أتكفل أن أعوضك منه ثوبا أبيض ومن أيامك السود أياما بيضاء كالثلج ! »

قالت وهي تنظر اليه شزرا : «قد تعودت السواد ولم أعد أشتهي سواه»

قال : « البسى ما تشائين وافعلى ما تشتهين ولكن تعطفى على فتى يحبك حبا مبرحا • انى أحبك يا ميمونة ومن سوء الطالع انك لا تحبيننى » • قال ذلك وجثا بين يديها وأراد لمس يدها فجذبتها منه كأن عقربا همت بلدغها !

فوقف وقد شق عليـــه جفاؤها وقال : « جئت يا ميمونة أتوسل اليك باسم الحب فاذا لم تشفقى على تذللى جئتك من سبيل آخر »

فقالت : « لا أعرف لك سبيلا الى ، دعني وشأني وابحث عن سواى فان النساء كثيرات »

قال : « لم يقع اختيارى على سواك ، ويدلك على ذلك ثباتى فى حبك رغم ما تظهرين من النفور • ألم يأن أن تتعطفى ؟ »

فتحولت عنه وقالت : « دعنى يا رجل »

فنهض وقال مهددا : « قلت لك اذا ظللت على هذا الجفاء عاملتك بالقسوة ولو شق على ذلك »

قالت وهي لا تنظر اليه : «لا تستطيع شيئا ونحن في قصر أمير المؤمنين»

قال : « اني أستطيع حملك بالقوة ، فان معي فرقة من الجند وبيدي أمر من أم الخليفة »

وكانت جدتها جالسة تسمع ما يدور بينهما فصاحت قائلة : « كنت احسبك شهما يؤثر فيك الكلام ٠ أما كفاك ما سمعته ؟٠دع الفتاة وشأنها٠ ولو كنت مكانك وعلمت أنها لا تحبني لتركتها وشأنها »

قال : « يشق على أن أفشل بعد الصبر الطويل فاني أريد الآن أن أعلمها من أنا وان مثلي لا يعامل هكذا وفي بغداد مئات من بنات الأمراء والقواد يتمنين رضاي »٠والتفت الى ميمونة وقال : « ارجعي الى صوابك وثقي باني أنصح لك فلا تلجئيني الى القوة ، ان فرقة من العيارين في انتظار أمري خارجا »

فضاقت نفسها وتململت وصاحت : « ويلاه أين الجند أين الحرس ؟ » فنهضت جدتها وقالت لابن الفضل : «اكفنا أيها الشاب شرك ودعنا وشأننا٠ اذا كنت تعرف من نحن فاشفق علينا وكفانا ما قاسيناه من البلاء »

وفيما هم في ذلك سمعوا جلبة في الدار فظنت ميمونة أن العيارين دخلوا للقبض عليها فصاحت : « ويلاه يا ربي٠اذا لم يكن قد انتهى حبل مصائبي فخذ روحي » ٠ وطفقت تبكي ولم تتمالك لاضطرابها ولهفتها أن صاحت : « أين سلمان ٠ أين بهزاد ؟ أواه ما أشقاني ! » ٠ وكانت جدتها في أثناء ذلك واقفة الى جانبها تهون عليها والدموع تتساقط من عينيها

أما ابن الفضل فعلم أن الضوضاء ليست من العيارين فخرج ليرى سببها فسمع الخدم يقولون : « السيدة زبيدة أتت »

فاستغرب الجميع مجيئها في تلك الساعة وقد مضى معظم الليل

والسبب في مجيئها أنها بعد أن خرجت من قصر الخلد في ذلك المساء وهي على ما وصفنا من الخوف على ابنها ، ذهبت الى قصرها مبلبلة البال ، وكان قلبها دلها على الخطر القريب فذهبت الى الفراش ولم تنم ٠ وبعد منتصف الليل أيقظتها قهرمانة قصرها فنهضت مذعورة وسألت عن الخبر فقالت القهرمانة : « ان بعض شاكرية قصر الخلد يسأل عن أمير المؤمنين »

فصاحت : « يسأل عن ابني ؟ يسأل عنه هنا ٠٠ أين هو ؟ اني تركته في قصر الخلد منذ ساعتين ٠ أين الشاكري » ؟

فأدخلوه اليها فقالت : « أين أمير المؤمنين ؟ »

قال : « لا نعلم يا سيدتي وقد بحثنا عنه في كل مظانه بالقصر فلم نجده ولا نعلم أين هو »

فنهضت والتفت بمطرفها وركبت الى قصر الخلد وفتشت عنه هناك فلم

تجده . فخطر لها أنه قد يكون ذهب في أمر وسيعود فمكثت على مثل الجمر حتى كاد الفجر يلوح فحدثتها نفسها انه دخل مدينة المنصور للامتناع في قصرها . فركبت الى هناك وسألت عنه القهرمانة فذكرت انها لم تره

فقالت زبيدة : « رأيت بالباب بعض العيارين فمن أتى بهم الى هنا ؟ »

قالت : « ابن الفضل وقد جاءني بكتاب منك ليكلم الجارية ميمونة »

فلما سمعت اسمها اشتد غضبها وصاحت : « أين هي ؟ »

قالت : « هي في هـــذه الغرفة » . ولم تصبر زبيدة لتستقدمها اليها فتوجهت الى الغرفة ودخلت فجأة وقد أخذ الغضب منها مأخذا عظيما، فلقيها ابن الفضل بالباب فتنحى ، ودخلت فرأت ميمونة واقفة وجدتها عبادة الى جانبها فلما رأت عبادة هناك لم تتمالك أن صاحت : « وأنت هنا أيضا ؟ تبا لك من عجوز شقية . انك سبب متاعبي وأصل بلائي ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

فاطرقت عبـادة وسكتت لانها لم تجـد وجها للكلام ولا عذرا للمجيء . فوجهت زبيدة خطابها الى ميمونة وقالت : « والآن ألم يئن لك أن تقولي لنا عن مكان ذلك الشقي الخائن الذي تسمونه بهزاد . وقد علمت أنه في بغداد وكل بلائنا منه . أين هو ؟ »

فقالت وصوتها يختنق من الخوف : « لا أعلم يا سيدتي فأنا سجينة هنا لا يصل الى خبر ولا أعرف من حوادث الدنيا شيئا »

قالت : « أتكذبين والعلاقة بينك وبينه على يد خادم اسمه سلمان ؟ »

فقالت : « اسألي القهرمانة ، اني لا أرى خادما ولا أميرا ، بالله أشفقي على يا سيدتي وكفاني ما أقاسيه » . واغرقت في البكاء

قالت : « أشفق عليك ؟ لماذا ؟ . لو استطعت خنقك بيدي ما ترددت » . ثم التفتت الى الخارج فرأت ابن الفضل واقفا فصاحت به : «خذ هذه الجارية فقد ملكتك اياها افعل بها ما تشاء . وهذه العجـوز النحس سوف أذيقها ما تستحقه »

فلما سمعت عبادة قولها جثت بين يديها وقالت : « افعلي بي ما تشائي وارفقي بهذه الفتاة فانها بريئة من كل ذنب . قد تضرعت اليك في شأنها قبل الآن فرددتني ، والآن أتوسل اليك وأنت والدة وتعرفين حنو الأمهات أن تترفقي بهذه الفتاة . وأما أنا فلا أسف على حياتي »

فلما سمعتها تذكر حنو الوالدات أحست بشيء أوهن عزمها ، لعلمها بما يهدد ابنها من الخطر ولاسيما في تلك الساعة فقد أضاعته ولا تعلم أحي هو أم ميت . ولـكنها تجلدت لئلا يظهر الضعف عليهـا ، فنهضت وتظاهرت بالغضب وقالت : « قلت لك انه لا سبيل الى خلاصها الا اذا اعترفت بمكان بهزاد والا فهي ملك لابن الفضل » . وأشارت اليه أن يأخذها

بهزاد وميمونة

خرج ابن الفضل لينادي العيارين ليقبضوا على ميمونة ويحملوها قهراً، فسمع الخدم يقولون : « أتى رئيس المنجمين » . فأراد أن يراه ويخاطبه لعله يقنعها بالحسنى فقيل له : « انه عند السيدة زبيدة » . وكانت قد انفردت فى القاعة الكبرى وأخذت تفكر فيما أحاط بها وما يهددها وقلبها خائف على ابنها . فدخلت القهرمانة وأخبرتها بقدوم رئيس المنجمين فقالت : « ادعيه الى »

وكان سلمان قد وصل الى القصر مع بهزاد منذ هنيهة والمدينة قد سقطت وأهل قصر المنصور لا يعلمون . فلما أتيا وجدا فى ساحته جماعة من العيارين فلم يبال سلمان وتقدم الى الباب فرآه موصدا وسمع ضوضاء من الداخل فقرعه فلم يجبه أحد فبالغ فى القرع فأطل عليه خادم من كوة فوق الباب وقال : « من الطارق ؟ »

فرفع سلمان بصره فرأى غلاما عرفه فصاح به : « افتح حالا »

فعرف الغلام انه رئيس المنجمين فأسرع وفتح الباب فدخل ببغلته ودخل بهزاد فى أثره الى فناء القصر وترجلا وسلما الدابتين الى الغلام ، فرأيا أهل القصر فى هرج والخدم يدخلون ويخرجون من باب القصر الداخلى . فقال رئيس المنجمين للغلام : « أين القهرمانة ؟ »

قال : « هى بين يدى مولاتنا زبيدة »

فلما سمع ذلك تشاءم من وجودها فقال : « ادع لى القهرمانة الساعة . قل لها رئيس المنجمين يطلبك لأمر مهم »

فمضى وعاد وهو يقول : « ادخل فان السيدة زبيدة تطلبك »

فالتفت الى بهزاد وقال له : « لا شك أنها ستسألنى عن ابنها وعن مكانه ، وربما تسألنى عنك فهل أذهب اليها وحدى ؟ »

قال : « دعنى أذهب معك »

فقال سلمان للغلام: ؟ قل للقهرمانة ان مع رئيس المنجمين رفيقا لايدخل لا معه »

فعاد وقال : « ادخلا الى القاعة» فدخلا والغلام يمشى أمامهما الى القاعة . فدخل أولا سعدون وحيى ، ثم دخل بهزاد ولم تنتبه له زبيدة لاشتغالها

عنه بهواجسها ، وكانت قد تربعت ووضعت على حجرها وسادة أسندت اليها كوعيها والقت رأسها بين كفيها • فحالما دخل سعدون رفعت رأسها وصاحت به : « ويلك ؟ أين كنت وكيف أتيت في ابان الحاجة اليك ؟ » •

ثم أشارت له بالقعود فقعد وقعد بهزاد وهي لا تراه

فقال سلمان : « كنت مجدا في البحث عن بهزاد حتى وجدته »

فأبرقت أسرتها وصاحت : « وجدته ؟ •• أين هو ؟ »

فأشار الى بهزاد وقال : « هذا هو يا سيدتي »

فدهشت وأجفلت وصعد الدم الى وجهها ونظرت الى بهزاد وحدقت فرأت فيه جمالا وهيبة ووقارا ، فلم تتمالك أن صاحت فيه : « أنت بهزاد ؟ »

قال : « نعم أنا هو »

قالت : « كيف تجرأت على المجيء الينا ؟ ألم تخف بطش أمير المؤمنين ؟»

فقال بهدوء ورزانة : « لم أخفه حيا فكيف أخافه ميتا ؟ »

فذعرت واقشعر بدنها ولطمت خديها وصاحت : « أمير المؤمنين مات ؟ ابني محمد •• ماذا تقول ؟ أتهزأ بي يا نذل ؟ »

قال : « كلا يا سيدتي اني أقول الحق • ويسوءني أن يؤلمك هـــذا ، ولكنك سألتني فلم أكذبك »

فالتفتت الى سلمان وهي تحسب نفسها في منام وقالت : « سعدون ، قل الصحيح• قل أين أمير المؤمنين ؟ أظن الرجل يهذي •• أين ابني محمد؟ ولدي حبيبي • أين هو ؟ •• قل »

فأجابها بفتور : « رأيت رأسه معلقا على حائط البستان يا سيدتي ،وقد قضي الامر » • قال ذلك ونهض فلطمت زبيدة خديهـــــا بكفيها وصاحت وولولت • وسمع بهزاد في تلك اللحظة صوت ميمونة تستغيث وتقول : « آه • أين انت يا بهزاد ؟ انجدني أنقذني »

فوثب من القاعة ويده على خنجره وهو يقول : « لبيك يا حبيبة »

فرأى جماعة من العيارين قد أمسكوا بشعرها وأخذوا يجرونهـــا وابن الفضل واقف يقول : « خذوا هذه الخائنة »

فما كان من بهزاد الا أن استل خنجره وطعن ابن الفضل ، طعنة قضت عليه ، وتحول الى العيارين وصاح فيهم : « أخسأوا يا أنذال جاءكم بهزاد» فلما سمعوا صوته ورأوا ابن الفضل مجندلا فروا هاربين •ولم تكن ميمونة تعلم بوجود بهزاد هناك ولكنها لما يئست من النجاة ورأت ابن الفضل يأمر العيارين بجرها استغاثت على غير هدى ، فلما رأت بهزاد ترامت عليـــه وأغمي عليها وأسرعت جدتها اليه وقالت : « من أين أتيت الينا أيها الملاك؟ اني أخاف عليك من هؤلاء الانذال »

فقال : « لا تخافي يا سيدتي ان بغداد في قبضتنا ورأس الأمين معلق على الحائط يراه الناس »

فلما سمع أهل القصر ذلك ذعروا وأخذوا يتراكضون الى زبيدة فرأوها في القاعة وقد حلت شعرها وأخذت في النحيب وهي تقول : « وا ولداه ! قتلك البغاة الظالمون ! »

فسمعتها عبادة تقول ذلك ، فأثر قولها في نفسها ، فدخلت اليها ولما رأتها في تلك الحال غلب عليها الحزن ورقت لحالها فأكبت على يديها تقبلهما وتقول: « ارفقي بنفسك ياسيدتي هذه ارادة المولى » . وتذكرت مصيبتها بابنها فشاركتها في البكاء

وكانت زبيدة تتوقع أن تشمت عبادة بها ، فلما رأت مجاملتها وسمعت بكاءها خجلت ونظرت اليها نظر الانكسار والذل . ولا يذل مثل الموت — وقالت : « صدقت يا أم الفضل (عبادة) لا يعرف قيمة الثكل الا الذي ذاقه .. أواه ! يا ولداه ! رحم الله جعفرا والرشيد ورحم الله محمدا .. مات ؟ . مات حقيقة ؟ . قتلوه ؟ . علقوا رأس ابني ؟ . بالله ارفقوا ببدنه الغض . انه لم يتعود الشقاء . لا طاقة له بحر الشمس . كيف علقتموه انه لم يتعود غير الرفاه والنوم في الحرير . حرام عليكم . انه شاب في مقتبل العمر . ألم يكن الاولى أن أقتل أنا ويبقى هو حيا . انزلوه وعلقوني مكانه . صدقت يا أم الفضل انني لم أصغ لتضرعك لاني لم أكن قد ذقت الثكل .. » وأخذت في البكاء والنحيب ، وطفقت تلطم وجهها وتخطر في القاعة ذهابا وايابا على غير هدى حتى لم يبق أحد هناك الا بكى . ثم اشتغل كل بنفسه

أما بهزاد فلم يكن همه الا ميمونة فحملها من بين الغوغاء وخفف عنها وهي تحسب نفسها في منام . تنظر الى بهزاد ولا تصدق انها تراه وقد جاءها في ابان الحاجة اليه فانقذها من القتل . وبينما هي تمشي بالدار متكئة على ذراعه انتبهت الى جثة ابن الفضل ملقاة على الارض ، فقالت لبهزاد : « اني آسفة لمقتل هذا الشاب ، فقد كان يريد خيرا ، ولكنه كلفني ما لا طاقة لي به . ان قلبي لا يحب غير بهزاد ؟ »

فقالت بهزاد : « ولكنني رأيته ينتهرك ويهددك فلم أطق صبرا فقتلته . ما لنا وللناس قد قضي الامر ، هلمي بنا . اين سلمان .. هيا بنا »

فجاء سلمان وأخذ بيد عبادة وأخذ بهزاد ميمونة ، وخرجوا فركبوا دوابهم وانصرفوا وتركوا أهل قصر المنصور في مأتمهم

وانتهى بمقتل الأمين ما كان من النزاع بين المتخاصمين، ودخلت بغداد في حوزة المأمون وأصبحت الخلافة له . ولكنه بقي في خراسان وأناب عنه في بغداد وغيرها الحسن بن سهل أخا الفضل وكتب الى طاهر بن الحسين بذلك

فأكبت عبادة على يدى زبيدة تقبلهما وتقول : « ارفقى بنفسك يا سيدتى »

أما بهزاد فلم يبق له عمل فى بغداد ، وأصبح راغبا فى الرجوع الى أمه بمرو ليبشرها بالفتح ويخبرها بحبه ميمونة لتباركه وتزوجه بها • وفي أصيل اليوم الذى خرج فيه من قصر المنصور ركب هو وميمونة وعبادة وسلمان يقصدون الى خراسان ، وميمونة لا تصدق انها مع حبيبها ، ولا ترتوى من النظر اليه • وكثيرا ما اشتاقت لمعرفة حقيقة حاله ، وما هو نسبه ، وماذا كان يحمل في ذلك الصندوق من اسرار • وهمت بأن تسأله أثناء الطريق، فمنعها الحياء ووجود جدتها • على أنها عللت النفس بمعرفة ذلك عند وصولها الى خراسان

وكانت فاطمة والدة بهزاد وسائر أهل خراسان ينتظرون خاتمة الاحداث بفارغ الصبر، وقد قضوا فى ذلك منذ توفي الرشيد بطوس نحو خمس سنوات، والفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان يشير عليه ويدير شؤونه وسماه المأمون ذا الرياستين

فلما جاءهم البريد بمقتل الأمين وتسليم بغداد فرحوا واستبشروا، ثم أرسل طاهر رأس الأمين الى المأمون ومعه البردة والقضيب والخاتم، فوصل الرأس الى الفضل فأدخله للمأمون على ترس فلما رآه سجد • وقد تمكن الفضل مما أراده من تمهيد الأمور لارجاع سلطة الفرس بظل الشيعة ، اذ بايع المامون بالخلافة بعده لعلي الرضا زعيم حزب الشيعة ، وأمر الناس بترك السواد شعار العباسيين والاستعاضة عنه بلباس الخضرة • فكان لذلك وقع سيء لدى العباسيين في بغداد وكاتبوا المأمون يعاتبونه ويهددونه • وكان الفضل يأخذ كتبهم ولا يطلع المأمون عليها لفرط دالته ونفوذ كلمته

وصل بهزاد الى مرو وقد نال ما يرجوه من ثمار سعيه وخطيبته معه • أما سلمان فقد قام بما عليه ولكنه لم ينل جزاءه بعد • فلما وصل بهزاد الى مرو واستأذن سلمان بالذهاب الى بيته مع عروسه ، قال له سلمان : « أما انت فقد فرغت من مهمتك وأنا لا أزال أتوقع الجزاء »

فقال بهزاد : « ستكون رئيسا لجماعة الخرمية ، وقد أوصيت لك بذلك من قبل • ألا يقنعك هذا الجزاء ؟ »

قال: « كلا • وانما أرجو شيئا آخر هو أهم عندى من الرياسة ، فكن ساعدى فيه كما كنت ساعدك فى مثله » • قال : « وما ذاك ؟ »

قال : « ألم أكن نصيرك فى الحصول على ميمونة ؟ فأنا أطلب الزواج ببوران بنت الحسن بن سهل ، واذا شاء عمها الفضل ، فالأمر سهل ، وأظننى أهلا لها بعد ما أتيته من المعجزات فى نصرة هذه الدعوة »

فأطرق بهزاد وأعمل فكرته في هذا الطلب ، فلم يجده بعيد المنال . وتذكر ما دار بينه وبين الفضل في شأن بوران قبل عودته الى بغداد ، فرأى في تزويجها من سلمان فضا للمشكلة ، فقال : « غدا ننظر في ذلك ولكنني أطلب منك أمرا هو خاتمة أفضالك على »

قال : « وما هو ؟ » . قال : « انى أحتاج الى راس الأمين . هل تحتال في اخراجه الى من مدفنه سرا كما أخرجنا رأس جعفر ورأس ابى مسلم ؟»

فادرك سلمان غرضه ، فقال : « ذلك شيء يسير فانتظرنى الى الغد فآتيك بالرأس الى منزلك » . وافترقا

وسار بهزاد توا الى بيت أمه فاطمة ومعه عبادة وميمونة وهو يخاف أن يكون قد دهمها الموت أثناء غيابه فقرع الباب وهو مصيخ بسمعه ، فلم يجبه أحد ، فخفق قلبه ، فقرع ثانية فسمع وقع أقدام في الداخل ، ثم فتح الباب وأطل الخادم الذى فتحه له في المرة الماضية وأنس في وجهه تغيرا وانقباضا ، فابتدره قائلا : « كيف الوالدة ؟ »

فرحب به وقال : « في خير . ولكنها تشكو ضعفا من شدة شوقها اليك »

فأوصى الخادم بأن يدخل الضيفتين الى غرفة ترتاحان فيها ، وأسرع ودخل على والدته فوجدها ملقاة على سريرها وقد غارت عيناها وبرزت وجنتاها وبان فيها الهرم المتناهى ، فوقف بازائها وحياها بصوت ضعيف وهو يخشى أن تكون قد ماتت

فلما سمعت صوته أفاقت وفتحت عينيها وأدارت راسها ببطء لشدة الضعف وتبسمت تبسما لا رونق فيه . فجثا بجانب سريرها وأكب على يدها وقبلها ، فأشارت اليه أن يدنو منها ، فقبلت جبينه ونظرت اليه نظرة مستفهم ، فقال : « قد جئتك يا سيدتي بما تريدين ، فغلبنا القوم الظالمين ، وقتلنا خليفتهم الغلام الغر ، وأصبح ابن اختنا المأمون خليفة المسلمين ، وغدا يكون الخليفة على الرضا صاحب النسبة ، ثم تعود الدولة الينا . فها أنذا انتقمت لجدى بخنجره كما أمرت» . ومد يده فأخرج الخنجر وأراها أثر الدم على نصاله ، وقال : « وانتقمت لجعفر بن يحيى »

فبان السرور في وجهها وتنهدت تنهد مرتاح ، وقالت بصوت منقطع « بورك فيك يا بني . لقد نزعت العار عن قومك ، وجبرت قلب أمك » ثم تنهدت وتململت وهي تتجلد وتغالب الضعف ، وقالت . « أين الرأس الثالث ؟ »

قال : « يكون هنا في صباح الغد وتدفن الرؤوس الثلاثة معا »

فرفعت يدها نحو السماء كأنها تدعو له ثم لمست وجهه لتباركه فأحس ببردها وجفافها ، كأن اصابعها من حديد بارد ، وأومأت اليه فانحنى عليها

فقبلته ثانية وهمست في أذنه بصوت لا يكاد يبين : « ادفنه معي غدا »

فنظر الى وجهها الشاحب الضئيل ، فرأى في عينيها دمعتين تحاولان الانحدار ، ولا تجدان مخرجا من المقلتين لشدة غورهما وهي مستلقيةفتحقق قرب أجلها ، فابتدرها قائلا : « لقد باركتني يا أماه فاتوسل اليك أن تباركي فتاة ستكون شريكة حياتي كما كانت شريكتي في المصائب » . والتفت فأشار الى الخادم أن ينادي ميمونة وعبادة

وكانت ميمونة قد سمعت بهزاد يسأل الخادم عن أمه ساعة وصولهم فعلمت أنها في المنزل وأصبحت مشوقة الى معرفة نسبه . فلما جاءت لمشاهدة أمه ذعرت لما رأته فيها من الضعف والشيخوخة ، وبان ذلك عليها وأدرك بهزاد ذعرها ، فابتدرها قائلا : « طالما أحببت أن تعرفي نسبي ، فاعلمي الآن ان هذه الراقدة أمي ، وهي بنت أبي مسلم صاحب الدعوة . مؤسس الدولة العباسية الذي قتل غدرا ، كما قتل أبوك • وليس في خراسان من يعلم أني حفيد ذلك البطل الا سلمان الخادم وأمي . والناس يحسبونني ربيبها لأني ولدت بعد وفاة أبي ، وادعت هي أني ربيبها وأوقفتني على الانتقام لأبيها وسمتني كيفر • وقد آن لي أن أخبرك أيضا عما في ذلك الصندوق ، فاعلمي أن فيه رأس جدي ورأس أبيك »

فلما سمعت ميمونة ذلك أجفلت وتغير لونها ، فشغلها عن دهشتها باتمام حديثه فقال : « وقد حفظتهما في الصندوق حتى أتيت برأس الأمين وهو ثالثهما ، وسيؤتى به الينا غدا ويدفن الثلاثة معا فأكون قد وفيت نذر والدتي وزدت على ذلك اني أتيتها بابنة جعفر حبيبنا »

وكانت فاطمة في أثناء ذلك مستغرقة في النوم لشدة ضعفها ، فلما فرغ بهزاد من حديثه أمسك ميمونة بيدها وأدناها من سريرها وهو يقول : « هذه ميمونة بنت جعفر بن يحيى قتيل الرشيد ، قد أسعدني الحظ بلقياها ، وأحببتها وأحبتني، وقاست العذاب معي ، وقد فرحنا معا، وهي ستكون زوجتي فباركيها »

فرفعت يدها وأشارت اليها أن تدنو منها ، فدنت فقبلتها ومست وجهها بكفها وتمتمت وأشارت الى ثوبها الاسود وشفعت ذلك باشارة النهي ، ففهمت انها تامرها بنزع الحداد فأشارت مطيعة • ثم استقدم عبادة وكانت بجانبه ، وقال لها . « وهذه أم الفضل والدة جعفر »

فحدقت فيها مع شخوص بصرها وجوده وتكلفت الابتسام ، كأنها تقول : « عرفتها » • فقالت عبادة : « نعم اني أعرفك منذ صباي » • وانحنت عليها وقبلتها فلمستها فاطمة بشفتيها وقد أخذ منها الضعف مأخذا عظيما وأحست بضيق صدرها وسرعة تنفسها ، فعلم القوم انها في حالة النزع ولكنها ما زالت مبتسمة ابتسام الفوز حتى فاضت روحها وهم ينظرون

الخائن لا صديق له

وبعد أيام عقد لبهزاد على ميمونة ، ثم بعث الى سلمان فولاه رياسة الخرمية فذكره سلمان بوعده بالتوسط لدى الفضل فأشار مطيعا.وفى اليوم التالى ركبا الى بيت الفضل بن سهل . وكان الفضل قد بلغ أوج سعده بما أوتيه من التوفيق باستقلال المأمون بالخلافة،وبالوصية بها بعده لعلى الرضا، فأصبح الفضل الآمر الناهي تجرى ارادته حتى على المأمون . فلما أنبأه الحاجب ان بهزاد وسلمان بالباب أمر بادخالهما وكان مجلسه غاصا بأصحاب الحاجات وفيهم الوجهاء والقواد الا أخوه الحسن لأنه سار الى بغداد . فلما دخل بهزاد رحب به الفضل ودعاه للجلوس الى جانبه على السرير وأشار الى سلمان فجلس على كرسي بين الخاصة فأخذ الفضل يسأل بهزاد عن سفره وما شاهده فأخبره انه قادم من بغداد بعد أن شهد سقوطها فقال له : «وهل كنت فيها يوم مقتل الأمين ؟ »

قال : « نعم كنت مع صديقي سلمان وشاهدنا راس الأمين منصوبا على حائط البستان ».فضحك ضحكة الظافر وقال : «على الباغى تدور الدوائر»

ثم شغل بقضاء مصالح الناس وسكت بهزاد ريثما ينفض المجلس ولم يتم ذلك الا بعد أذان الظهر فانصرف الناس ولم يبق غير بهزاد وسلمان والفضل

فنظر بهزاد الى الفضل وقال : « يسرني أن أروى لك ما أتاه صديقى سلمان من المعجزات فى أثناء هذه الوقائع فانه كان من أكبر العاملين فى تنفيذ رغبات ذى الرياستين بعقله وسيفه » . فابتسم الفضل وقال : « سنكافئه بولاية عمل من الأعمال المهمة . أم تراه مثلك لا يرغب فى المناصب ؟ »

فضحك بهزاد وقال : « اذا قلدته عملا فقد أسبغت عليه نعمك ولكننى أحب ان ينال حظوة أخرى فى عينيك يتشرف بها بين الأقران »

فقال : « وما ذلك ؟ » . قال : « أن تزوجه بابنة أخيك »

فوجم الفضل ثم قال : « وأى بنات أخى تعنى ؟ » قال : « بوران »

فتراجع وتغير وجهه وهز رأسه وقال : « أيطلب هو ذلك ؟ »

قال : « بل أنا أطلبه له اذا شئت فانه من خير الرجال »

قال : « يعز علي رد طلبك يا بهزاد فان بوران مخطوبة »

فظن بهزاد لأول وهلة أنه يعني خطبتها له فأراد الاستفهام فسبقه سلمان الى الكلام وقال : « لمن ؟ »

فنظر الفضل اليه وقد امتعض من اعتراضه وقال : « مخطوبة لأعظم رجل في الاسلام اليوم » . فأدرك سلمان أنه يعني المأمون وتحقق ذهاب العروس من يده فانقبضت نفسه وهاج غضبه وقال : «يلوح لي أن ذا الرياستين نسي وعده »

قال : « أي وعد ؟ » . قال : « ألم نتواعد على شيء ؟ »

قال وفي صوته جفاء وانتهار : « متى تواعدنا ؟ »

قال : « هل أقول ذلك الآن ؟ » . قال : « قل ما تشاء »

قال : « تواعدنا عليه لما كفرت بالمجوسية واعتنقت الاسلام رغبة في المناصب وتواطأنا على السعي في هذا السبيل ، وأنت يومئذ لا تملك شيئا، وكانت بوران طفلة . أما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبحت ذا الرياستين وصاحب الأمر والنهي ، فاذكر ما تعاقدنا عليه وأني قمت بما علي ، فهلا قمت بما عليك ؟ » . فظهر الغضب في وجه الفضل لما يتخلل كلام سلمان من التعريض والتلميح وقال : « لا أذكر شيئا من ذلك . ولكن ما رأيك هل نرد خطيبها خائبا ونزفها اليك ؟ وعلى كل حال فالأمر لوالدها وهو غائب »

فوقع قوله في قلب سلمان وقوع السهم وامتقع لونه ورقص شارباه في وجهه وتحفز للنهوض فرأى بهزاد تغيره فوقع في حيرة وأراد أن يستأنف الكلام فرأى الفضل يتناول مذبته ويتزحزح في مجلسه ، فعلم أنه يفض المجلس فوقف بهزاد وسلمان وانصرفا بعد أن حياهما الفضل تحية فاترة. فلما خرجا أراد بهزاد أن يخفف من غضب سلمان فلم يدعه هذا يقول شيئا وهم بوداعه فقال بهزاد : « لا تغضب يا أخي لعل للرجل عذرا مقبولا » . فأجابه وفي صوته خشونةالغضب : «لا عذر له ولكنه دنيء الأصل لا يعرف قدر الرجال وسأريه عاقبة أمره » . ومشى مهرولا . وظل بهزاد واقفا حتى توارى سلمان عنه وهو يحسب لهذا التهديد ألف حساب.لعلمه ان صاحبه ذو كيد ومكر لا يثنيه عن الأذى ضمير أو عهد ولا يرعى ذمة أو جوارا

أما سلمان فسار توا الى قصر المأمون واستأذن في مقابلته فأذن له ، فلما اختليا قال سلمان : « اني من موالي أمير المؤمنين ويفرحني ان ما بذلناه في سبيل نصرته لم يذهب عبثا فمن الله علينا ببقائه وبالخلافة وهو خليق بها »

فتوقع المأمون منوراء ذلك خبرا جديدا ولم يكنغافلا فاغتنم هذهالفرصة وقال : « اني شاكر لأخوالي الخراسانيين فانهم أصحاب الفضل »

فتظاهر سلمان بالتردد كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى فقال له المأمون : « قل ما بدا لك ولا تخف »

قال : « أنا أعلم أني أستهدف للموت بما سأقوله ولكنني أقوله رغبة في حفظ حيـــاة أمير المؤمنين ودوام دولته وأرجو أن يبقى قولي سرا عن كـل انسان » • فاهتم المأمون وقال : « أتوصيني بحفظ السر وقد قامت دولتنا به ؟ قل سريعا • لا تخف »

قال : « ان وزيرك الفضــل بن سهل يوهمك انه رد السلطة اليك وهو يدبرها لنفسه » • فخاف المأمون أن يكون الرجل مدسوسا من الفضل عليه فقال : «ان مثل الفضل أهل للتمتع بنفوذ الكلمة بعد الذى بذله في سبيلي»

قال : « أرى مولاي يحاذر أن يظهر ما يجول في خاطره ورأيه الأعلى ، ولكنني أقول ان الفضل انما أراد السلطة لنفسه ليس لنفوذ كلمته فحسب، ولكنه يسعى في نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين لترجـع الى الفرس ولذلك اشترط البيعة لعلي الرضا بعد أمير المؤمنين »

فانتبه المأمون لمساعي الفضل في هذا الشأن ، ولم يكن غافلا عنها من قبل ولعله اضطر اليها رغبة في التغلب على أخيه فقـال : « ولكنني بايعت لعلي الرضا مختارا ، لأني لم أجد في بني العباس من هو أهل للخلافة »

قال : « وهل تضمن أن يكون بنو علي أهلا لها •• وهب انك فعلت ذلك مختارا فهل تضمن أن يصبر الفضل على نقلها حتى يستوفي أمير المؤمنين حظه منها ؟• أعذر صراحتي يا أمير المؤمنين ، وانا واثق من بقاء هـذا سرا ، ولا أطلب الا الحذر من هذا الرجل على حياتك ثم على دولتك »

فاطرق المأمون وقد جالت في خاطره خواطر كثيرة وحدثته نفسه بأمور سكت عنها واكتفى بقوله : « وما الحيلة ؟ »

فاستبشر سلمان بهذا السؤال وقال : « اذا عهد أمير المؤمنين في ذلك الى فاني أنقذه بجرعة عسل أو شربة ماء »

فأعظم المأمون جسارة هذا الرجل وقال في نفسه : « ان وجود مثل هذا الغادر خطر على أعدائه وأصدقائه • لأنه بعد أن بذل نفسه في خدمة الفضل أصبح يسـعى في قتله فلابد لذلك من سبب حمله على التغير ، ولا يبعـد أن يحدث ما يغيره على سواه » • لكنه رأى فيه عونا على التخلص من الفضـل فسكت هنيهة ثم قال : « سننظر في ذلك » • واكتفى سلمان بهذا الجواب لعلمه أنه لا يجيبه على اقتراحه جوابا صريحا لأسباب يعرفها مثله »

وتحرك المأمون فخرج سلمان ولبث المأمون بعد خروجه يفكر فيما سمعه وهو يخاف أن يكون قد جاء جاسوسا من قبل الفضل •• فعزم على استطلاع رأي الفضل خلسة

وفي ذلك المساء جاء الفضل الى المأمون على عادته وقد أنبأه جواسيسـه بدخول سلمان على المأمون في ذلك اليوم فظنه جاء ليوسطه في شأن بوران

ولم يخطر بباله أنه يجيء للوشاية به فيأصل مشروعه لما فيذلك من الايقاع بالفرس كافة • وتعمد المأمون الخلوة بالفضل وتبادلا الأحاديث المتنوعة حتى ذكر سلمان فقال المأمون : « قد بلغني عن هذا الرجل أعمال أتاها في بغداد يمدح عليها »

فقال الفضل : « نعم يا سيدي قد أعاننا حزبنا بمساع أساسها المكر والخيانة وقد افادتنا ولكنه كبير المطامع » • قال : « لا بأس من تقليده منصبا »

فابتسم الفضل وقال : «عرضت عليه ذلك فرأيته طامعا فيما يقصرأمثاله عن نيله • ولو علم أمير المؤمنين بمطمعه لاستغربه » • قال : « وما هو ؟ »

قال : « انه طامع في بوران ابنة أخي ، ولما قلت له انها مخطوبة غضب كأنه أولى بها من أمير المؤمنين »•وكان المأمون قد خطب بوران من أبيها سرا

فأدرك المأمون سر الخلاف وعلم أن الرجل لم يبح بسر الجماعة الا انتقاما ولم يفت المأمون اطلاع الفضل على مجيء سلمان ، فأحب أن يذهب خوفه من تلك الزيارة فهز رأسه احتقارا لسلمان وسكت ، وترك المسألة وأظهر الاستغراب لما سمعه وغير الحديث ، فانصرف الفضل وهو مقتنع بأنه أوغر قلب المأمون على سلمان

ولبث المأمون بعد ذلك يراقب ما يبدو من الفضل ليتحقق ما بلغه حتى جاء علي الرضا ذات يوم لزيارته وهو ولي عهده على الخلافة فرحب به وجرى الحديث بينهما فقال علي : « انما جئتك لأنبئك بما يخفيه وزيرك الفضل عليك »

قال : « وما ذاك ؟ » • قال : « ان أهلك في بغداد لما علموا أنك بايعتني بعدك نقموا عليك أشياء وقالوا عنك انك مسحور مجنون وبايعوا ابراهيم ابن عمك المهدي مكانك وخلعوا بيعتك لاعتقادهم أنها ستؤول بعدك لي »

فاستغرب المأمون ذلك لأنه لم يكن بلغه فقال : «لم يبلغني شيء منذلك»

قال : « لأن وزيرك الفضل يتناول أخبار البريد ويخفيها عليك رغبة في منافعه » • فشكر المأمون لعلي حرية ضميره وقال : « اذكر ان الفضل قال لي ان أهل بغداد أقاموا ابراهيم بن المهدي أميرا عليهم لا خليفة »

قال : « ان الفضل قد كذبك • والخلاف قائم الآن بين الحسن بن سهل وبين ابراهيم . والناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه الفضل ، ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك » • فقال المأمون : « ومن يعلم هذا ؟ »

فسمى له رجالا اطلعوا على ذلك فاستقدمهم المأمون ، وسألهم بعد أن

أعطاهم الأمان من الفضل وكتب لهم خطه به ، فأخبروه بالبيعة لابراهيم ابن المهدى،وان أهل بغداد قد سموه الخليفة السنى ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان على منه . فلما سمع المأمون ذلك أثنى على على وصرفه ، ولما خلا بنفسه أخذ يفكر فى أمره فصمم على قتل الفضل ولكنه خاف من بقاء على الرضا وليا للعهد وانه اذا لم يقتل ظل موقفه حرجا

وبلغ سلمان ماكان من على وما قصه على المأمون فعلم أن التمرة قد نضجت فدخل على المأمون فى خلوة فلمح له المأمون تلميحا فهم مراده منه وانصرف يعد المكائد ويغتنم الفرص

وسافر المأمون الى بغداد سنة ٢٠٢ هـ فلما وصل الى سرخس وثب قوم على الفضل فى الحمام فقتلوه ، وكان ذلك بمساعى سلمان ، فحاكم المأمون الذين وثبوا عليه وقتلهم . وبعد أن وصل المأمون الى بغداد بقليل شاع مقتل على الرضا بأكلة عنب مسموم ، وتحدث الناس ان المأمون دس له ذلك العنب . وانما دسه سلمان

فنجا المأمون بذلك، وظلت الخلافة فى أهله ، ولكنه ظل خائفا من سلمان فدس اليه من قتله خوفا من انقلابه عليه فمات جزاء غدره فصح فيه قول بهزاد : « ان الغادر تعود عليه عاقبة غدره »

أما بهزاد فلم يعد يرى سلمان منذ افترقا يوم خروجهما من عند الفضل، ثم بلغه مقتل الفضل بن سهل وعلى الرضا فأسف لضياع مساعيه فى نقل السلطة الى الفرس ، ولكنه تعزى بما وفق اليه من الانتقام لجده وحميه ، وعاش مع عروسه فى راحة والناس لا يعرفون أنه حفيد أبى مسلم وانها ابنة جعفر البرمكى. ثم بحث عن سلمان فعلم ان المأمون قتله خوفا من غدره فقال فى نفسه : « ذلك جزاء الخيانة وعاقبة الغدر »

أما المأمون فبعد أن جاء بغداد تزوج ببوران بنت الحسن بن سهل ترضية لأبيها عما لحق بأخيه فان سبب قتله لم يخف عليه. ولزفاف بوران احتفال محفوظ فى بطون التاريخ

روايات تاريخ الإسلام

صدر منها :

- فتاة القيروان
- الأمين والمأمون
- غادة كربلاء
- المملوك الشارد
- عروس فرغانة
- عبد الرحمن الناصر
- عذراء قريش
- فتح الأندلس
- أرمانوسة المصرية
- جهاد المحبين
- صلاح الدين الأيوبي
- الانقلاب العثماني
- العباسة أخت الرشيد
- استبداد المماليك
- أبو مسلم الخرساني
- شجرة الدر
- شارل وعبد الرحمن
- أحمد بن طولون
- فتاة غسان
- أسير المتمهدي
- الحجاج بن يوسف
- ١٧ رمضان